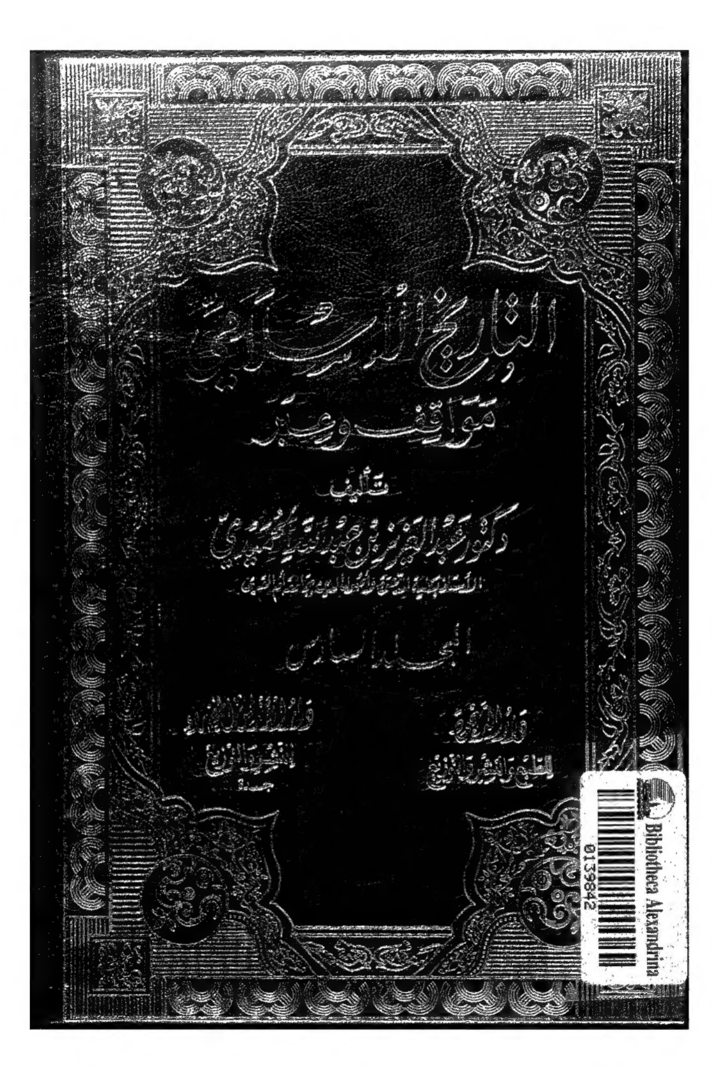

التاريخ الإسلامي
مواقف وعبر
تأليف
دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
المجلد السادس
دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة
للطبع والنشر والتوزيع
Bibliotheca Alexandrina
0139842


الخلفاء الراشدون

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حى السلامة - شارع عبد الرحمن السديرى - مركز الزومان التجارى

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية





الجزء الثالث

تأليف
دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مواقف وعبر

فى

معركة اليرموك

إستعداد الروم للمعركة :

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله ابن قرط الثمالي « أن أهل إيلياء وأهل قيسارية بعد يوم «فحل» تواصوا واجتمع رأيهم على أن يبعثوا وفداً إلى ملك الروم هرقل بأنطاكية ، فيخبرونه بتمسُّكهم بأمره وإقامتهم على طاعته وبخلافهم العرب وكراهيتهم لهم ، ويسألونه المدد والنصر، وإلا أمكنوهم من أنفسهم .

فلما أن جاءه هذا رأى أن يبعث الجنود، ويقيم هو بأنطاكية فأرسل إلى رومية وإلى القسطنطينية وإلى من كان من جنوده وعلى دينه من أهل الجزيرة وأرمينية، وكتب إلى عُمّاله أن يحشروا إليه كل من كان أدرك الحلم من أهل مملكته، فما فوق ذلك إلى الشيخ الفاني، فأقبلوا إليه ، وجاء منهم مالا تحمله الأرض .

وجاءه جُرجير صاحب أرمينية في ثلاثين ألفاً .

وأتاه أهل الجزيرة ، وفزع إليه أهل دينه، وجميع من كان في طاعته منهم .

ودعا باهان ، وكان من عظمائهم وأشرافهم، فعقد له على ثلاثمائة ألف رجل، ووجّه معه قوّاده وجنوده، وأمر لهم بجوائز، وأعطى باهان مائتي ألف درهم، ثم أعطى الأمراء مائة ألف درهم لكل واحد منهم .

وقال لهم : إذا اجتمعتم فأميركم باهان ، وقال: يامعشر الروم، إن العرب قد ظهروا على سورية، ولم يرضوا بها حتى تعاطوا أقاصي

بلادكم، وهم لايرضـون بالأرض والمدائن والبُـرّ والشـعـيـر والذهب والفضة حتى يسبوا الأخـوات والأمهات والبنات والأزواج ، ويتخذوا الأحرار وأبـناء الملوك عبـيداً ، فـامنعوا في حـريمكم وسلطانكم ودار مملكتكم .ثم وجههم إلى المسلمين »(١) .

وهكذا سعى هرقل في جمع هذا الجيش العظيم وقرر أن يخوض آخر معركة مع المسلمين ليكون القـرار النهائي بعدها، من تثبيت حكم الروم في سوريا بعد الانتصار أو الرحيل النهائي بعد الاندحار .

وبعد أخذ التجربة الكافية من المعارك السابقة تبين لهرقل أن الفرق شـاسع بين جنود الـروم وجنود المسلمين ، حـيث يتّـسم المسلمـون بالشجـاعة الخـارقة ، وسرعـة الحركة، والتـخطيط الحربي المتـفوق، والتصرف الفـوري عند حدوث المفاجآت، بينما لاتتوفـر هذه الصفات العالية لدى جيش الروم .

ومن أجل أن يغطي هرقل هذا الفرق الشاسع فقـد قرر أن يحشد كل مالدى الروم وأحلافـهم من قوة حربية في الرجـال والعُدَد، حتى يقـابل الروم الفرد المسلم بعـشرة أضـعافـه ، فيـشغلوا بذلك جـيش المسلمين عن التمتع بالصفات السابقة التي يتفوقون بها .

ومن أجل ذلك سعى هرقل حثيثا في جمع هذا الجيش الضخم.

مشورة أبي عبيدة مع قادته :

قال الأزدي في سيـاق روايته : فقدمت عيـون من قِبَلهم [يعني المسلمين] فأخبـروا بمقالة هرقل ملكهم، بمسيرهم إلينا وبجـمعهم لنا،

(١) فتوح الشام للأزدي / ١٥١ - ١٥٣ ، وانظر تاريخ دمشق ٢/ ١٤٤ .

ومن أجلب علينا معهم ومن غيرهم ممن كان على دينهم وفي طاعتهم.

فلما جاء أبا عبيدة خبرهم وعددهم وكثرتهم، وما أقبلوا به من غيرهم ممن كان على دينهم وطاعتهم من الجنود رأى ألا يكتم ذلك المسلمين، وأن يستشيرهم فيه لينظر مايؤول إليه رأي جماعتهم.

فدعا رءوس المسلمين وذوي الهيئة والصلاح منهم ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال :

أما بعد ، فإن الله عز وجل وله الحمد قد أبلاكم أيها المؤمنون فأحسن البلاء عندكم ، وصدقكم الوعد، وأعزّكم بالنصر، وأراكم في كل موطن ما تُسرُّون به، وقد سار إليكم عدوّكم من المشركين بعدد كثير ، ونفروا إليكم فيما حدثني عيوني نفير الروم الأعظم، فجاؤوكم برًّا وبحرًا ، حتى خرجوا إلى صاحبهم بأنطاكية، ثم قد وجّه إليكم ثلاثة عساكر ، في كل عسكر منها ما لا يحصيه إلا الله من البشر، وقد أحببت ألاَّ أغرّكم من أنفسكم، وألاَّ أطوى عنكم خبر عدوّكم، ثم تشيرون عليَّ برأيكم، وأشير عليكم برأيي، فإنما أنا كأحدكم .

وقد تبادل أبو عبيدة المشورة مع قادته واستقر رأيهم أخيرًا على أن يغادروا مدينة «حمص» وأن يتشاوروا مع بقية القادة في الشام ثم يختاروا مكانا مناسبا للاجتماع ومواجهة الروم فيه ، قال : ثم بعث إلى حبيب بن مسلمة ، وكان استعمله على الخراج، فقال له : انظر ماكنت جبيته من الخراج من حمص فاحتفظ به حتى آمرك فيه بأمري، ولاتجبينَّ أحدًا ممن بقي من الناس حتى أحدث إليك في ذلك .

فلما أراد أن يشخص دعا حبيب بن مسلمة فقال: اردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهـل البلد ماكنا أخذنا منهم ، فـإنه لا ينبغي لنا إذلم نمنعهم أن نأخذ منهم شيـئًا، وقل لهم: نحن على ماكنا عليه فيـما بيننا وبينكم من الصلح لانرجع فـيه إلا أن ترجـعوا عنه ، وإنما رَدَدْنا عليكم أموالكم أنَّا كرهنا أن نأخذ أموالكم ولانمنع بلادكم، ولكنا نتنَحَّى إلى بعض الأرض ونبـعث إلى إخواننا فـيقدمـوا علينا ثم نلقى عـدونّا فنقـاتلهم ، فإن أظـفرنا الله بهـم وَفينَا لكم بـعهـدكم إلا أن لاتطلبوا ذلك .

فلما أصبح أمر الناس أن يرتحلوا إلى دمشق .

ودعا حبيب بن مسلمة القوم الذين كانوا أخذ منهم المال فأخذ يرد عليهم، وأخبرهم بما قال أبو عـبيدة، وأخذ أهل البلد يقولون: ردَّكم الله إليـنا، ولعن الله الـذين كـانوا يملـكوننا من الروم، ولـكن والله لوكانوا هم مـاردّوا علينا، بل غصبـونا وأخذوا مع ماقـدروا عليه من أموالنا (١) .

هكذا عامل أبو عـبيدة أهل حمص وهو في مـوقف القوة، وكان باستطاعته أن لايرد عليهم ما أخذ منهم بل إن في استطاعته أن يسلبهم مـايملكون من أمـوال، ولكنه الوفـاء العظيم الذي لاينبع مـن مجـرد صدوره من نفوس جُبلت على مكارم الأخلاق، بل من الوازع الديني والتقيُّد الدقيق بأحكام الإسلام، فأبو عبيدة يرى أن أخذ الأموال منهم يوقع المسلمين فـي الإثم لأن من شروط الجـزية أن يتـولى المسلمـون

(١) فتوح الشام للأزدي / ١٥٣ - ١٥٦ بتصرف، وانظر تاريخ دمشق ٢/ ١٤٥ .

حماية أهل الذمة، فإذا لم يستطيعوا حمايتهم فلاحقٌ لهم فيها .

وكان لهذا الموقف العالي أثر عظيم في الدعوة إلى الإسلام حيث تعلَّق أهل البلاد بحب المسلمين ، وتمنوا أن ينصرهم الله على أعدائهم، كما جاء في رواية أخرى أنهم قالوا : لَوَلايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعنَّ جند هرقل عن المدينة مع عاملكم [1] .

رسالة إلى عمر :

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر سفيان بن عَوْف بن معْقَل قال: بعثني أبو عبيدة بن الجراح ليلة غدا من حمص إلى دمشق ، وقال . ائت أمير المؤمنين فأبلغه عني السلام ، وأخبره بما قد رأيت وعاينت . وبما قد جاءتنا به العيون، وبما استقر عندك من كثرة العدو ، وبالذي رأى المسلمون من التنحِّي عنهم .

وكتب معه : أما بعد ، فإن عيوني قدمت عليَّ من أرض عدوّنا، من القرية التي فيها ملك الروم، فحدثوني بأن الروم قد توجهوا إلينا، وجمعوا لنا من الجموع مالم يجمعوه لأمّة قطُّ كانت قبلنا ، وقد دعوت المسلمين ، وأخبرتهم الخبر، واستشرتهم في الرأي، فأجمع رأيهم على أن يتنحوا عنهم حتى يأتينا رأيك، وقد بعثت إليك رجلا عنده علم ما قِبَلَنا ، فسَلْه عما بدا لك ، فإنه بذلك عليم، وهو عندنا أمين، ونستعين بالله العزيز العليم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والسلام عليك » .

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ١٨٧ .

قال سفيان : فلما قـدمتُ على أمير المؤمنين سلَّمت عليه، فقال: أخبرني عن الناس، فأخبرته بصلاحهم ، ودفاع الله عنهم .

ثم أخذ الكتاب ، فقرأه ، فقال لي : ويحك، مافعل المسلمون؟

فقلت : أصلـحك الله ، خرجت من عندهم ليـلا من حمص، وتركتهم وهم يقولون نصلّي الغداة، ثم نرحل إلى دمشق، وقد أجمع رأيهم على ذلك فكأنه كرهه حتى عرفت الكراهية في وجهه .

ثم قال : لله أبوك ، مـارجوعهم عن عدوهم وقـد أظفرهم الله بهم في غـير موطـن من مواطنهم ، ومـاتركهم أرضـا قد احـتووها وفتحها الله عليـهم ، وصارت في أيديهم؟ وإني أخاف أن يكونوا قد أساؤوا الرأي، وجاؤوا بالعجز ، وجرؤوا عليهم عدوهم .

قلت : أصلحك الله ، إن الشاهد يرى مـالا يرى الغائب، وإن صاحب الروم قد جمع لنا جـموعا لم يجمعهـا هو ولا أحد كان قبله لأحد كـان قبلنا، ولـقد أخبـرنا بعض عيـوننا أن عسكـرا واحدا من عساكرهم مرّوا بالعسكر في أصل جبل، فهبطوا من الثنية نصف النهار إلى عسكرهم ، فما ظنّك أصلحك الله ، بمن بقي منهم ؟

فـقـال : لولا أني ربَّمـا كـرهت الرأي مـن رأيهم، والشيء من أمرهم فأرى الله يُخير لهم في عاقبة ذلك لكان هذا الرأي منهم أنا له كاره .

ثم قال لي : أخبرني ، أَجُمِعَ رأي جميعهم على التحويل؟[قال: نعم] .

قال : فالحمد لله على ذلك ، فإني أرجو أن يكون الله جمع رأيهم على الخير ، إن شاء الله .

قال : فقلت ، ياأمير المؤمنين ، اشدد أعضاد المسلمين بمدد يأتيهم من قِبَلك قبل الوقعة ، فإن هذه الوقعة هي الفيصل فيما بيننا وبينهم، فإن أظفرنا الله بهم وأظهرنا عليهم هذه المرّة هلكت الروم هلاك عاد وثمود .

قال : فقال لي أبشر ، وبشّر المسلمين إذا قدمت عليهم، واحمل كتابي هذا إلى أبي عبيدة ، وإلى المسلمين ، واعلمهم أن سعيد بن عامر بن حِذْيَم قادم عليهم بالمدد ، إن شاء الله (١) .

رسالة إلى أبي عبيدة :

بسم الله الرحمن الرحيم .من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح وإلى الذين معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، والمجاهدين في سبيل الله، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإنه بلغني توجّهكم من أرض حمص إلى أرض دمشق، وترككم بلاداً قد فتحها الله عليكم وخلّيتموها لعدوكم ، وخرجتم منها طائعين، فكرهت هذا من رأيكم وفعلكم، وسألت رسولكم عن رأي من جميعكم ؟ فزعم أنه ذلك كان من رأي خياركم وأُولى النُّهَى منكم وجماعتكم، فعلمت أن الله عزّ وجلّ لم يكن ليجمع رأيكم إلا على توفيق وصواب ورشد في العاجلة والعاقبة فهوّن ذلك عليّ ماكان دخلني من الكراهية قبل ذلك لتحويلكم .

(١) فتوح الشام / ١٥٦ – ١٥٨.

وقد سألني رسولكم المدد لكم ، وأنا ممدّكم قبل أن يقرأ عليكم كتابي هذا، وأشخص لكم المدد من قِبَلي إن شاء الله ، واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير كنا نهزم الجمع الكثير ، ولا بالجمع الكثير كان الله ينزل النصر عليهم ، ولربما خذل الله الجموع الكثيرة فوهنت، وقلّت وفشلت ولم تغن عنهم فئتهم شيئا ، ولربما نصر الله العصابة القليل عددها على الكثير عددها من أعداء الله فأنزل الله عليكم نصره، وعلى المشركين من أعداء الله وأعداء المسلمين بأسه ورجزه والسلام عليكم [١] .

وهكذا كره عمر رضي الله عنه خروج المسلمين من حمص، ورأى أن ذلك يُجَرِّئ العدو على المسلمين، ويرفع من معنويتهم وقدرتهم على قتال المسلمين لظنهم بأن المسلمين هربوا عن مواجهتهم، ولكنَّ عمر مَحَى من نفسه تلك الكراهية لَمَّا علم أن ذلك التصرف كان عن إجماع من أهل الرأي فيهم بعد عقد مجلس للمشورة ، وهذا تقدير منه لاجتماع كلمة المسلمين وتفاؤل بأن ذلك هو الخير، لأن الله تعالى لايجمع رأي أهل الرأي إلا على مافيه الخير والصواب .

وسيأتي أن رأي عمر هو رأي خالد رضي الله عنهما وأن مافي نفسه من كراهية تحوُّل المسلمين من حمص قد زال حينما عرف أن ذلك عن مشورة أهل الرأي وإجماعهم .

وإننا حينما نتأمل في واقع الجيوش الإسلامية المتفرقة في الشام، وما قام به الروم من سرعة الزحف نحو المسلمين يتبين لنا أن ماقام به

(١) فتوح الشام / ١٥٩ .

أبو عبيدة رضي الله عنه بعد مشورة أصحابه هو الصواب ، لأنه لو كَتب لقادة المسلمين في الشام ليوافوه في حمص فإن هناك احتمالا كبيراً أن يصل إليه الروم وأن يحاصروا حمص قبل أن يأتي القادة البعيدون ، فيتفرق بذلك جيش المسلمين ، وهم أحوج مايكونون إلى الاجتماع لمواجهة الروم الذين زحفوا مجتمعين .

مشورة أخرى مع القادة :

أخرج أبوإسماعيل الأزدي من خبر عبدالله بن قرط قال، لما صلينا الغداة بحمص خرجنا نسير مع أبي عبيدة حتى قدمنا دمشق، وبها خالد بن الوليد وقد تركنا أرض حمص، وليس فيها منا ديّار بعد ماكنا افتتحناها، وأمّنّا أهلها، وكتبنا بيننا وبينهم كتابا، وصالحناهم عليها .

قال : فلما دخلنا دمشق أتانا خالد بن الوليد، وضممنا عسكرنا وعسكره فكان واحداً ، فخلا أبو عبيدة بخالد، فأخبره الخبر، وبمشورة الناس عليه وبالرحلة ، وبمقالة العبسيّ في ذلك[1] .

فقال خالد : أما إنه لم يكن الرأي إلا الإقامة بحمص حتى نناجزهم فيها ، فأما إذا اجتمع رأيكم على أمر واحد فإني لأرجو ألا يكون الله جمع رأيكم إلا على ماهو خير لكم .

فأقام أبو عبيدة بدمشق يومين ، وأمر سويد بن كلثوم القرشي، أن يردّ على أهل دمشق ماكان اجتبى منهم، الذين كانوا أُمّنوا وصولحوا ، فردّ عليهم ماكان أخذ منهم .

---

(١) يعني ميسرة بن مسروق العبسي، وكان أشار بالرحيل واجتماع جيوش المسلمين في مكان واحد ووافقه على ذلك بقية أهل الرأي .

وقال لهم المسلمون : نحن على العهد الذي كان بيننا وبينكم، ونحن معيدون لكم أمانا ومتمّمون ماكنا صالحناكم عليه [1] .

ثم إن أبا عبيدة جمع أصحابه، فقال لهم: ماذا ترون؟ أشيروا عليّ.

فقال يزيد بن أبي سفيان: أرى أن تخرج حتى تنزل الجابية، ثم تبعث إلى عمرو بن العاص فيقدم عليك بمن معه من المسلمين، ثم نقيم للقوم حتى يقوموا علينا، فنقاتلهم ونستعين الله عليهم .

فقال شرحبيل بن حسنة، ولكني أرى إذ خلينا لهم عمّا خلّينا من أرضهم أن ندعها كلها في أيديهم، ونخرج لهم عنها، ونترك التخوم[2] بيننا وبين أرضهم ، فندنوا من خليفتنا ومن مددنا ، فإذا أتانا من المدد ما نرجوا أن نقوى به على عدوّنا قاتلناهم إن هم أتونا، وإلا أقدمنا عليهم إن هم أقاموا عنا .

وقال رجال من المسلمين : هذا - أصلحك الله -رأي حسن، فاقبله وارجع إليه ، فإن عاقبته إن شاء الله راجعة إلى خير .

قال معاذ بن جبل : أصلحك الله،وهل يلتمس هؤلاء من عدوهم أمراً أضرّ عليهم ولا أشد مما تريدون بأنفسكم؟ تخلّون لهم عن أرض قد افتتحها الله عليكم وقَتَل فيها ملوكا من ملوك الروم وصناديدهم، وأهلك الله فيها جنودهم العظام، فإذا خرج المسلمون

(١) وهكذا عامل أبو عبيدة أهل دمشق كما عامل أهل حمص، وقد بينا سابقا أن ذلك كان مثالا للورع والتقوى والتخلق بمكارم الأخلاق .

(٢) التخوم بالضم الحدود .

منها، وتركوها لهم ، وكانوا فيهـا على مثل حالتهم الأولى التي كانوا عليها ، فما أشد على المسلمين دخولها بعد الخروج منها، وهل يصلح لكم أن تخرجوا منها وتدعوها، وتدعوا البلقاء والأردن، وقد اجتبيتم خراجـها إلا أن تدفعوا عـنهم ؟ أما والله لئن خرجـتم منها ثم أردتم دخولها بعد الخروج منها لَتُكابِدنّ من ذلك مشقة .

فقـال أبو عبيـدة : صدق وبرَّ ، ما ينبـغي لنا أن نترك قومـا قد اجتبيناهم خراجهم، وعـقدنا لهم العهد حتى نعذر إلى الله في الدفع عنهم ، فإن شـئتم نزلنا الجابيـة ، وبعثنا إلى عمرو بن العـاص يقدم علينا، ثم أقمنا للقوم حتى نلقاهم بها.

فقال له خالد بن الوليد : كـأنك إذ كنت بالجابية كنت على أكثر مما أنت عليه مكانك هذا الذي أنت به .

كتاب من عمرو بن العاص :

قال : فإنهم لكذلك يجيلون الرأي إذ قدم على أبي عبيدة عبدالله ابن عمرو بن العاص بكتاب من أبيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن أهل إيليا، وكثيراً ممن كنا صالحناهم من أهل الأردن قد نقضوا العهـد فيما بيننا وبينهم، وذكروا أن الروم قد أقبلت إلى الشام بقضِّها وقضيضها[1] ، وأنكم قد خلّيتم لهم عن الأرض ، وخـرجتم منـها، وأقـبلتم منصـرفين عنها، وقـد جـرأهـم ذلك عليّ وعلى مـن قِـبَلي من المـسلمين، وقـد تراسلوا وتواثقوا، وتعاقدوا ليسـيرُنّ إليّ ، فاكتب إليّ برأيك، فإن كنت تريد

(١) أي جموعها .

القدوم عليّ أقمت لك حتى تقدم، وإن كنت تريد منزلا من الشام أو من غيرها وأن أقدم عليك فأعلمني برأيك أوافقَ فيه، فإني صائر إليك أينما كنت ، فابعث إليّ مدداً أقوى بهم على عدوّي وعلى ضبط ماقِبَلي، فإنهم قد أرجفوا بنا واغتمزوا فينا ، واستعدوا لنا، ولو يجدون فينا ضعفًا أو يرون فينا فرصة ماناظرونا، والسلام عليك[1] .

كتاب من أبي عبيدة إلى عمرو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فقد قدم عليّ عبد الله بن عمرو بكتابك تذكر فيه إرجاف المرجفين واستعدادهم لك، وجرأتهم عليك، للّذي بلغهم من انصرافنا عن الروم، وما خلَّينا لهم من الأرض، وإن ذلك والحمد لله لم يكن من المسلمين عن ضعف من بصائرهم ولا وهن من عدوِّهم ، ولكنه كان رأيا من جماعتهم كادوا به عدوهم من المشركين ، ليخرجوهم من مدائنهم وحصونهم وقلاعهم ، وليجتمع بعض من المسلمين إلى بعض، ويجتمعوا من أطرافهم ، وينضم إليهم من كان قربهم، وينتظرون قدوم أمدادهم عليهم، ثم يناهضونهم إن شاء الله .

وقد اجتمعت خيلهم ، وتتامّت فرسانهم ، ووثقنا بنصر الله أولياءَه، وإنجاز موعده ، وإعزاز دينه، وإذلال المشركين حتى لايمنع أحد أمّه ، ولاخليلته ولانفسه حتى يتوغلوا في رؤوس الجبال، ويعجزوا عن منع الحصون ويجنحوا للسلم، ويلتمسوا الصلح، وسنّةَ الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسُنة الله تبديلا .

(١) فتوح الشام / ١٦٠ - ١٦٢ .

ثم أعلم من قِبَلك من المسلمين أني قادم عليهم بجماعة أهل الإسلام، إن شاء الله، فليحسنوا بالله الظن، ولايجدَنّ أهل حربكم وعدوكم فيكم ضعفا ولاوهنا ولا فشلا، فيغتمزوا فيكم، ويتجرؤوا عليكم، أعزنا الله وإياكم بنصره، وألبسنا وإياكم عافيته وعفوه، والسلام عليك .

وقال أبو عبيدة لعبد الله بن عمرو : أقرئ أباك السلام، وأخبره أني في أثرك، وأعلم ذلك المسلمين، وكن ياعبد الله بن عمرو ممن يشدُد الله به ظهور المسلمين، ويحسن به ظنهم، ويستأنسون به، فإنك رجل من الصحابة ، وقد جعل الله للصحابة بصحبتهم رسول الله فضلا على غيرهم من المسلمين، ولاتتّكل في ذلك على أبيك، وكن أنت في جانب تحرّض الناس، وتعدهم بالنصر، وتأمرهم بالصبر، ويكون أبوك يفعل ذلك في جانب آخر .

فقال : إني أرجو أن يبلغك من ذلك إن شاء الله مايسرك .

قال: ففعل ذلك هو وأبوه ، فكان لهما أجرًا وغناء، ونكاية في المشركين وشدة وقوة على عدوّ المسلمين.

ثم خرج عبد الله بكتاب أبي عبيدة حتى قدم به على أبيه، فقرأه على الناس .

ثم قام عمرو بن العاص، وجمع إليه من كان قِبَله من المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ وكان مما قال: ألا ولايبقين رجل من أهل عهدنا إلاتهيأ واستعدّ حتى يسير معي إلى أهل

إيلياء فإني أريد المسير إليهم والنزول بساحتهم، ثم لا أزايلهم حتى أقتل مقاتلتهم، وأسبي ذراريهم أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

ثم نادى في المسلمين ، أن ارتحلوا إلى إيلياء، فسار نحواً من ميلين قِبَل أرض إيلياء ، ثم نزل وعسكر، ثم قال لأهل الأردن: أخرجوا إلينا الأسواق .

ونادى مناديه، ألا برئت الذمة من رجل من أهل الصلح لم يخرج بسلاحه حتى يحضر معنا عسكرنا ، وينظر مانأمره به .

ثم أمر فاجتمع إليه أهل الصلح كلهم ، فخرجوا بعُدَّتهم وسلاحهم، فوجههم مع ابنه عبد الله فقدَّمهم ، وأمرهم أن يعسكروا ونزل عبد الله معهم في خمسمائة رجل من المسلمين .

وإنما أراد بذلك أن يشغل أهل الأردن عن الإرجاف[1]، وأن يبلغ أهل إيلياء أنه يريد المسير إليهم والنزول عليهم، فيرعب قلوبهم، ويشغلهم في أنفسهم وحصونهم من الغارة عليهم، وأن يتعاطوا شيئًا مما في أيديهم .

فخرج التجار من أهل الأردن ومن كان فيها من أهل إيلياء عند حميم أو ذي قرابة، فلحقوا بإيلياء، وقالوا لهم : هذا عمرو بن العاص قد أقبل نحوكم وصار إليكم بالناس .

فاجتمعوا من كل مكان وتراسلوا، وجعل لا يأتيهم أحد من قِبَل الأردن إلا أخبرهم بمعسكره، فأيقنوا أنه يريدهم، وكانوا من ذلك في هول شديد، وزادهم خوفًا ووجلا [2] .

---

(١) يعني عن الخوض في أخبار الفتن .

(٢) فتوح الشام / ١٦٢ - ١٦٥ .

رسالة من عمرو بن العاص :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمرو بن العاص إلى بطارقة إيلياء ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله العظيم الذي لا إله إلا هو ، ومحمد ﷺ أما بعد ، فإنا نثني على ربنا خيراً، ونحمده حمداً كثيراً كما رحمنا بنبيه وشرفنا برسالته، وأكرمنا بدينه، وأعزّنا بطاعته ، وأكرمنا بتوحيده والإخلاص بمعرفته، فلسنا والحمد له نجعل له نداً ، ولانتخذ من دونه إلها، لقد قلنا إذن شططا، سبحانه وبحمده جل ثناؤه، والحمد لله الذي جعلكم شيعا وجعلكم في دينكم أحزابا بكفركم بربكم، فكل حزب بما لديهم فرحون، فمنكم من يزعم أن لله ولدا، ومنكم من يزعم أن الله ثاني اثنين، ومنكم من يزعم أن الله ثالث ثلاثة ، فبُعداً لمن أشرك بالله وسُحقا، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، والحمد لله الذي قتل بطارقتكم، وسلب عزّكم، وطرد من هذه البلاد ملوككم، وأورثنا أرضكم وديارکم وأموالكم، وأذلكم بكفركم بالله ، وتَرْككم مادعوناكم إليه من الإيمان بالله ورسوله، فأعقبكم الله الجوع والخوف والذل بما كنتم تصنعون، فإذا أتاكم كتابي هذا فاسلموا تسلموا، وإلا فأقبلوا إلينا حتى أكتب لكم كتابا أمانا على دمائكم وأموالكم، وأعقد لكم عقدا، تؤدون إليّ الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإلا فو الله الذي لا إله إلا هو لأرمينّكم بالخيل بعد الخيل ، وبالرجال بعد الرجال ، ثم لاأقلع عنكم حتى أقتل المقاتلة ، وأسبي الذرية ، وتكونون كأمّة كانت فأصبحت كأنها لم تكن (١) .

---

(١) فتوح الشام / ١٦٥ - ١٦٦ .

وهكذا خدع عمرو بن العاص أولئك الأعداء ومكر بهم، حيث أظهر لهم أنه قد جمع جيشه وأنصاره لقتالهم ، بينما هو فعل ذلك ليَبْقى بسلام إلى أن يصل جيش المسلمين، قبل أن ينتقض عليه أهل العهد فيكونوا مع أعدائه في بيت المقدس ثم يحصروه عن المسلمين، إذا شعروا بضعفه .

وهذا مثل من الأمثلة التي برز فيها دهاء عمرو وظهرت حكمته.

قال : وأرسل الكتاب إليهم مع رجل نصراني على دينهم وقال له: عَجِّل عليَّ فإني إنما انتظرك .

فلما قدم عليهم قالوا له : ويحك ماوراءك؟ قال: لا أدري إلا أن الرجل قد بعثني إليكم بهذا الكتاب، وقد وجَّه عسكره نحوكم، وقال: مايمنعني من المسير إليهم إلا انتظاري رجوعك .

قالوا له : أنظِرنا ساعة من النهار ، فإنا ننتظر عيونًا لنا تقدم علينا من قِبَل أمير العرب الذي بدمشق، ومن قبل جند الملك الذي قد أقبل إلينا، فننظر ما يأتينا به، فإن ظننّا أن لنا بالعرب قوة لم نصالحهم، وإن خشينا ألا نقوى عليهم صنعنا ماصنع أهل الأردن وغيرهم، فما نحن إلا كغيرنا من أهل الشام .

فأقام العلج حتى أمسى . ثم إن رسول أهل إيلياء الذي كان بعثوه عينا لهم أتاهم، فأخبرهم أن باهان قد أقبل من قِبَل ملك الروم في ثلاثة عساكر، في كل عسكر منها أكثر من مائة ألف مقاتل، وأن العرب لما بلغهم ماسار إليهم من تلك الجموع علموا أنه لاقِبَل لهم بماجاءهم ، فانصرفوا راجعين، وقد كان أوائل العرب دخلوا أرض

قنسرين فأخرجوهم منها، ثـم أتوا أرض حمص فأخرجوهم منها، ثم أتوا أرض دمشق فأخرجوهم منها، ثم أقبلت العرب نحو الأردن نحو صاحبهم هذا الذي كتب إليكم ، والـروم في آثارهم يسوقونهم سوقا عنيفا سريعا إلى ما قِبَلكم من البلاد .

فتبـاشروا بذلك ، وسرّوا به، ودعوا العلج الذي بـعث به عمرو ابن العاص فقالوا له : اذهب بكتابنا إلى صاحبك، وكتبوا معه :

أما بعد ، فإنك كتبت إلينا كتابا تزكى فيه نفسك، وتعيب مانحن عليه، والقول بالبـاطل لاينفع به أحد نفسه، ولايضـر به عدوه، وقد فهـمنا مادعـوتنا إليه، وهؤلاء ملوكنـا وأهل ديننا قد جـاؤوكم، فإن أظهـرهم الله عـليكم فـذلك بلاؤه عندنا فـي القـديم ، وإن ابتـلانا بظهـوركم علينا، فلعمـري لَنُقِـرُّ لكم بالصغـار ، ومانحن إلا كـمن ظهرتم عليهم من إخواننا، ثم دانوا لكم فأعطوكم ماسألتم .

وقدم الرسول بهذا الكتاب إلى عمرو، فقال له عمرو: ماحبسك؟ فأخـبره الرسول بالخـبر . إلى أن قال: فلم يكن إلا يومـه ذلك حتى قدم خالد بن الوليد في مـقدِّمة أبي عبيدة، وكان أبو عبـيدة قد خرج من أرض دمـشق بالمسلمين إلى بلاد الأردن، وأمر عـبد الرحـمن بن حنبل فنادى الناس أن يسيروا إلى بلاد الأردن، وأمر خالد بن الوليد، فتقدَّم في مقدمته حتى نزل اليرموك ، وأقبل عمرو حتى نزل معه(١).

مثل من فساد قادة الروم :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي، وحدثني أبو الجهم

---

(١) فتوح الشام / ١٦٦ - ١٦٨ .

الأزدي عن رجل من تنُوخ كـان مع باهان يُكنّى أبا بشيـر قال، كنت نصرانيا ، فنصرت النصرانيـة على العرب، وأقبلتُ مع الروم، فجعلنا لانمرّ بأحد من أهل الـبلد إلا وجدناهم أحسن شيء ثنـاء على العرب في كل شيء من أمرهم وفي سيرتهم .

قـال : وأقبلت الروم فـجعلوا يفـسدون في الأرض، ويسـيئـون السـيرة، ويعـصون أمـيـرهم حتى ضجَّ مـنهم الناس، وشكاهم أهل القرى، وجعلوا لايفـيقون من شرب الخمور والزنا، ولاتزال جـماعة من أهل الذمّـة يجيـئون إلى ملـكهم ومعـهم الجارية قـد افتـضت ، وجماعـة يشكون أن أغنامهم قد ذبحت وجماعـة يشكون أنهم خُرِّبوا وسُلبوا .

فلما رأى باهان ذلك ومايصنعون قام فيهم خطيبا فقال:

يامعـشر أهل هذا الدين، إن حـجة الله علـيكم عظيمـة، إنه قد بعث إليكم رسـولا ،وأنزل عليكـم كتـابا ، وكـان رسـولكم لايريد الدنيا، وزهّدكم فيهـا، وأمركم ألا ترغبوا فيهـا ولاتظلموا أحدا، فإن الله لايحب الظالمين ، وأنتم الآن تظلمـون، فماعـذركم غدا عند الله وقـد تركتم أمـره وأمر نبـيكم ومـا أتاكم به من كتـاب ربكم ؟ وهذا عدوكـم قد نزل بكم ، يقـتلون مقـاتلتكم ويسبـون ذراريكم ، وأنتم تعملون بالمعـاصي ، فلا تنزعـون منها خشـية العقـاب، فإن نزع الله سلطانكم من أيديكـم وأظهر عليكم عـدوكم فـمن الظالم إلا أنتم ؟ فاتقوا الله وانزعوا عن ظلم الناس .

فقام إليـه رجل من أهل البلد ، فشكا إليه مظلمـة، قال: فتكلم

بلسانهم وأنا أفقه كلامهم ، فقال : أيها الملك ، عشتَ الدهر ، ووقيناك بأنفسنا مكروه الأحداث، إني امرؤ من أهل البلد، من أهل الذمة ، وكانت لي غنم ، أظنها مائة شاة أو تنقص قليلا، وكان فيها ابن لي يرعاها ، فمرّ بها عظيم من عظماء أصحابك، فضرب خباءه إلى جنبها ، ثم أخذ حاجته منها، ثم أنهب بقيتها أصحابه، فجاءته امرأتي ، وابنتي ، فشكت إليه انتهاب أصحابه غنمي، وقالت: أما ما أخذت لنفسك فهو لك ، وأما ما أخذ أصحابك فابعث إليهم فليردّوا علينا غنمنا .

فلما رآها أمر بها ، فأدخلت بناءه ، فطال مكثها عنده، فلما رأى ذلك ابنها دنا من باب البناء ، فطالع ، فإذا هو بصاحبه ينكح أمه أو أخته، وهي تبكي ، فصاح الغلام ، فأمر به فقتل ،فأخبروني ذلك فأقبلت إلى ابني ، فأمر بعض أصحابه فشدوا عليّ بالسيف ليضربوني، فاتقيتهم بيدي فقطعوها .

فقال له باهان : أفتعرفه ؟ قال : نعم . قال : وأين هو ؟ قال: هو هذا العظيم من عظمائكم .

قال: فغضب ذلك العظيم الذي فعل بالرجل مافعل، وغضب له ناس من أصحابه، وكان فيهم ذا شأن وشرف، فأقبل ناس من أصحابه أكثر من مائتي رجل فشدوا على المستعدى، فضربوه بأسيافهم حتى مات، ثم رجعوا وباهان ينظر ما صنعوا .

فقال بلسانه : العجب كل العجب ، كيف لاتُهَدُّ الجبال وتتفجر البحار، وتزول الأرض، وترعد السماء لهذه الخطيئة التي عملتموها،

وأنا أنظر لأعمالكم العظام التي تعملونها ، وأنا أرى وأسمع، إن كنتم تؤمنون بأن لهؤلاء المستضعفين المظلومين إلها ينتصر لهم وينصف المظلوم من الظالم فأيقنوا بالقصاص، ومن الآن يعجِّل لكم بالهلاك، وإن كنتم لاتؤمنون بذلك فأنتم والله عندي شر من الكلاب وشر من الحمير ، ولعمري إنكم لتعملون أعمال قوم لايؤمنون، ولقد سخط الله أعمالكم ، وليكلنَّكم إلى أنفسكم، وأما أنا فإني أشهد أني بريء من أعمالكم، وسوف ترون عاقبة الظلم، وإلى أي مصير تصيرون، ثم نزل (١) .

فهذه القصة تبين ماكان يزاوله طغاة الروم من الظلم الشنيع، فهذا الأمير الرومي قد سحق أسرة من أسر أهل الشام، وارتكب معها ثلاث جرائم : نهب المال، والزنى ، والقتل ،حيث كان هو وأمثاله يعتبرون المستضعفين غنيمة لمن وجدهم لأنهم لاناصر لهم من قُوَى البشر، أما رب البشر فإنهم لايؤمنون به إيمانا يحرك مشاعرهم ويحكم تصرفاتهم . . إنهم يؤمنون بوجوده ولكن لاوجود له في قاموس حياتهم، وبالتالي فإنهم يفقدون الوازع الديني الذي يترتب على الإيمان الحي بالله تعالى واطلاعه على خلقه وهيمنته عليهم ومحاسبته إياهم ثم جزائه إياهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولذلك فإن هؤلاء الذين فقدوا العقول السليمة يتصرفون تصرف البهائم التي لايردعها رادع عن شهوة ولاتتخاطب إلا بقرونها ومخالبها وقواطع أسنانها ، فلذلك يأكل القوي الضعيف في تلك المجتمعات كما هو الحال في حظائر الحيوانات والغابات .

(١) فتوح الشام / ١٧٥ - ١٧٧ .

ولقد كـان باهان واسع العقل عظيم الإدراك حينما أدرك الـعلاقة المباشرة بين الأخلاق وتقرير مصـير الدول والجيوش، فأبان أن مرتكبي الظلم ليسوا جديرين بالنصر على الأعداء .

ولقـد كان هذا الفـساد الذي سـاد مـعسكره الكبـير من أقـوى ماواجهـه من التحطيم المعنوي والفزع الشديـد من الانهزام والاندحار على يد أمة الأخلاق والعدل .

وسـيـأتي مـزيد بيـان لهـذا الأمـر عند عـرض كـلام باهان في الاستشهـاد بهذه القصة وماكـان يعانيه من التشاؤم القاتل بسـبب فُشُوِّ الظلم في جيشه .

رسالتان بين أبي عبيدة وعمر :

أخرج أبو إسماعيل محمـد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله بن قرط : أن معاذ بن جبل ورجالا معه من المسلمين قالوا لأبي عبيدة ابن الجراح حين أقـبل من دمشق إلى معسكره باليـرموك : ألا تكتب إلى أميـر المؤمنين تُعْلمه علم هذه الجـيوش التي قد جـاءتنا ، وتسأله المدد؟ قال : بلى ، وكتب إليه .

أما بعد ، أُخْبر أمـير المؤمنين - أكرمه الله - أن الروم نفرت إلى المسلمين براً وبحراً، ولم يخلفوا وراءهـم رجلا يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا، وخرجوا معهم بالقـسيسين والأساقفة، ونزلَتْ إليهم الرهبـان من الصوامع، واسـتـجاشـوا بأهل أرمـينية وأهل الجـزيرة، وجاؤونا وهم نحـو من أربعمـائة ألف رجل، وأنه لما بلغني ذلك من أمرهم كرهت أن أغرَّ المسلمين من أنفسهم، أو أكتمهم مابلغني عنهم،

فكشفت لهم عن الخبر، وشرحت لهم من الأمر، وسألتهم عن الرأي، فرأى المسلمون أن يتنحوا إلى أرض من أرض الشام، ثم نضم إلينا أطرافنا وقواصينا، وتكون بذلك المكان جماعتنا، حتى يقدم علينا من قِبَل أمير المؤمنين المدد لنا، فالعجَلَ العجل ياأمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال ، وإلا فاحتسب أنفس المؤمنين إن هم أقاموا، ودينهم منهم إن هم تفرقوا ، فقد جاءهم مالا قِبَل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته ، أو يأتيهم بغياث من قِبَله ، والسلام عليك .

فلما أتاه الكتاب دعا عمر المهاجرين والأنصار، فقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة، فبكى المسلمون بكاء شديداً، ورفعوا أيديهم ورغبتهم إلى الله أن ينصرهم ويعافيهم ، وأن يدفع عنهم، واشتدت شفقتهم عليهم وقالوا: يا أمير المؤمنين ، ابعثنا إلى إخواننا، وأَقرَّ علينا أميراً ترضاه لنا، أو سِرْ بنا أنت، فو الله إن أُصيبوا فما في العيش خير بعدهم .

قال: عبد الله بن قرط فكل من قدمت عليه من المهاجرين والأنصار ظهر منهم الجزع والشفقة على المسلمين مخافة الهلاك عليهم، ولم أر أحداً كان أشد جزعًا ولا أظهر شفقة من عبد الرحمن ابن عوف ، ولاأكثر مقالة : سر بنا يا أمير المؤمنين ، فإنك لو قدمت الشام لقد شَدَّ الله قلوب المؤمنين وأرعب قلوب الكافرين .

قال : فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ على أن يقيم عمر، ويبعث المدد ، ويكون ردءاً للمسلمين .

فقال عمر لعبد الله بن قرط: كم بين المسلمين وبين الروم يوم خرجت إليّ؟ قال: قلت مابين أدناهم وبين المسلمين ثلاث أو أربع

ليال، وبين جماعتهم وجماعة المسلمين خمس ليال .

فقال : هيهات ، متى يأتي هؤلاء غياثنا .

قال : فكتب عمر إلى أبي عبيدة :

أما بعد ، فقد قدم عليَّ أخو ثمالة بكتابك تخبرني فيه بنفير الروم إلى المسلمين براً وبحراً ، وبما جاشوا عليكم من أساقفتهم وقسسهم ورهبانهم ، وإن ربنا المحمود عندنا والصانع لنا، والعظيم ذو المنّ والنعمة الدائمة علينا، قد رأى مكان هؤلاء الأساقفة والرهبان حيث بعث محمداً ﷺ بالحق وأعزه بالنصرة، ونصره بالرعب على عدوه، وقال: وهو لايخلف الميعاد ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (١) فلا تهولنّك كثرة ماجاءك منهم ، فإن الله منهم برئ، ومن برئ الله منه كان قَمنًا ألا تنفعه كثرة ، وأن يكله الله إلى نفسه ويخذله، ولاتوحشك قلة المسلمين، فإن الله معك وليس قليلا من كان الله معه، فأقم بمكانك الذي أنت به حتى تلقى عدوك وتناجزهم ، وتستظهر بالله عليهم، وكفى به ظهيراً ووليًا ونصيراً .

وقد فهمت مقالتك « احتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا ، ودينهم إن هم تفرقوا ، فقد جاءهم مالاقبَل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته، أو يأتيهم بغياث من قِبَله » وأيْم الله لولا استثناؤك بهذا لقد كنت أسأت ، ولعمري إن أقام لهم المسلمون وصبروا فأصيبوا لَما عند الله خير للأبرار ، ولقد قال الله عز وجل : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ

---

(١) سورة الصف / ٩ .

صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (١) فطوبى للشهداء، ولمن عقل عن الله ممن معك من المسلمين لأسوة بالمصرَّعين حول رسول الله ﷺ في مواطنه، فما عجز الذين قاتلوا في سبيل الله ، ولاهابوا الموت في جنب الله، ولا وهن الذين بقوا من بعده، ولااستكانوا لمصيبتهم، ولكنهم تأسَّوْا بهم وجاهدوا في الله من خالفهم منهم وفارق دينهم .

ولقد أثنى الله على قوم بصبرهم فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) ، فأما ثواب الدنيا فالغنيمة والفتح ، وأما ثواب الآخرة فالمغفرة والجنة .

واقرأ كتابي هذا على الناس ، ومرهم فليقاتلوا في سبيل الله، وليصبروا كيما يؤتيهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، فأما قولك إنه قد جاءهم ما لاقِبَل لهم به فإن لايكن لكم بهم قِبَل فإن لله بهم قبَلاً ، ولم يزل ربنا عليهم مقتدرا، ولو كنا والله إنما نقاتل الناس بحولنا وقوتنا وكثرتنا لهيهات ماقد أبادونا وأهلكونا، ولكن نتوكل على الله ربنا، ونبرأ إليه من الحول والقوة، ونسأله النصر والرحمة،

(١) سورة الأحزاب ، آية (٢٣) .

(٢) سورة آل عمران الآيات (١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨) .

وإنكم منصورون إن شاء الله على كل حال، فاخلصوا لله نياتكم، وارفعوا إليه رغبتكم، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

وإنا لنلحظ في كتاب عمر رضي الله عنه تركيزاً قويًا على توحيد الله تعالى بالتذكير بلزوم استصحاب التوكل عليه واستمداد النصر منه وشكره على نعمه ، والشعور القوي بأن العامل الأعلى في النصر هو استحضار المجاهدين معية الله تعالى بنصره وتأييده، وعدم النظر لكثرة الأعداء ، لأن الله تعالى قد تخلى عنهم، ومن تخلى الله عنه فلا قوة له وإن ملأالأرض عدداً وعتاداً .

قال عبد الله بن قرط : دفع إليّ عمر هذا الكتاب وأمرني أن أعجِّل المسير، وقال: إذا قدمت على المسلمين فسرْ في صفوفهم، وقفْ على أهل كل راية منهم ، وأخبرهم أنك رسولي إليهم، وقل لهم: عمر يقرئكم السلام، ويقول لكم : يا أهل الإسلام اصدقوا اللقاء ، وشدُّوا عليهم شدَّ الليوث، واضربوا هامتهم بالسيوف، وليكونوا أهون عليكم من الذَّر ، فإنا قد كنا علمنا أنكم عليهم منصورون ، فلا تُهوِّلنَّكم كثرة عدوكم، ولاتستوحشوا لمن لم يلحق بكم منكم .

قال: فركبت راحلتي ، وأقبلت مسرعا أتخوف أن لا أدرك الناس، وأن تفوتني الوقعة .

قال: فانتهيت إلى أبي عبيدة يوم دخل سعيد بن عامر بن حِذْيَم الجمحي في ألف رجل من المسلمين من قِبَل عمر على أبي عبيدة في عسكره .

قال: فشجع ذلك المسلمين ، وسرُّوا بمددهم، وقدمت بكتاب عمر رضي الله عنه على أبي عبيدة، فقرأه على الناس، فسرُّوا برأيه لهم، وبما أمرهم به من الصبر، وبما بشَّرهم به من الفتح، وبما رجا لهم في ذلك من الأجر (١) .

وهكذا رأينا كيف أن المسلمين تهيَّبوا من لقاء عدوهم مع أن عددهم يقارب الأربعين ألفا ، وكانت أكثر أصوات القادة تنادي بالرحيل عن الشام حتى يتقوى المسلمون ثم يعودون لمناجزة أعدائهم.

وإذا ماقارنا بين أحداث هذه المعركة الفاصلة بين المسلمين والروم بأحداث معركة القادسية الفاصلة بين المسلمين والفرس نجد أن المسلمين وعددهم ثلاثون ألفا . قابلوا الفرس وعددهم مائتا ألف، ولم يتهيبوا منهم . ولم يُلِحُّوا في طلب المدد، ولم يفكروا بالتحول من العراق حتى يكمل استعدادهم ، والمسلمون هم المسلمون في ذلك التاريخ سواء في الشام أو في العراق، بل إن كثيراً من أبطال العراق كانوا مع خالد بن الوليد في الشام وحضروا معركة اليرموك من أمثال القعقاع ابن عمرو ومذعور بن عدي، ثم انصرفوا بعد ذلك إلى العراق وحضروا آخر معركة القادسية .

وهذا دليل واضح على أن معركة اليرموك كانت أضخم بكثير من معركة القادسية .

والآن وبعد أن تبين لنا حجم هذه المعركة فماذا كان عدد جنود الروم؟

---

(١) فتوح الشام / ١٨٠ - ١٨٤ .

لقد تبين لنا من كتاب أبي عبيدة السابق إلى أمير المؤمنين أن عدد الروم كانو نحو أربعمائة ألف ، وقد جاء ذلك في رواية أخرجها الأزدي عن عبد الله بن قرط الثمالي وهو صحابي شهد المعركة .

ويؤيد ذلك ما أخرجه الأزدي أيضًا عن أبي جهضم الأزدي عن رجل من الروم أسلم وحسن إسلامه قال : كنت مع باهان - يعني قائد الروم - في عسكرهم ذلك . . إلى أن قال : قال باهان : فكيف ترون بقتالهم فإنا أكثر من عشرة أضعافهم ، نحن نحو من أربعمائة ألف، وهم نحو من ثلاثين ألفًا أو أقل أو أكثر قليلا (١) .

فهذا دليل على أن جيش الروم يقارب أربعمائة ألف .

كما جاء في رواية ثالثة أخرجها الأزدي أيضًا عن أبي خداش عن سفيان بن سليم عن عبد الله بن قرط الثمالي : وفيها أن أهل إيلياء- القدس - أرسلوا رسولا ينظر لهم جيش الروم فأخبرهم أن باهان قد أقبل من عند هرقل في ثلاثة عساكر كل عسكر منها أكثر من مائة ألف مقاتل (٢) .

فهذا يدل على أن جيش الروم مابين ثلاثمائة وأربعمائة ألف .

أما الرواية التي تقول إن جيش الروم كان مائة ألف فهي مستبعدة لأن المسلمين قابلوا في أجنادين مائة ألف من الروم ولم يأبهوا بهم مع أن هذه المعركة كانت هي الأولى من المعارك الكبيرة .

---

(١) فتوح الشام /٢٠٨ ، وقد جاء في روايتين للطبري أن عدد المسلمين ستة وثلاثون ألفا - تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٢ - ٣٩٤ - .

(٢) فتوح الشام / ١٦٧ .

وأما القول بأنهم كانوا مائتي ألف أو مائتين وأربعين ألفا فهما محتملان لكن القول الأول قد روي من طرق متعددة ، كما أن الصفات التي أطلقت على جيش الروم تدل على أنهم كانوا أكثر من هذا العدد، حيث جاء في كتاب أبي عبيدة « وجمعوا لنا من الجموع مالم يجمعوه لأمة قط كانت قبلنا » و « أن الروم نفرت إلى المسلمين براً وبحراً ، ولم يخلفوا وراءهم رجلا يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا » .

ومن المستبعد أن أمة عظيمة كالروم تكون طاقتها الكاملة من الرجال في حدود هذا العدد، فتبين أن القول الراجح أنهم كانوا نحواً من أربعمائة ألف كما ذكر أبو عبيدة رضي الله عنه .

ومما يدل على كثافة جيش الروم إلى حد غير معتاد ماذكره الأزدي في رواية له عن قسامة بن زهير عن رجل من الروم كان يُدْعَى «جرجه» - وقد أسلم وحسن إسلامه - قال: كنت في ذلك الجيش الذي بعثَنا ملك الروم من أنطاكية مع باهان، فأقبلنا ونحن لايحصي عددنا إلا الله، ولانرى أن لنا غالبا من الناس .

قال: ولحق بنا كل من كان على ديننا من النصارى ، حتى إنْ كان الراهب لينزل من صومعته، وقد كان فيها دهراً طويلاً من دهره، فيتركها وينزل إلينا فيقاتل معنا غضبًا لدينه ومحاماةً عليه (١) .

مكان المعركة والتقاء الجيشين :

ذكر الإمام ابن جرير الطبري من رواية سيف بن عمر عن عدد

---

(١) فتوح الشام / ١٦٨ - ١٦٩ .

من الشيوخ أن هرقل كتب إلى قادة جيشه يقول لهم : انزلوا بالروم منزلاً واسع العطن، واسع المطرد، ضيق المهرب .

قالوا : فـفعلوا فنزلوا الواقوصة ، وهي على ضفة اليرموك، وصار الوادي خندقًا لهم .

وانتقل المسلمون عن معسكرهم الذي اجتمعوا به، فنزلوا بحذائهم، على طريقهم ، وليس للروم طريق إلا عليهم، فقال عمرو ابن العاص : أيها الناس أبشروا ، حُصِرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير (١) .

وهذا يدل على خبرته وبصره بأمور الحرب .

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله ابن قرط قال: لما نزلت الروم منزلهم الذي نزلوا به دسسنا إليهم رجالا من أهل البلد، كانوا نصارى فأسلموا وحسن إسلامهم، وأمرناهم أن يدخلوا عسكرهم، ويكتموا إسلامهم، ويأتوا بأخبارهم، فكانوا يعملون ذلك .

قال: فمكثوا أيامًا مقابلنا ، ثلاثة أو أربعة ، لايسألوننا عن شيء ولانسألهم عن شيء ، ولايتعرضون لنا ، ولانتعرض لهم ، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتًا عاليًا وجلبة شديدة وأصواتًا رفيعة، فظننا أن القوم يريدون النهوض إلينا، فتهيأنا وتيسرنا ، ثم إنا دسسنا عيونًا لنا إليهم ليأتونا بالخبر .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٣ .

قال : فما لبثنا إلا قليلا حتى رجعوا إلينا فأخبرونا أن بريداً جاءهم من قبل ملك الروم، فبشرهم بمال يقسم بينهم، وبمدد يأتيهم، ففرحوا بذلك ، ورفعوا له أصواتهم .

فقام فيهم ملكهم باهان ، واجتمعوا إليه، فقال لهم : إن الله لم يزل لدينكم ناصرا ومعزا ومظهرا على كل من ناوأكم، وقد جاءكم قوم يريدون أن يفسدوا عليكم دينكم ويغلبوا على بلادكم ودياركم وأموالكم ، وأنتم عدد الحصا والثرى والذرّ ، والله إن في هذا الوادي منكم لنحواً من أربعمائة ألف مقاتل مع أتباعكم وأعوانكم، ومن اجتمع إليكم من سكان بلادكم ، وممن هو معكم على دينكم، فلا يهُولنَّكم أمرها ، ولا القوم فإن عددهم قليل، وهم أهل الشقاء والبؤس ، وجُلُّهم حاسر جائع ، وأنتم من الملوك وأبناء الملوك وأهل الحصون والقلاع ، والعدة والقوة ، والسلاح والكراع ، فلا تبرحوا العرصة وفيهم عين تَطْرِف حتى تهلكوهم أو تهلكوا أنتم .

فقام إليه بطارقتهم ، فقالوا : مُرْنا بأمرك، ثم انظر مانصنع .

قال: تيسروا حتى آمركم (١) .

مناوشة بين بعض الجيشين :

قال أبو بشير التنوخي في سياق خبره السابق (٢): وقد نزلنا بالمسلمين ونحن لهم هائبون ، وقد كان بلغنا ، أن نبيّهم ﷺ قال

---

(١) فتوح الشام / ١٧٤ .

(٢) أبو بشير التنوخي كان نصرانيًا وجاء مع الروم ثم أسلم كما سبق في أول خبره الذي تقدم في ص ٢٢ .

لهم: إنكم ستظهرون على الروم، وقد كانوا واقعونا غير مرة، كل ذلك يكون لهم الظفر علينا إلا أنا إذا نظرنا إلى عددنا وجموعنا طابت أنفسنا أنَّ مثل جمعنا ذلك لايُفلّ .

قال: فأقام باهان أيامًا يراسل من حوله من الروم، ويأمرهم أن يحملوا إلى أصحابه الأسواق، وكانوا يفعلون، ولم يكن ذلك يضر المسلمين ، لأن الأردن في أيديهم، فهم مخصبون بخير .

فلما رأى باهان ، صاحب الروم ، أن ذلك لايضرهم ولاينقصهم، وأنهم يكتفون بالأردن بعث خيلا عظيمة ليأتيهم من ورائهم عليها بطريق عظيم من عظمائهم وبطارقتهم، وأراد أن يكفيهم بجنوده من كل جانب، وعلم المسلمون مايريدون .

فدعا أبو عبيدة خالد بن الوليد ، فبعثه في ألفي فارس، فخرج خالد حتى اعترض العلج، فلما استقبله نزل خالد في الرجّالة، وبعث قيس بن هبيرة في الخيل، فحمل عليهم قيس، فاقتتلوا قتالا شديداً، وحمل قيس في خيل المسلمين على خيلهم، فهزمها حتى اضطرها إلى الرجالة الذين مع خالد ، ومشى خالد في الرجالة حتى إذا دنا من البطريق شدّ عليه رايته ، وشد معه المسلمون ، فضربوهم بالسيوف حتى تبددوا وانهزموا ، وقُتل منهم مقتلة عظيمة .

وقال قيس لرجل من بني نمير مرَّ به البطريق يركض منهزمًا : ياأخا بني نمير ، لايفوتنَّك البطريق، فإني والله قد كددت فرسي على هذا العدو من هذا اليوم حتى ماعند فرسي من جري .

فحمل عليه النميري ، فركض في إثره ساعة ، ثم إنه أدركه،

فلما رأى البطريق أنه قد غشيه وأحرجه عطف عليه البطريق، فاضطربا بسيفيهما، فلم يصنع السيفان شيئًا، واعتنق كل واحد منهما صاحبه، ووقعا على الأرض، فاعتركا ساعة، ثم صرعه النميري، ووقع النميري على صدر البطريق، فضمّه البطريق إليه، وكان مثل الأسد، فجعل النميري لايستطيع أن يتحرك.

وبصر بهما قيس، فجاء حتى وقف عليهما فقال: ياأخا بني نمير، قتلتَ الرجل إن شاء الله ؟

قال: لا، والله ما استطيع أن أتحرك، ولا أضربه بشيء، ولقد ضمني بفخذه وأمسك يدي بيديه.

فنزل إليه قيس فضربه فقطع إحدى يديه، ثم تركه وانطلق وقال للنميري: شأنك به، وقام النميري، فضربه بسيفه حتى قتله.

ومرّ به خالد بن الوليد، فقال له: ماهذا ياقيس، ومن قتله؟ فقال له قيس: قتله هذا النميري، ولم يخبره ماصنع هو به [1].

تنظيم جيش المسلمين:

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر الحارث ابن عبد الله الأزدي، ثم النمري.

قال: لما نزل أبو عبيدة بن الجراح اليرموك وضم إليه قواصيه، وجاءتنا جموع الروم وهم يجرون الشوك والشجر، ومعهم صُلُبُهم ومعهم القسيسون والرهبان والأساقفة والبطارقة، ورهبانهم يقصّون عليهم، وبطارقتهم يحرضونهم فجاءوا حتى نزلوا دير الجبل، فلما

(١) فتوح الشام / ١٧٨ - ١٧٩.

أقبلوا إلى المسلمين بتلك الجموع خافهم المسلمون فما كان شيء أحب إليهم من أن يخرجوا لهم ، ويتنحوا عن بلادهم حتى يأتيهم مدد يرون أنهم يقوون به على من جاءهم من الروم .

قال: فدعا أبو عبيدة الناس، فاستشارهم ، فكل من استشار من الناس أشار عليه بالخروج من الشام إلا خالد بن الوليد، فإنه أشار عليه بالمقام، وقال لأبي عبيدة : خلّني والناس ودعني والأمر، وولني ماوراء بابك فأنا أكفك بإذن الله أمر هذا العدو .

فقال له أبو عبيدة : شأنك بالناس، فخلاه وإياهم .

قال: وكان قيس بن هبيرة المرادي على مثل رأي خالد بن الوليد في المقام بأرض الشام ، ولم يكن في المسلمين أحد يعدلهما في الحرب وشدة البأس .

قال : فخرج خالد بالناس وهم بأحسن شيء رِعَةً ، ودَعَةً وهيئة، وأشدهم في لقاء عدوهم بصيرة ، وأطيبهم أنفسا بقتالهم .

قال: فصفهم خالد ثلاثة صفوف، وجعل ميمنة وميسرة، ثم إن خالدًا أتى أبا عبيدة فقال: من كنت تجعل على ميمنتك؟ قال: معاذ ابن جبل .

قال: أهلُ ذلك هو الرضا والثقة . فولّها إياه، فأمر أبو عبيدة معاذًا ، فوقف في الميمنة .

ثم قال خالد : من كنت تولّي الميسرة ؟ قال: غير واحد .

قال : فولّها قباث بن أشيم إن رأيت، فأمره أبو عبيدة ، فوقف

في الميسرة ، وكان فيها كنانة وقيس ، وكان قباث كنانيا، وكان شجاعًا بئيسا (١) .

وقال خالد : وأنا على الخيل، وولِّ على الرجَّالة من شئت .

قال: أوليها إن شاء الله من لايُخاف نكوله ولاصدوره عند البأس، أوليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، قال: وُفِّقت ورشدت.

قال أبو عبيدة : إنزل ياهاشم فأنت على الرجالة وأنا معك .

وقال خالد لأبي عبيدة : ابعث إلى أهل كل راية فمرهم أن يطيعوني .

فدعا أبو عبيدة الضحاك بن قيس فأمره بذلك، فخرج الضحاك يسير في الناس ، ويقول لهم : إن أميركم أبا عبيدة يأمركم بطاعة خالد بن الوليد فيما أمركم به .

فقال الناس : سمعنا وأطعنا ، ومر الضحاك بمعاذ بن جبل، فأمره بطاعة خالد بن الوليد ، فقال معاذ: سمعنا وأطعنا، ثم نظر إلى الناس فقال: أما والله إن أطعتموه لتطيعنّ مبارك الأمر ، ميمون النقيبة، عظيم الغناء ، حسن الحسبة والنية .

قال الضحاك : فحدثت خالدا بمقالة معاذ بن جبل ، وقلت له: لقد سمعت معاذاً يحسن عليك الثناء، وقال فيك كيت وكيت .

فقال لي : رحم الله أخي معاذاً ، أما والله إن أحبني إني لأحبه في الله ، لقد سبقَتْ له ولأصحابه سوابق لاندركها ولانبلغها

---

(١) يعني أنه شديد البأس .

ولاننالها ، فهنيئًا لهم بما خصهم الله به من ذلك .

قال الضحاك : فلقيت معــاذًا فأخبرته بماقلت لخالد ومارَدّ به عليّ خالد .

فقــال معاذ : أمــا إني لأرجو أن يكون الله قد أعطاه على جـهاد المشركين ، وشــدته عليهم، وجهاده إيــاهم مع بصيرته وحسن نيتــه، وإعزاز دينه أحسن الثواب ، وأن يكون من أفضلنا بذلك عملا .

فلقيت خالدًا بذلك ، فقال : ماشيء على الله بعزيز .

قــال: ثم إن خالدًا ســار في الصـفـوف يقف على أهل كل راية ويقول : ياأهل الإســلام ، إن الصبر عز وإن الفشـل عجز ، وإن مع الصبر تنصرون فإن الصــابرين هم الأعلون ، وإنه إلى الفشل مايحور المبطل الضـعيف ، وأن المُحقّ لايفـشل، يعلم أن الله معــه، وأنه عن حُرَم الله يَذُبّ وعنه يقاتل، وأنه إنْ قــدم على الله أكرم منزلته وشكر سعيه ، إنه شاكر يحب الشاكرين .

قال: فما زال يقف على كل راية يعظهم ويحضهم ويرغّبهم حتى مر بجماعة الناس،ثم إنه جمع إليه خيل المسلمين،ودعا قيس بن هبيرة بن مكشوح المراديّ وكان يساعده ويوافـقه ويشبهه في جلده وشدته ، وشجاعته وإقدامه على المشـركين، فقال له خالد: أنت فارس العرب، وقلّ من حضرها اليوم يَعْدِلك عندي، فاخرج معي في هذه الخيل .

ويبعث إلى ميســرة بن مسروق العبسي، وكــان من أشراف العرب وفــرسانهم ودعــا عمــرو بن الطفـيل بن عمــرو ذي النور الأزدي ثم الدَّوْسي فخرج معه .

ثم قسموا الخيل أرباعًا ، فبعث كل رجل منهم على ربع، وخرج خالد في ربع منها في خيل المسلمين حتى دنا من عسكر الروم الأعظم الذي فيه باهان .

فلما رأتهم الروم فزعوا لمجيئهم إليهم ، وقد كانوا أُتُوا ، فأُخبروا أن العرب يريدون الانصراف عن أرض الشام، وأن يخلوكم وإياها، فكان ذلك قد وقع على أنفسهم ، وطمعوا به ، ورجوا ألا يكون بينهم قتال، وصدّق ذلك عندهم خروجهم من بين أيديهم يسوقونهم وهم يدَعون لهم الأرض والمدائن التي كانوا قد غلبوا عليها فيما بينهم وبين اليرموك ودمشق وحمص وماحولها .

فلما رأوا خالدا قد أقبل عليهم في الخيل أفزعهم ذلك، وخرجوا على راياتهم ، وخرجوا بصلُبهم والقسيسين والرهبان والبطارقة، فصفوا عشرين صفًا ، لايُرى طرفاها (١) .

هذا وقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري فيما يرويه عن سيف بن عمر عن شيوخه أن الروم خرجوا في تعبية لم ير الراؤون مثلها قط، وخرج خالد في تعبية لم تُعَبِّها العرب قبل ذلك ، فخرج في ستة وثلاثين كردوسا إلى الأربعين .

وجاء في هذه الرواية أن خالدًا قال: إن عدوكم قد كثر وطغى، وليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس (٢) .

وهكذا حاول خالد أن يخفف من الفرق الهائل بين الجيشين في

---

(١) فتوح الشام / ١٨٧ - ١٩١ .

(٢) الكردوس الكتيبة وهي جزء من الجيش .

نظر العين، ويُعتبر هذا التنظيم من عبقرياته في التخطيط الحربي .

مبارزة ومناوشات :

ثم أخرجوا إلى المسلمين خيلا عظيمة أضعاف خيل المسلمين ، فلما دنت من خيل المسلمين خرج بطريق من بطارقتهم وشجعانهم يسأل المبارزة ويتعرض لخيل المسلمين .

فقال خالد : أما لهذا رجل يخرج إليه ؟ ليخرجن إليه بعضكم أو لأخرجن إليه، فتفلّت إليه عدة من المسلمين ليخرجوا إليه، فأراد ميسرة بن مسروق أن يخرج إليه فقال له خالد : أنت شيخ كبير، وهذا الرومي شاب، ولا أحب أن تخرج إليه، فإنه لايكاد الشيخ الكبير يقوى على الشاب الحديث السنّ، فقف لنا رحمك الله، في كتيبتك ، فإنك ماعلمت حسن البلاء عظيم الغناء .

وأراد عمرو بن الطفيل أن يخرج إليه، فقال له خالد: ياابن أخي، أنت غلام حديث السن، وأخاف ألا تقوى عليه .

قال الحارث بن عبد الله الأزدي : وكنت في خيل خالد التي خرجت معه، فقلت ، فأنا أخرج إليه، فقال :ماشئت، فلما ذهبت لأخرج إليه قال لي خالد : هل بارزت رجلا قط قبله؟ قلت : لا ، قال: فلا تخرج إليه .

قال قيس بن هبيرة . ياخالد ، كأنك عليَّ تُحوِّط ؟

قال له : أجل، فإني أرجو إن خرجت إليه أن تقتله، فإن أنت لم تخرج إليه لأخرجن إليه أنا .

فقال قيس : بل أنا أخرج إليه، فخرج إليه قيس وهو يقول :

سَائلْ نسَاء الحَيِّ في حِجَالِها[1] أَلَسْتُ يَوْمَ الْحرْب مِنْ أبْطَالِها

مُقَعِّص الأقْرَانِ مِنْ رِجَالِهاَ

فخرج إليه ، فلما دنا منه ضرب فرسه، ثم حمل عليه قيس، فما هلهل[2] أن ضربه بالسيف على هامته، فقطع ماعليه من السلاح، وفلق هامته فإذا الرومي بين يدي فرسه قتيلا ، وكبّر المسلمون .

فقال خالد : مابعد ماترون إلا الفتح ، احمل عليهم ياقيس .

ثم أقبل خالد على أصحابه، فقال: احملوا عليهم، فو الله لا يفلحون، وأولهم فارس متعفر في التراب .

قال: فحملنا عليهم وعلى من يلينا منهم، ومن خيلهم وهي مستقدمة أمام صفوفهم كأنها أعراض الجبال .

قال قيس : فحملنا عليهم ، فكشفنا خيلهم حتى لحقت بالصفوف، وحمل عليهم خالد وأصحابه على من يليهم ، فكشفوهم حتى ألحقوهم بالصفوف .

وحمل عمرو بن الطفيل الأزدي وميسرة بن مسروق العبسي في أصحابهما حتى ألحقوهم بالصفوف، صفوف المشركين .

ثم إن خالدًا أمر خيله، فانصرفت عنهم، ثم أقبل بها حتى لحق بجماعة المسلمين ، وقد أراهم الله السرور في المشركين، وتلاومت

---

(١) الحجال القباب والستور .

(٢) أي انتظر .

بطارقة الروم ، وقال بعضهم لبعض : جاءتكم خيل لعدوّكم ليست بالكثيرة ، فكشفت خيولكم من كل جانب .

فأقبلت منهم كتائب في إثر كتائب ، فطبقوا الأرض مثل الليل والسيل، كأنها الجراد السود، وظن المسلمون أنهم سيخالطونهم، والمسلمون جُرَءاءُ عليهم، سراع إليهم، فأقبلوا حتى إذا دنوا من جماعة المسلمين واقتربوا منهم ومن خيلهم وقفوا ساعة وقد هابوهم ، وامتلأت صدورهم من المسلمين خوفًا .

فقال خالد للمسلمين : قد رجعنا عنهم، ولنا الظفر عليهم وعليهم الدّبرة، فاثبتوا لهم ساعة ، فإن أقدموا علينا قاتلناهم، وإن رجعوا عنا كان لنا الظفر والفضل عليهم .

فأخذوا يقربون من المسلمين ثم يرجعون، والمسلمون في مصافِّهم وتحت راياتهم سكوت، لايتكلم رجل منهم كلمة إلا أن يدعو الله في نفسه، ويستنصره على عدوه (١) .

عدول الروم إلى المفاوضات :

فلما نظرت الروم إلى حالهم تلك ، وإلى خيل المسلمين ورجّالتهم ومصافّهم، وَحدِّهم وجدِّهم ، وصبرهم وسكوتهم ألقى الله الرعب في قلوبهم، فواقفوهم ساعة، ثم انصرفوا راجعين عنهم إلى عسكرهم .

قال: فاجتمعت بطارقتهم وأمراؤهم وعظماؤهم وفرسانهم إلى باهان ، وهو أمير جماعتهم ، فقال لهم باهان :

(١) فتوح الشام / ١٩١ - ١٩٤ .

إني قد رأيت رأيًا، وأنا ذاكره لكم ، إن هؤلاء القوم قد نزلوا بلادكم ، وركبوا مراكبكم، وطعموا من طعامكم ولبسوا من لباسكم، فعَدْل الموت عندهم أن يفارقوا ماقد تطعموه من عيشكم الرفيع ، ودنياكم التي لم يروا مثلها قط، وقد رأيت إن رأيتم ذلك أن أسألهم أن يبعثوا إلينا رجلا منهم له عقل، فنناطقه ونشافهه، ونطمعهم في شيء يرجعون به إلى أهليهم، لعل ذلك يُسخي بأنفسهم عن بلادنا ، فإن هم فعلوا ذلك كان الذي يريدون منا قليلا فيما نخاف، وندفع به خطر الوقعة التي لاتدرون تكون علينا أم لنا .

فقالوا له : قد أصبت ، وأحسنت النظر لجماعتنا ، فاعمل برأيك.

وإن في هذا الكلام الذي صدر من أكبر وأعقل قوادهم لدليلا على أنهم لم يفهموا هدف المسلمين الأسمى من غزو بلادهم، فهم ينسبون ذلك إلى طمع المسلمين فيما في بلادهم من الخيرات ومايعيش به المسلمون في بلادهم من شظف العيش وقلة الموارد، ولذلك فإنهم لايزالوان يطمعون في قبول المسلمين لما يعرضونه عليهم من الصلح على أموال يدفعونها لهم .

وقد سبق أن عرضوا ذلك على المسلمين بإلحاح في معركة فحل وكان السفير إليهم معاذ بن جبل ورد عليهم بكلام لامحيد عنه، ثم أجابهم أبوعبيدة بجواب معاذ نفسه ، ولكنهم في هذه المرة قد اغتروا بجموعهم العظيمة ، وبكون المسلمين تراجعوا إلى جنوب الشام، فحاولوا إعادة عروضهم السابقة .

وهكذا نجد الكفار في كل زمن لايفقه كثير منهم هدف المسلمين الواحد الذي لايتغير منذ بعث الله تعالى نبيه ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولذلك نجدهم يتورطون كثيراً في حروبهم مع المسلمين الصادقين ولكنهم ينسون هذا الهدف السامي أحيانًا لكثرة من يواجهون من المسلمين غير الصادقين على مدار التاريخ الذين يقعون فريسة لفتنة الترغيب أو الترهيب من قِبَل الأعداء .

ولقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع الأمثال في صلابة الموقف أمام جميع الأعداء ، والامتناع التام من الخضوع لمطالبهم والاستجابة لتهديدهم أو إغرائهم، وكان جوابهم في كل موقف تعرضوا له جوابًا واحداً لايتغير ، مما يدل على عمق التربية الدينية التي رباهم عليها الرسول ﷺ .

هذا ولما عرض باهان على قادة جيشه هذا الرأي « قالوا: قد أصبت وأحسنت النظر لجماعتنا فاعمل برأيك، فبعث رجلا من خيارهم وعظمائهم اسمه « جرجه » حتى أتى أبا عبيدة فقال له : إني رسول "باهان" عامل ملك الروم على الشام وعلى هذه الجنود وهو يقول لك : أرسل إليَّ الرجل منكم الذي كان قبلك أميراً فإنه قد ذُكر لي أن ذلك الرجل له عقل وله فيكم حسب ، وقد سمعنا أن عقول ذوي الأحساب أفضل من عقول غيرهم، فنخبره بما نريد، ونسأله عما تريدون ، فإن وقع فيما بيننا وبينكم أمر لنا ولكم فيه صلاح أو رضًى أخذنا به وحمدنا الله عليه، وإن لم يتفق ذلك فيما بيننا وبينكم كان القتال من وراء ماهناك » .

وهكذا نص قائدهم على أمير المسلمين السابق خالد بن الوليد، ولعله نص عليه لكونه أصلب المسلمين موقفًا في قتال الروم ، فلو استطاع إقناعه بالصلح والانسحاب لرجا بذلك أن يحوز على قناعة المسلمين، وهو ينطلق في ذلك أيضًا من المفاهيم البشرية التي تسود عموم البشر في كل الأزمان إذا تخلَّوا عن شريعة الله، من أن الرجل القوي القيادي في الجيش يغيِّر من آراء أفراد الجيش غالبًا، ولا يعلم هؤلاء أنه مهما بلغ القائد عند المسلمين من القوة ونباهة الذكر فإن تأثيره على الجيش لايعدو الأمور الاجتهادية التي ليس فيها نص ملزم من شريعة الإسلام .

وهكذا فكر باهان في عرض الصلح على المسلمين مع أن معه جيشًا يبلغ عشرة أضعافهم ، وهذا دليل واضح على أن الروم قد أصيبوا بالرعب من المسلمين بالرغم من تفوقهم الكبير في الجيش والإعداد العسكري .

إن المنتظر في مثل هذه الحال أن يكون لدى الروم إقدام شديد وحماس قوي نحو الحرب حتى يقضوا على عدوهم الذي أرعبهم وأزال دولتهم من الشام ، مادامت الفرصة قد واتتهم وجمعوا ذلك الجمع الكبير الذي يصعب جمعه مرة أخرى .

ومن المنتظر عادة أن الذي يطلب الصلح هو الضعيف القليل العدد الذي يخشى على نفسه من الإبادة وسط جيش عظيم .

ولكن الذي حدث خلاف ذلك تمامًا، لقد كان المسلمون في منتهى الإقدام والحماس، وكان الروم في منتهى الرعب والخوف،

ومـاذاك إلا من أثر سلاح الرعـب الذي ينصر الله تـعالى به أوليـاءه المؤمنين .

قـال : وجاء رسـولهم هذا الرومي عند غـروب الشـمس ، فلم يمكث إلا يسـيرًا حـتى حـضرت الصـلاة ، فقـام المسلمـون يصلون صلاتهم، فلما قضوا صلاتهم قال خالد للرومي :

- هذا الليل قـد غـشـينا ، ولكن إذا أصـبـحت غـدوت إلى صاحبك، إن شاء الله ، فارجع إليه ، فأعلمه ذلك .

وجعل المسلمـون ينتظرون الرومي أن يقوم إلى صـاحبه، فـيرجع إليه، فيخبره بمـا ردّوا عليه ، وأخذ الرومي لايبرح، وجعل ينظر إلى رجال من المسلمين يصلون ، وهم يدعون الله ، ويتضرعون إليه .

فـقال عـمرو بن العـاص : إن رسـولكم هذا الذي أرسل إليكم لمجنون.

فقال أبو عبيدة : كلا ، أو ماتفطن إلى نظره إلى المسلمين ؟

وجعل الرومي مايفيق ولايطرف بصره عنهم .

فقال أبو عبيدة : والله إني لأرجو أن يكون الله قد قذف في قلبه الإيمان وحبّبه إليه ، وعرّفه فضله .

فلبث الرومي بذلك قليلا ، ثم أقبل على أبي عبيدة ، فقال: أيها الرجل ، متى دخلتم في هذا الدين ؟ ومتى دعوتم إليه الناس ؟

قال أبو عبيدة : دُعينا إليه منذ بضع وعشرين سنة، فمنا من أسلم حين أتاه الرسول ، ومنا من أسلم بعد ذلك .

فقال: هل كان رسولكم أخبركم أنه يأتي من بعده رسول ؟

فقال: لا ، ولكنه أخبرنا أنه لانبي بعده، وأخبرنا أن عيسى بن مريم قد بشر به قومه .

قال الرومي : أنا على ذلك من الشاهدين. أن عيسى بن مريم قد بشرنا براكب الجمل ، وما أظنه إلا صاحبكم .

وقال الرومي : أخبروني عن قول صاحبكم في عيسى بن مريم ماكان ، وما قولكم أنتم فيه ؟

قال أبو عبيدة : قول صاحبنا قول الله ، وهو أصدق القول وأبره قال الله في عيسى بن مريم : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (١) وقال الله ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ** ﴾ إلى آخر الآية، وإلى قوله ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ (٢) .

فلما فسّر له الترجمان هذا بالرومية ، وبلغ هذا المكان قال: أشهد أن هذه صفة عيسى نفسه، وأشهد أن نبيكم صادق، وأنه الذي بشرنا به عيسى ، وأنكم قوم صدق .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٨ - ٥٩ .

(٢) سورة النساء ، الآيتان ١٧٠ - ١٧١ ، وتكملة الآية الاولى ﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾ .

وقال لأبي عـبيدة : ادع لي رجلـين من أول أصحابك إســلاما، وهما فيما ترى أفضل من معك .

فدعا أبو عبيدة معاذ بن جـبل وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل، فقال: هذان من أفضل المسلمين فضلا، ومن أول المسلمين إسلاما .

فقال لهما الرومي ولأبي عبيدة: أتضمنون لي الجنة إن أنا أسلمت وجاهدت معكم ؟

فقـالوا له : نعم ، إن أنت أسلمت ولم تغـير حـتى تموت وأنت على ذلك فإنك من أهل الجنة .

قال: فإني أشهدكم أني من المسلمين .

فأسلم، وفرح المسلمـون بإسلامه ، وصافحوه ودعـوا له بخير، وقالوا له : إنا إن أرسلنا رسولنا غـدا إلى صاحبكم وأنت عندنا ظنوا أنا حبسناك عنهم ، فنتخوّف أن يحبـسوا صاحبنا،فإن شئت أن تأتيهم الليلـة ، وتكتم إســلامك حـتـى نبـعـث رسـولنا إلـيـهم غـــدا، وينصرف. ونـنظر على ما ينصـرم الأمر فيـما بيننا وبينـهم، فإذا رجع رسولنا إلينا أتيتنا عند ذلك ، فما أعزّك علينا، وأرغبنا فيك، وأكرمك علينا، وما أنت عند كل امريء منا إلا بمنزلة أخيه لأمه وأبيه .

قال: فـإنكم نِعمَ مارأيتم ، فخـرج ، فبات في أصـحابه، وأتى باهان فقال له : غدا يجيئكم رسول القوم الذي سألتم .

فلما أصبح الرومي ، وانصرف خالد راجـعًا إلى أصحابه من قِبَل باهان أقـبل الرومي حتى لحق بالمـسلمين، فأسلم وحـسن إسلامـه ، وكان له نجدة ونكاية في المشركين رحمه الله .

قال : فدعا أبو عبيدة خالداً فأخبره الذي جاء فيه جرجه وقال لخالد : القهم فادعهم إلى الإسلام ، فإن قبلوا فهو حظهم، وكانوا قومًا لهم مالنا وعليهم ماعلينا ، وإن أبوا فاعرض عليهم الجزية بأن يؤدوها عن يد وهم صاغرون ، فإن أبوا فأعلمهم أننا نناجزهم ونستعين الله عليهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين .

هكذا بهذا الحكم الثابت أوصى أبو عبيدة خالداً ، ولو علم الروم باعتصام المسلمين بهذا الحكم لأراحوا أنفسهم من عناء التفكير في محاولة إقناع المسلمين بقبول رأيهم في الصلح .

حوار خالد مع الروم :

هذا ولما عزم خالد على المسير لمقابلة قائد الروم أمر بخيمة له من الجلد فضُرِبَتْ له في معسكر الروم، وخرج خالد فأقام بها بعض الوقت، ثم بعث باهان إلى خالد يدعوه إلى لقائه، وقد صف في طريقه عشرة صفوف عن يمينه ومثلها عن شماله مقنَّعين بالحديد لايُرى منهم إلا عيونهم، محمَّلين بأنواع الأسلحة، وصفًّ من وراء تلك الصفوف خيلا عظيمة لايُرى طرفاها ، وإنما أراد باهان بذلك أن يُرِيَ خالدًا حدة الروم وعددهم ليرعبه بذلك ،وليكون ذلك أسرع إلى مايريد أن يعرض عليه من الصلح والمهادنة، فأقبل خالد غير مكترث بما رأى من هيئتهم وجماعتهم ، وكأنها أهون عليه من الكلاب .

وهكذا بدأ باهان مع خالد بفتنة الإرهاب والتخويف، ولكن خالدا لم يتأثر بشيء مما رأى من كثرتهم وتنوع أسلحتهم، لأنه يعتبر القوة المادية في المقام الثاني، ويعتبر القوة المعنوية في المقام الأول،

وهو يعلم يقينًا أن الكفار جميعًا لايصلون إلى مستوى المسلمين في هذا المجال حتى ولو كانوا عشرة أضعاف المسلمين .

فلما دنا من باهان رحب به، ثم قال بلسانه : هاهنا عندي اجلس معي فإنك من ذوي أحساب العرب فيما ذكر لي ، ومن شجعانهم، ونحن نحب الشجاع ذا الحسب، وقد ذُكر لي أن لك عقلا ووفاء، والعاقل ينفعك كلامه وذو الوفاء يصدق قوله ويوثق بعهده .

وأجلس فيما بينه وبين خالد ترجمانًا، فهو يفسر لخالد مايقول، وخالد جالس إلى جانبه .

ثم قال باهان لخالد : أخبرني عنك وأنت هكذا، أتحتاج إلى مشورة هذا الرجل معك ؟

فقال له خالد: وقد تعجب من ذلك، إن في عسكرنا هذا لأكثر من ألفي رجل، كلهم لايُستغنى عن رأيه وعن مشورته .

فقال له باهان : ما كنا نظن ذلك عندكم ولانراكم به .

قال خالد- ماكل ماتظنون ونظن يكون صوابا. قال باهان: صدقت.

ثم قال باهان : إن أول ما أكلمك به أن أدعوك إلى خُلَّتي ومصافاتي .

وهذا من الأمور الغريبة أن يدعو قائد الروم قائد المسلمين إلى الخلة والمصافاة وقد تقابلا في الميدان، والروم في اعتقادهم أن المسلمين معتدون عليهم، فالوضع الطبيعي أن تحصل إرادة النقمة والإعدام بدلاً من إرادة الخلة والمصافاة ، ولكن إذا علمنا أن ذلك نوع من النفاق

السياسي الذي يتعامل به الأعداء مع المسلمين وغيرهم ويعتبرونه من الحنكة السياسية والبراعة في احتواء الخصوم.. إذا علمنا ذلك فإن الغرابة تزول لأن هذا خلق من أخلاق الكفار التي لايرون فيها جرحًا لمكارم الأخلاق، أما المسلمون فإنهم بمقتضى توجيهات دينهم يعتبرون ذلك من مساوئ الأخلاق التي لايتصف بها إلا المنافقون، ولذلك أجاب خالد قائد الروم بقوله : فكيف لي ولك أن يتم هذا فيما بيني وبينك وقد جمعتني وإياك بلدة لاأريد أنا ولاتريد أنت أن نفترق حتى تصير البلدة لأحدنا ؟

فقال باهان : فلعل الله يصلح بيننا وبينكم ولا يسراق دم ولايقتل قتيل.

فقال خالد : إن شاء الله فعل .

انتقل باهان بعد ذلك إلى لون آخر من محاولة احتواء خالد حيث قال له: فإني أريد أن ألقي الحشمة فيما بيني وبينك وأكلمك كلام الأخ لأخيه وإن قبتك هذه الحمراء قد أعجبتني ، وأنا أحب أن تهبها لي، فإني لم أرَ قبة من القباب أحسن منها وأفضل، فخذ مابدا لك فيها وسلني ما أحببت فهو في يديك وهب لي هذه القبة فهي أطرف مما عندنا .

وهكذا رأينا باهان يساوم خالدًا في خيمته الجلدية ويبدي استعداده لدفع مايريد خالد من أموال، وهو الذي يملك أفخر القباب، وأنعم الأثاث، فهل كان فعلاً يريد شراء هذه الخيمة أم كان يريد شراء خالد بالإغراء المادي ؟!

إن هذا الأخير هو المتبادر إلى الذهن في معاملة تدور بين قائدين من أعظم قادة العالم آنذاك .

فماذا كان جواب خالد له ؟ لقد قال له : هي لك فخذها ولست أريد من متاعك شيئًا .

لقد فوّت خالد عليه مراده من هذه المساومة ، وعلم باهان أنه لا جدوى من محاولاته التي يقوم بها لاحتواء خالد، فتحول إلى عرض المفاوضة التي يريدها فقال لخالد: إن شئت بدأناك بالكلام وإن شئت أنت فتكلم .

فقال خالد : ما أبالي أي ذلك كان، أما أنا فلا إخالك إلا وقد علمت وبلغك ما أسأل وما أطلب وماأدعو إليه ، وقد جاءك بذلك أصحابك ومن لقينا منكم بأجنادين ومرج الصُّفَّر وفحل ومدائنكم وحصونكم، وأما أنت فلست أدري ماتريد أن تقول ، فإن شئت فتكلم، وإن شئت بدأتك فتكلمت .

وهكذا أشعره خالد بأنه لاجديد لديه، وإنما مطلبه الآن هو نفس العرض السابق الذي يقدمه المسلمون في كل لقاء بينهم وبين أعدائهم، فهو مطلب واحد لاتنازل فيه ولاتحوُّل عنه .

فقال باهان: الحمد لله الذي جعل نبينا أفضل الأنبياء، وملكنا أفضل الملوك ، وأمتنا خير الأمم .

فلما بلغ هذا المكان قال خالد للترجمان ، وقطع على صاحب الروم منطقه، ثم قال: والحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبيكم وجميع الأنبياء ، وجعل الأمير الذي ولّيناه أمورنا رجلا كبعضنا، فلو

زعم أنه ملك علينا لعزلناه عنا ، ولسنا نرى أن له على رجل من المسلمين فضلا، إلا أن يكون أتقى منه عند الله وأبر، والحمد لله الذي جعل أمتنا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتقر بالذنب وتستغفر الله منه، وتعبد الله وحده، لاتشرك به شيئًا، قل الآن مابدا لك .

فاصفرّ وجه باهان، ومكث قليلا، ثم قال باهان: الحمد لله الذي أبلانا فأحسن البلاء عندنا، وأغنانا من الفقر، ونصرنا على الأمم وأعزّنا فلا نذلّ، ومنعنا من الضيم، فلا يباح حريمنا، ولسنا فيما أعزنا الله به وأعطانا من ديننا بِبَطِرين ولامرحين ولاباغين على الناس، وقد كانت لنا منكم يامعشر العرب جيران كنا نحسن جوارهم، ونعظم قدرهم، ونَفْضُل عليهم، ونفي لهم بالعهد، وخيّرناهم بلادنا، ينزلون منها حيث شاءوا ، فينزلون آمنين، ويرحلون آمنين، وكنا نرى أن جميع العرب ممن لايجاورنا سيشكر لنا ذلك الذي أتينا إلى إخوانهم، وما اصطنعنا عندهم، فلم يَرُعْنا منكم إلا وقد فاجأتمونا بالخيل والرجال، تقاتلوننا على حصوننا، وتريدون أن تغلبونا على بلادنا، وقد طلب هذا منَّا قبلكم من كان أكثر منكم عدداً، وأعظم مكيدة، وأوفى جنداً، ثم رددناهم عنها، فلم يرجعوا عنا إلا وهم بين قتيل وأسير .

وأراد منا ذلك فارس ، فقد بلغكم كيف صنع الله عز وجل، بهم، وأراد ذلك منا الترك فلقيناهم بأشد مما لقينا به فارس، وأرادنا غيركم من أهل المشرق والمغرب من ذوي المنعة والعز والجنود العظيمة،

فكلهم أظفـرَنا الله بهم، وصنع لنا علـيهم، ولم تكن أمـة من الأمم بأرقَّ عندنا منكم شـأنا، ولا أصـغر أخطاراً، إنمـا جُلُّكم رعاء الشــاء والإبل، وأهل الصخــر والحجر والبؤس والـشقاء، فأنتم تطمـعون أن نُجلّي لكم عن بلادنا، بئس ماطمعتم فـيه منها، وقد ظننا أنه لم يأت بكم إلى بلادنا -ونحن يتّـقي كلٌّ من حولنا من الأمم العظيمـة الشأن الكثيـرة العدد كثرتنا وشـدة شوكتنا - إلا جهـد نزل بكم من جدوبة الأرض وقحط المطر، فـعثيتم فـي بلادنا، وأفسدتم كل الفسـاد، وقد ركبتم مراكبنا، وليست كمراكـبكم ، ولبستم ثيابنا، وليست كثيابكم، وثيــاب الروم كأنهـا صـفائح الفـضـة، وطعمـتم من طعـامنا وليس كطعامكم، وأصـبتم منا، وملأتم أيديكم من الذهب الأحمـر والفضة البيضاء ، والمتاع الفاخر ، ولقد لقيناكم الآن وذلك كله لنا ، وهو في أيديكم ، فنحن نسلمه لكم، واخرجوا به، وانصرفوا عن بلادنا .

فإن أبت أنفــسكم إلا أن تحرصوا وتـشرهوا ، وأردتم أن نزيدكم من بيوت أموالنا مايقوَى به الضعيف منكم، ويرى الغائب أن قد رجع إلى أهله بخير، فـعلنا، ونأمر للأمير منكم بعـشرة آلاف دينار، ونأمر لك بمثلها ، ونأمر لرؤسائكم بألف دينار ، ونأمر لجميع أصحابك بمائة دينار على أن توثقـوا لنا بالأيمـان المغلظة ألا تعـودوا إلى بلادنا ، ثم سكت.

وهنا وصل باهان إلى تفصـيل مايريد عرضـه من أمر الصلح في مقابل أن تدفع دولة الروم للـمسلمين مبالغ ضخـمة من الدنانير تصل إلى الملايين، بالرغم من أن خالداً جـابهه بما يُقَنِّطه ويدفعـه إلى اليأس

من احتـوائه وموافقتـه على مايريد، وبالرغم من القـوات الهائلة التي يقودها ، ولكن لعله مأمور بأن ينفذ هذه الخطة فلابد من عرضها وإن فقدت جدواها .

وبهذا نجد الفرق واضحًـا بين تصرف قادة المسلمين وقادة الكفار، فكلهم يسيرون وفق مخطط مرسـوم، ويطيعون قادتهم الكبار، ولكن قادة المسلمين لايـنفذون الأوامر باعـتبارها أوامـر بشرية فـحسب، بل باعتبارها أوامر إلهية . ومن ضـمن هذه الأوامر طاعة المسئولين الكبار في حدود طاعـة الله تعالى ، ثم إنهـم يأخذون حريتـهم الكاملة في الأمـور الاجتـهادية التي هي دون الأمـور الثـوابت ، والتي تتطلبهـا المواقف المتـغيـرة ، ولذلك فإن أحكامـهم في اتخاذ المواقف لاتتـسم بالحـيرة والـشذوذ بل تنسـجم مع مـتطلب العـقل السليم ، بخـلاف مواقف قادة الكفار التي يغلب عليـها الاضطراب والحيرة ، وينفر من قبولها العقل السليم .

فقال خالد رضي الله عنه : الحمد لله الذي لا إله إلا هو .

فلما فسّـر له الترجمان قوله: الحـمد لله الذي لا إله إلا هو رفع يده إلى السماء ثم قال لخالد : نعم ماقلت .

ثم قال خالد . وأشهد أن محمداً رسول الله ، ﷺ .

فلما فسّر له الترجمـان قال باهان : الله أعلم، ماأدري لعله كما تقول، فأخبر الترجمان خالدا .

ثم قال خالد رضي الله عنه : أما بعد فإن كل ماذكرت به قومك من الغنى والعز،ومنع الحريم ، والظهـور على الأعداء، والتمكن في

البلاد فنحن به عارفون ، وكل ماذكرت من إنعامكم على جيرانكم منا فقد عرفناه، وذلك لأمر كنتم تصلحون به دنياكم، وإصلاحكم وإحسانكم إليهم كان ذلك زيادة في ملككم وعزاً لكم ، ألا ترون أن ثلثيهم أو شطرهم دخلوا معكم في دينكم فهم يقاتلوننا معكم ؟

وأما ماذكرتنا به من رعي الإبل والغنم فماأقل من رأيت واحداً منا يكرهه ، وما لمن يكرهه منا فضل على من يفعله، وأما قولكم إنا أهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء فحالنا والله كما وصفت، ما ننتفي من ذلك ولانتبرأ منه، وكنا على أسوأ وأشد مما ذكرت، وسأقص عليك قصتنا ، وأعرض عليك أمرنا، وأدعوك إلى حظك إن قبلت .

ألا إنا كنا ، معشر العرب، أمة من هذه الأمم أنزلنا الله - له الحمد- منزلا من الأرض، ليست به أنهار جارية، ولايكون به من الزرع إلا القليل، وكل أرضنا المَهَامِه والقفار ، فكنا أهل حجر ومدر، وشاء وبعير ، وعيش شديد، وبلاء دائم لازم، نقطع أرحامنا، ونقتل خشية الإملاق أولادنا، ويأكل قوينا ضعيفنا، وكثيرنا قليلنا، ولاتأمن قبيلة منا قبيلة إلا أربعة أشهر من السنة، نعبد من دون الله أربابا وأصناما ننحتها بأيدينا من الحجارة التي نختارها على أعيننا، وهي لاتضر ولاتنفع، ونحن عليها مكبُّون .

فبينما نحن كذلك على شفا حفرة من النار، من مات منا مات مشركا، وصار إلى النار، ومن بقي منا بقي كافراً مشركا بربّه، قاطعًا لرحمه إذ بعث الله فينا رسولا من صميمنا وشرفائنا وخيارنا وكرمائنا

وأفضلنا ،دعانا إلى الله وحده أن نعبده ولانشرك به شيئًا ، وأن نخلع الأنداد التي يعبدها المشركون دونه، وقال لنا : لاتتخذوا من دون الله ربكم إلهـا، ولاوليا ولانصيرا، ولاتجعلوا معه صاحبة ولا ولدا، ولاتعبدوا من دونه ناراً ولاحجراً، ولاشمساً ولاقمراً، واكتفوا به ربًا وإلهًا من كل شيء دونه ، وكونوا أولياءه، وإليه فادعوا وإليه فارغبوا.

وقال لنا : قاتلوا من اتخذ مع الله آلهة أخرى، وكل من زعم أن لله ولداً، وأنه ثاني اثنين ، أو ثالث ثلاثة حتى يقولوا : لاإله إلا الله، وحده لاشريك له، ويدخلوا في الإسلام ، فإن فعلوا حرمت عليكم دماؤهم وأموالهم وأعراضهم إلا بحقها، وهم إخوانكم في الدين، لهم مالكم وعليهم ماعليكم ، فإن هم أبوا أن يدخلوا في دينكم فاعرضوا عليهم الجزية ، أن يؤدوها عن يد وهم صاغرون، فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم، وكفّوا عنهم، وإن أبو فقاتلوهم، فإنه من قتل منكم كان شهيداً عند الله مرزوقًا وأدخله الله الجنة، ومن قتل من عدوكم قتل كافراً وصار إلى النار مخلداً فيها أبدا .

ثم قال خالد : وهذا والله الذي لا إله إلا هو ، أمَر الله به نبيهﷺ، فعلّمناه وأمرنا أن ندعو الناس إليه ، ونحن ندعوكم إلى مادعا إليه نبينا ﷺ،وإلى ما أمرنا به أن ندعو الناس إليه، فندعوكم إلى الإسلام، وإلى أن تشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإلى أن تقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة ، وتقروا بما جاء من عند الله عز وجل فإن فعلتم فأنتم إخواننا في الإسلام، لكم مالنا. وعليكم ماعلينا، وإن أبيتم فإنا نعرض عليكم أن تعطوا الجزية عن يد

وأنتم صاغرون، فإن فعلتم قبلنا منكم، وكففنا عنكم، وإن أبيتم أن تفعلوا فقد والله جاءكم قوم، وهم أحرص على الموت منكم على الحياة ، فاخرجوا بنا على اسم الله حتى نحاكمكم إلى الله، فإنما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين .

وهكذا أنهى خالد بيانه بهذه الخيارات الثلاثة التي دعا إليها باهان وجيشه، وقد تحير باهان أمامها وانزعج كثيراً، لأنه لايرضى هو ولاقومه بالخيارين الأولين، فلم يبق إلا الخيار الثالث، وهو الذي حاول بكل جهوده السابقة أن يتلافاه لخوفه من مواجهته وشكّه في عاقبته، ولكنه أمر لامحيد عنه ، ولذلك قال باهان: « أمَّا أن ندخل في دينكم فما أبعد من ترى من الناس من يترك دينه ويدخل في دينكم، وأما أن نؤدي الجزية - وتنفس صُعَدا وثقلت عليه وعظمت عنده. فقال - فسيموت من ترى جميعًا قبل أن يؤدوا الجزية إلى أحد من الناس، وهم يأخذون الجزية ولايعطونها، وأما قولك فاخرُجوا حتى يحكم الله بيننا فلعمري ماجاءك هؤلاء القوم وهذه الجموع إلا ليحاكموك الله، وأما قولك إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فصدقت، والله ماكانت هذه الأرض التي نقاتلكم عليها وتقاتلوننا فيها إلا لأمة من الأمم كانوا قبلنا فيها فقاتلناهم عليها فأخرجناهم منها، وقد كانت قبل ذلك لقوم آخرين فأخرجهم منها هؤلاء الذين كنا قاتلناهم فيها ، فابرزوا على اسم الله فإنا خارجون إليكم .

هذا وفي كلام باهان مايدل على تشاؤمه من هذه الحرب وأنه يتوقع أن يرث المسلمون بلاد الشام كما ورثها الروم من أسلافهم .

كما تدل هذه المحاورة على أن هذا القائد كان من أفضل قادة

الروم وأنبلهم ولكن رجاحة العقل لاتجدي شيئًا إذا فُقِدت الهداية إلى الصراط المستقيم .

هذا وقد جاء في سياق الرواية المذكورة أن سفيان بن سليم الأزدي قال : قال لي الحارث بن عبد الله الأزدي : فلما فرغ باهان من كلامه وثب خالد فقام، وقمت معه، فمرّ بقبته فتركها له، ومضينا حتى خرجنا من عسكرهم.

قال: وبعث معنا صاحب الروم رجالا أخرجونا من عسكرهم، وحتى أمِنَّا .

قال: فرجعنا إلى أبي عبيدة ، فقص عليهم خالد الخبر، وأخبرهم بأن القتال سيقع بينهم، وقال للناس: استعدوا أيها الناس استعداد قوم يرون أنهم على ساعة مقاتلون (١) .

مشورة باهان لأصحابه :

روى أبو إسماعيل الأزدي من خبر أبي جهضم الأزدي عن رجل من الروم قال: كنت مع باهان في عسكرهم ذلك قال: وقد كان أسلم وحسن إسلامه قال: كتب باهان إلى قيصر كتابا يخبره فيه بحاله وحال أصحابه وحال المسلمين، وكان قد جمع أصحابه يوم انصرف خالد عنهم ، فقال : أشيروا عليّ برأيكم في أمر هؤلاء القوم، فإني قد هيّبْتهم ولاأراهم يهابون، وأطمعتهم فليسوا يطمعون، و أردتهم على الرجوع والخروج من بلدنا بكل وجه فليسوا براجعين، والقوم ليسوا يريدون إلا هلاككم واستئصالكم وسلب سلطانكم، وأكل بلادكم

---

(١) فتوح الشام / ١٩٤ - ٢٠٧ . بتصرف .

وسبي أولادكم ونسائكم وأخذ أموالكم ، فإن كنتم أحراراً فقاتلوا عن سلطانكم ، وامنعوا حريمكم ونساءكم وأولادكم وبلادكم وأموالكم.

فقامت البطارقة، رجل من بعد رجل، فكلهم يخبره أنه طيب النفس بالموت دون بلاده وسلطانه ، وقالوا له: إذا شئت فانهض بنا.

فقال لهم باهان: فكيف ترون بقتالهم ، فإنا أكثر من عشرة أضعافهم نحن نحوٌ من أربعمائة ألف، وهم نحو من ثلاثين ألفا،أو أقل أو أكثر قليلا .

فقال له بعضهم : أخرِج إليهم في كل يوم مائة ألف يقاتلون وتستريح البقية وتُسرِّح بعيالنا وأثقالنا إلى البحر فلا يكون معنا شيء يهمنا ولايشغلنا، ويقاتلهم في كل يوم منا مائة ألف ، فهم في كل يوم في قتل وجراحات، وعناء ومشقة وشدة، ونحن لانقاتل إلا كل أربعة أيام يوما ، فإن هزموا منا في كل يوم مائة ألف بقي لهم أكثر من مائتي ألف لم ينهزموا .

وقال آخرون : لا ، ولكنا نرى إذا هم خرجوا إلينا أن تبعث إلى كل رجل منهم عشرة من أصحابك ، فلا والله لاتبعث عشرة على واحد إلا غلبوه .

فقال لهم باهان: هذا ما لايكون، وكيف أقدر على عددهم حتى أبعث إلى كل رجل منهم عشرة من أصحابي؟ وكيف أقدر على أن ينفرد الرجل منهم من صاحبه حتى أبعث إليه عشرة من قِبَلي؟ وهذا مالايكون .

قال: فأجمعَ رأيهم جميعًا على أن يخرجوا بأجمعهم خرجة

واحدة فيناجزوهم فيها، ثم لايرجعون عنهم حتى يحكم الله بينهم .

قال: فاجتمع رأي الروم كلهم على هذا .

قال: وكتب باهان إلى قيصر : أما بعد ، فإنا نسأل الله لك أيها الملك، ولجندك ولأهل مملكتك النصر، ولدينك وأهل سلطانك العز، فإنك قد بعثتني فيما لايحصيه من العدد إلا الله، فقدمت على قوم، فأرسلت إليهم، فهيَّبتهم ، فلم يهابوا، وأطمعْتهم فلم يطمعوا وخوَّفتهم فلم يخافوا، وسألتهم الصلح فلم يقبلوا، وجعلت لهم الجُعْل على أن ينصرفوا فلم يفعلوا، وقد ذُعر منهم جندك ذعراً شديداً، وقد خشيت أن يكون الفشل قد عمَّهم، والرعب قد دخل في قلوبهم، إلا أن منهم رجالا قد عرفتهم ليسوا بفُرَّار من عدوهم، ولاشُكَّاك في دينهم، ولو قد لقوهم لم يفروا حتى يظهروا أو يُقتلوا، وقد جمعت أهل الرأي من أصحابي وأهل النصيحة لملكنا ودينا فاجتمع رأيهم على النهوض إليهم جميعًا في يوم واحد، ثم لانزايلهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

قال: وكان باهان رأى رؤيا، وكتب بها إلى ملك الروم في كتابه هذا: وقد أتاني آت في منامي فقال لي: لاتقاتل هؤلاء القوم فإنهم إذَنْ يهلكونك ، فلما انتبهت من منامي عبَّرت أنه من الشيطان أراد أن يحزنني فخسأته، فإن يكن الشيطان فقد خسأته، وإلا يكن الشيطان فقد تبيَّن لي الأمر، فابعث أنت أيها الملك بثقلك وخدمك ومالك فألحقهم بأقصى بلادك وانتظر وقعتنا هذه ، فإن أظهرنا الله عليهم حمدت الله الذي أعزّ دينك، ومنع سلطانك، وإن هم ظهروا علينا

فارض بقضاء الله ، واعلم أن الدنيا زائلة عنك، كما زالت عمن كان قبلـنا ، ولاتأسف منها على مـافاتك، ولاتغـتبط منهـا بشيء مما في يديك، والحق بمعـاقلك وبدار مملكتـك، وأحسن إلى رعـيـتك وإلى الناس يحسن الله إلـيك، وارحم الضعفـاء والمساكين تُرحم، وتواضع لله يرفعك، فإن الله لايحب المتكبرين ، والسلام (١) .

استعداد الجيشين للمعركة :

قال : ثم إن باهان خرج إلى المسلمين في يوم ذي ضباب ورذاذ، فـصف له عشـرين صـفًا لايُرى طرفـاهم ، ثم جـعل على مـيمنتـه وميسرته، فجعل ابن قناطر على ميـمنته، وجعل معه جرجير في أهل أرمينية ، وجعـل الدرنجار في ميسرته، وكان من خيـارهم ونساكهـم، فأقبلوا نحو المسلمين .

فلما نظر إليهم المسلمون وقد أقبلوا كأنهم الجراد قد ملؤوا الأرض كأنهم أعراض الجبال نهضوا إلى راياتهم .

وجـاء خالد بن الـوليد، ويزيد بن أبـي سفـيـان ، وعمـرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة إلـى أبي عبيدة، وهم الأمراء الذين كان أبو بكر الصـديق رضي الله عنه أمَّرهم وبعـثهم إلى الشـام، فأتوا أبا عبيدة ومعه معاذ لايفارقه فقالوا له : إن هؤلاء قد زحفوا إلينا في مثل هذا اليوم المطـير، وإنا لانرى أن نخرج إلـيهم فيه إلا أن يـأتونا حتى يُلِطّوا (٢) بعسكرنا ، أو يضطرونا إلى ذلك .

قال فإنكم قد أصَبتم .

---

(١) فتوح الشام /٢٠٨ - ٢١٠ .

(٢) أي يلتصقون .

قال : وخـرج أبو عبـيدة ومعـه معاذ بن جـبل، فصـفوا الناس وعبَّوهم، ووقفوهم على مراكزهم .

وأقبلت الروم في المطر، ووقفوا ساعة، وتصبَّروا عليه، فلما رأوا أن ذلك لايقلع ولاينقطع انصرفوا إلى عسكرهم .

قال: ودعـا الدرنجار، وكان فـيهم ناسكا، رجـلا من العرب ممن كان على دين الـنصرانية ، فـقال له : ادخل في عسـكر هذا القوم، فانظر ماهَدْيهم ومـاحالهم وما أعمالهم وما يصنعـون وكيف سيرتهم؟ ثم الْقَني بها .

فخـرج ذلك الرجل حتى دخل عسكر المسلمـين ، فلم يستنكروه لأنه كان رجلا من العرب، لسانه ووجـهه، فمكث في عسكرهم ليلة حتى أصبح ، فوجـد المسلمين يصلون الليل كله كأنهم في النهار، ثم أصبح ، فأقام عامة يومه ، ثم خرج إليه ، فقال له :

جئتك من عند قوم يقومون الليل كله يصلون، ويصومون النهار، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر، رهبان بالليل، أُسْد بالنهار لو يسـرق ملكهم لقـطعـوا يده، ولو زنى لرجـمـوه، لإيثـارهم الحق، واتباعهم إياه على الهوى .

فـقال : لئن كـان هؤلاء القوم كـما تزعم، وكـما ذكـرت لبطن الأرض خير لمن يريد قتالهم ولقاءهم من ظهرها [1] .

لقد كـان ذلك الرجل النصـراني لمَّاحًا سريـع الفهم، حيـث فهم مزايا المسلمين العالية بتلك السرعـة وكان صادقًا عادلا حيث أبرز تلك المزايا لمن بعثه بأمانـة، وهي صفات جذابة لأصحاب العقـول السامية

---

(١) فتوح الشام / ٢١٠ - ٢١١ .

والأفكار السليمة، وفي نفس الوقت هي صفات مرعبة للأعداء ، لأن الذين بلغوا ذلك الحد من العبادة وأقاموا حياتهم على العدل والحق، لابد أنهم سيُحظَون بحب الله تعالى ونصره وتأييده ، ولابد أن تكون نفوسهم قوية وثابة نحو المعالي، بحيث تستنفد كل طاقات أجسامها في خدمة أهدافها السامية، وفي سبيل ذلك تُذلِّل جميع الصعوبات وتستهين بجميع العوائق والعقبات ، ومن كان الله جل وعلا معه فلن يُخذَل، ومن كان يحمل نفسا قوية فلن يُغلَب، فلذلك ندم الدُّرَنْجار على قتال هؤلاء المسلمين المصطفَين الأخيار .

وفي رواية للطبري أن رجلا قال لخالد بن الوليد : ماأكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد: ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان، لابعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر براء من توجِّيه[1] وأنهم أُضعِفوا في العدد [2] .

وهذا مثل على شجاعة خالد وقوة إيمانه وثقته العالية بنصر الله تعالى ، حيث لاينظر إلى عدد الأعداء مهما بلغوا، وقد حاول بكلامه هذا تعديل موازين المعركة، حيث إن الأعداء يبلغون عشرة أضعاف المسلمين ، فلابد أن يوازن ذلك قوة عالية في الروح المعنوية لدى المسلمين تُعوض ذلك الفرق الكبير في العدد .

عيون للمسلمين :

فلما كان الغد خرجوا أيضًا في يوم ذي ضباب، وأتى المسلمين رجال من العرب كانوا نصارى فأسلموا .

---

(١) أي مما أصاب أقدامه من الحفا .

(٢) تاريخ الطبري ٣/٣٩٧ - ٣٩٨ .

فقال لهم أبو عبيدة ، وخالد بن الوليد: ادخلوا في عسكر الروم، فاكتموهم إسلامكم، والْقَونا بأخبارهم، فإن في هذا لكم أجرًا، والله حاسبه لكم جهادًا، فإنكم تدفعون بذلك حرمة الإسلام، وتدلُّون على عورة أهل الشرك، فانطلقوا ، فدخلوا عسكر الروم، ثم جاءوا بعد ما مضى من الليل نصفه .

فأتوا أبا عبيدة بن الجراح، فقالوا له : إن القوم قد أوقدوا النيران، وهم يتعبّون لكم ، ويتهيأون لقتالكم، وهم مصبحوكم بالغداة، فما كنتم صانعين، فاصنعوا الآن .

فخرج أبو عبيدة ، ومعاذ بن جبل، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص فعبّوا الناس، وصففوهم، فلم يزالوا في ذلك حتى أصبحوا [1] .

مبشرات بالنصر :

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من حديث راشد بن عبد الرحمن الأزدي قال، صلى بنا أبو عبيدة بن الجراح يومئذ صلاة الغداة في عسكره، في الغداة التي لقينا فيها الروم باليرموك، فقرأ في أول ركعة ﴿ **وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ** ﴾ فلما مرَّ بقول الله عز وجل ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ إلى قوله ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ [2] قلت في نفسي ظهرنا والله على القوم للذي أجري على لسانه، وسررت بذلك

---

(١) فتوح الشام / ٢١١ - ٢١٢ .

(٢) سورة الفجر الآيات / ١ - ١٤ .

سروراً عظيمًا، وقلت: عدونًا والله هذا نظير هذه الأمة في الكفر والكثرة والمعاصي .

قال : ثم قرأ في الركعة الثانية ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ فلما مرَّ بقول الله عز وجل ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝١١ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ إلى خاتمة السورة [1] فقلت في نفسي وهذه أخرى إن صدق[2] ليصبنَّ الله عليهم صوط عذاب، وليُدَمْدِمَنَّ عليهم كما دمدم على هذه القرون من قبله .

قال : فلما قضى أبو عبيدة صلاته أقبل على الناس بوجهه، فقال: أيها الناس أبشروا ، فإني رأيت في ليلتي هذه فيما يرى النائم كأن رجالا أتوني، فحفُّوا بي، وعليَّ ثياب بيض، ثم دعوا لي رجالا منكم أعرفهم، ثم قالوا لنا : أقدموا على عدوكم ولاتهابوهم، فإنكم الأعلون، وكأنَّا مضينا إلى عسكر عدونا، فلما رأونا قاصدين إليهم انفرجوا لنا انفراج الرأس، وجئنا حتى دخلنا عسكرهم وولَّوا مدبرين.

فقال له الناس : أصلحك الله نامت عينك، هذه بشرى من الله، بشرك الله بخير .

فقال أبو مَرثد الخَولاني، وأنا أصلحك الله قد رأيت رؤيا، إنها لبشرى من الله، وإني رأيت في هذه الليلة فيما يرى النائم كأنَّا خرجنا إلى عدونا، فلما توقفنا صبَّ الله عليهم من السماء طيراً بيضا عظاما، لها مخالب كمخالب الأُسْد، وهي تنقض من السماء انقضاض

(١) سورة الشمس الآيات/ ١١ - ١٥ .

(٢) أي ظني وما قلت في نفسي .

العُقْبان، فإذا حاذت بالرجل من المشركين ضربته ضربة يخرُّ منها منقطعًا، وكأنَّ الناس يقولون، أبشروا معاشر المسلمين، فقد أيدكم الله عليهم بالملائكة .

قال : فتباشر المسلمون بهذه الرؤيا ، وسُرُّوا بها .

فقال أبو عبيدة : وهذه والله بشرى من الله، فحدثوا بهذه الرؤيا الناس، فإن مثلها من الرؤيا يشجِّع المسلم، ويحسِّن ظنه وينشِّطه للقاء عدوه .

قال : وانتشرت هذه الرؤيا ورؤيا أبي عبيدة في المسلمين، وفرحوا واستبشروا بهما (١) .

وهكذا نرى أن الله جل جلاله مع المؤمنين بنصره وتأييده ، ولاشك أن هذه الرُّؤَى كان لها الأثر البالغ في رفع معنوية المسلمين.

هذا ومما ينبغي ذكره أن هذا النصر من الله تعالى للمؤمنين، وتسكين قلوبهم، ومنحهم البشرى والسرور قبل الدخول في المعركة لم يكن لمجرد كونهم مسلمين في الظاهر وإنما ذلك لكونهم من المؤمنين الصادقين الذين لم يتسرب إلى قلوبهم اعتبار أي قوة من قوى الأرض، ولم يستلهموا النصر والتأييد إلا من الله تعالى ، وكانت ثقتهم به عظيمة واعتمادهم عليه وحده في طلب النصر .

ومن هنا ندرك الفرق الكبير بين جيوش الصحابة رضي الله عنهم وجيوش كثير من المسلمين بعد ذلك، حيث تخلف النصر عنهم وتسلط الأعداء عليهم، لأنهم كانوا لايذكرون الله تعالى في حروبهم

---

(١) فتوح الشام / ٢١٢ - ٢١٤ .

إلا قليلا فتخلّى الله عنهم ووكلهم إلى حولهم وقوتهم .

ومع إيمان الصحابة الراسخ بأن الله تعالى مع أوليائه في شدتهم ورخائهم فإنهم لم يعتمدوا على التوكل وحده ، بل قاموا بتحقيق كل ما أمكنهم من أسباب النصر المعروفة ، فجمعوا جيوشهم في جيش واحد واختاروا المكان المناسب وطلبوا المدد من أمير المؤمنين ، إلى غير ذلك من الأسباب ،مع استصحاب التوكل على الله تعالى وطلب المدد منه في كل أحوالهم، واعتبار أن العمل بالأسباب المادية من طاعة الله تعالى فهو الذي أمرهم بإعداد القوة للكفار، والاجتماع لقتالهم، وطاعة الأمراء، فحققوا كل عوامل النصر التي تخضع لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ .

إنذار الروم بالهزيمة :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي: وحدثني أبو جهضم الأزدي عن رجل من الروم - وحدثني في خلافة عبد الملك ابن مروان - أن رجلا من عظماء الروم أتى باهان في صبيحة الليلة التي خرج إلى المسلمين باليرموك فقال: إني رأيت رؤيا، وأريد أن أحدثك بها، قال : هاتها .

قال: رأيت كأن رجالا نزلوا إلينا من السماء طوالا أحدهم أبعد من مدّ بصره، فنزعوا سيوفنا من أغمادها، وأسنة رماحنا من أطرافها، ثم لم يدعوا منّا رجلا إلا كتّفوه، ثم قالوا لنا، اهربوا فأكثركم هالك، فأخذنا نهرب، فمنا من يسقط على وجهه، ومنا من يتبلّد لايستطيع أن يبرح من مكانه ، ومنا من يحلّ كتافه، ثم يسعى حتى لانراه .

قال له باهان : أما من رأيت يسقط على وجهه، ومن رأيته يتبلد ولايطيق أن يسعى، ولايتنحَّى من مكانه فهؤلاء الذين يهلكون، وأما الذي رأيت يحلُّون كتافهم ويسعون فلا تراهم ، فأولئك الذين ينجون.

ثم قال له باهان : أما إذ رأيت [ما رأيت] فو الله لاتسلم مني أبدًا، فوجهك الوجه الذي بشَّر بالشر، وقنط من الخير، ألست أنت الذي كنت أشد الناس عليَّ في أمر الرجل الذي قتل من أهل الذمة رجلا؟ فأردت أن أقتله به، فكنت أنت أشد الناس عليَّ في أمره، حتى عطلت حدّاً من حدود الله وتركته وكان من الحق عليَّ أن أقيمه، فحلْتَ بيني وبينه في جماعة من السفهاء، وتركتُه كراهية أن أفرق جماعتكم، أو أن أفرق بينكم، أو أن يضرب بعضكم بعضا، فأما الآن فقد حدَّثت نفسي بالموت، وإنما ألقى القوم من ساعة، فإن شئتم الآن فتفرقوا، وإن شئتم فاجتمعوا، فأنا أتوب إلى الله تعالى من ترك ذلك الحدّ يومئذ، فإنه لم يكن يسعني ولاينبغي لي إلا قتله ولو قتلتموني معه.

ثم أمر به فضربت عنقه ، وطلب الرومي الذي كان قتل الذمي، فهرب منه ، ولم يقدر عليه .

قال أبو جهضم : فسألت الرومي : ماكان من قصة ذلك الرومي؟

قال : إن بطريقًا من بطارقة الروم نزل بيت رجل من أهل الذمة، وكان عظيمًا من عظمائهم وأشدائهم، فوقع على امرأة الذمي

فنكحها، فجاء زوجها ليمنعه فقتله، فخرج أخوه فاستعدى عليه أميرهم الأعظم باهان ، وأخبره خبره .

فدعاه باهان فقال : أحق مايزعم هذا ؟ قال . نعم .

قال : وماحملك على ما صنعت ؟

قال . إنما هي أمَتي ، وإنما زوجها عبدي، أتمنعني أن أقضي لذتي من أمتي ؟ وتريد أن تقتلني بعبدي ؟

قال باهان : الحقُّ أن أقتلك به، وأن أمنع نساءهم من أشباهك، فقام رجال كثيرون من سفهاء الروم وشرارهم فقالوا: أتقتل رجلا من عظمائنا وأشرافنا بعبد من عبيده ؟ فمنعوه من ذلك، وكان ذلك الرجل الذي قتله باهان من أشدهم يومئذ على باهان .

فقال له باهان : أما أنتم فقد أتيتم أمرًا عظيمًا، وعصيتم ربكم، وأغضبتموه عليكم وإذا غضب على قوم فهو ينتقم منهم، ثم كف عنهم.

فقال أخو المقتول لباهان : أنا إذا لم تُعْدني عليهم فإني استعدي عليهم ملك السماء (١) .

وهكذا في الوقت الذي ارتفعت فيه معنوية المؤمنين بما أراهم الله في المنام من البشرى انحطت معنوية الكفار بما أراهم الله في المنام من الرعب والإرهاب، فقد أصاب "باهان" اليأس وأيقن بالهزيمة والموت، ولذلك أقدم على عمل يختلف عما عرف عنه من الحكمة والسياسة، حيث قتل الرجل الذي أخبره بهذه الرؤيا مع أنه من عظماء

---

(١) فتوح الشام / ٢١٤ - ٢١٦ .

الروم ، وكانت الحكمة تقتضي أن يمنعه من نشر هذه الرؤيا لأن قتله يكون سببًا في انتشارها ، ومما يدل على يأسه من النصر أنه بعد أن ذكر سبب عدم إقامته الحد على مرتكب الذنب سابقًا وهو خوفه من أن يفرِّق جماعة الجيش قال: فأما الآن فقد حدَّثت نفسي بالموت وإنما ألقى القوم من ساعة فإن شئتم الآن فتفرقوا وإن شئتم فاجتمعوا فأنا أتوب إلى الله تعالى من ترك ذلك الحد يومئذ فإنه لم يكن يسعني ولاينبغي لي إلا قتله ولو قتلتموني معه .

استعداد الجيشين للمواجهة :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي : حدثني الصقعب ابن زهير عن المهاجر بن صيفي عن راشد بن عبد الرحمن الأزدي قال: خرج إلينا باهان يوم اليرموك في يوم ذي ضباب، فخرج إلينا في عشرين صفا، وهم في نحو من أربعمائة ألف ، فجعل ابن قُناطر في ميمنته، وجعل معه جِرجير صاحب أرمينية، وجعل الدُّرُنْجار في ميسرته ، وكان من نساكهم، ثم زحف إلى المسلمين مثل الليل والسيل.

وأصبح المسلمون طيبة نفوسهم بقتال المشركين، وقد شرح الله لهم صدورهم، وشجع قلوبهم على لقاء عدوهم، فهم أشد شيء بصيرة،وأحسنه نية على باهان، وأعظمه حسبة،وأحرصه على لقائهم.

فأخرجهم أبو عبيدة، وجعل على ميمنته معاذ بن جبل، وعلى ميسرته قُبَاث بن أشْيم، وجعل على الرَّجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وجعل على الخيل خالد بن الوليد .

وكان الأمراء، يزيد بن أبي سفيان على ربع، وشرحبيل بن حسنة على ربع، وعمرو بن العاص على ربع، وأبو عبيدة على ربع .

وخرج الناس على راياتهم، وفيها أشراف العرب وفرسانهم من رجالهم وقبائلهم، وفيها الأزد ،وهم ثلث الناس، وفيها حمْيَر ، وهم عُظم الناس. وفيها هَمدان، وخولان، ومَذحَج، وخَثْعَم، وقُضَاعة، ولَخْم وجُذَام، وغَسَّان، وعَامِلة، وكنْدة، وحَضْرَموت، ومعهم جماعة من كنانة، ولكن عُظم الناس من أهل اليمن، ولم يحضرها يومئذ أسد ولاتميم ولاربيعة، ولم تكن دَارُهم هنالك، وإنما كانت دارهم عراقية ، فقاتلوا فارس بالعراق .

فلما برز المسلمون إليهم سار أبو عبيدة في المسلمين، ثم قال: ياعباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، فإن وعد الله حق، يامعشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضة للعار - أي مفشلة - فلا تبرحوا مصافكم ولاتخطوا إليهم خطوة، ولاتبدءوهم بقتال، وأشرعوا الرماح، واستتروا بالدَّرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله حتى آمركم إن شاء الله .

قال : وخرج معاذ بن جبل يقص على الناس ويقول : ياقراء القرآن ومستَحْفظي الكتاب وأنصار الهدى وأولياء الحق، إن رحمة الله والله لاتُنال وجنَّته لاتُدخل بالأماني ولايؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم الله عز وجل، ألم تسمعوا قول الله عز وجل ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ . . الآية[1]

---

(١) سورة النور / ٥٥ .

أنتم إن شاء الله منصورون ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(١) واستحيوا من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم، وأنتم في قبضته ورحمته ، وليس لأحد منكم ملجأ ولا ملتجأ من دونه، ولامُتعَزَّزَ بغير الله، فجعل يمشي في الصفوف ، ويحرضهم ويقصّ عليهم، ثم انصرف إلى موقفه.

وقال أبو إسماعيل الأزدي وحدثني محمد بن يوسف عن ثابت ابن سهل بن سعد الأنصاري قال، ومرّ عمرو بن العاص على الناس يومئذ ، فجعل يعظهم ويقص عليهم ويحرضهم، ويقول: أيها الناس غُضُّوا أبصاركم، واجثوا على الركب، وأشرعوا الرماح، والزموا مراكزكم ومصافكم، فإذا حمل عليكم عدوكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فَثِبوا في وجوههم وثوب الأُسْد، فو الذي يرضى الصدق ويثيب عليه، ويمقت الكذب ويعاقب عليه، ويجزي بالإحسان لقد بلغني أن المسلمين سيفتحونها كَفْراً كفرا (٢)، وقَصْراً قصرا، فلا يهولنّكم جموعهم ولاعددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الشدّة لقد انذعروا انذعار أولاد الحجل (٣) .

قال : وكان أبو سفيان يومئذ يسير في الناس ، ويقف على أهل كل راية وعلى كل جماعة ،فيحرض الناس ويحضهم ويعظهم ويقول:

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤٦ .

(٢) أي بلدا بلدا .

(٣) الحجل نوع من الطيور .

إنكم يامعشر المسلمين أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الإبل، نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين، وقد والله أصبحتهم بإزاء عدو كثير عددهم ، شديد عليكم حنَقُهم ، وقد وترتموهم في أنفسهم ونسائهم، وأولادهم وأموالهم وبلادهم، فلا والله لاينجيكم منهم اليوم وتبلغون رضوان الله إلا بصدق اللقاء والصبر في مواطن المكروهة ، فامتنعوا بسيوفكم، وتقربوا بها إلى خالقكم، ولتكن هي الحصون التي تلجؤون إليها، وبها تُمنعون (١) .

هذا ولقد كان لكلمات هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم وأمثالها أثر بالغ على عموم المسلمين ، فإن الموقف كان شديداً تعلوه الرهبة والتخوف من وقع المفاجأة حينما يقابل الفرد المسلم عشرة من الكفار، فكان لابد من قيام أهل الشجاعة والرسوخ في العلم من تثبيت أفراد الجيش الإسلامي ليواجهوا هول الصدمة بالثبات والصبر .

وصف المعركة :

أخرج محمد بن عبد الله الأزدي من خبر ثابت بن سهل بن سعيد الأنصاري قال وزحف الروم إلى المسلمين وهم يزفُّون زفّاً، ومعهم الصلبان، وأقبلوا بالأساقفة والقسيسين والرهبان، والبطارقة والفرسان،ولهم دويّ كدوي الرعد، وقد تبايع عُظَمُهم على الموت، ودخل منهم ثلاثون ألفا، كل عشرة في سلسلة لئلا يفروا .

فلما نظر إليهم خالد بن الوليد مقبلين أقبل إلى نساء المسلمين

---

(١) فتوح الشام / ٢١٧ - ٢٢٠ ، وانظر تاريخ دمشق ١٤٨/٢ - ١٤٩ .

وهنَّ على تل مرتفع في العسكر ، فقال: يانساء المسلمين ، أيما رجل أدركتنَّــه منهزمًا فــاقتُلْنَه فــأخذن الخناجــر، ثم أقبلن نحــو المسلمين ، فقلن: لستم ببعولتنا إن لم تمنعونا اليوم .

وأقبل خــالد إلى أبي عبيدة فــقال له : إن هؤلاء قد أقــبلوا بعدد وجــدٍّ وَحــدٍّ وإن لهم لشــدَّة لايردها شيء، وليــست خــيل المسلمين بكثيــرة، ولا والله لاقامت خــيلي لشَدَّة حــملتهم وخيلــهم ورجالهــم أبدا، وخــيل خالد يومــئذ أمــام صفــوف المسلمين، والمسلمــون ثلاثة صفوف.

قــال خالد : فــقــد رأيت أن أفرق خــيلي فــأكون أنا في إحــدى الخيلين، ويكون قيس بن هبيرة في الخيل الأخرى، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميــسرة. فإذا حملوا على الناس ، فــإن ثبت المسلمون، فالله ثبتهم وثبت أقدامهم، وإن كانت الأخرى حملنا عليهم بخيولنا، وهي جامّة على ميمنتهم وميسرتهم، وقد انتهت شَدَّة خيلهم وقوتها، وتفرقت جمــاعتهم ، ونقضــوا صفوفهم، وصاروا نَــشَرًا ، ثم نحمل عليــهم وهم على تلك الحــال، فــأرجــو عندها أن يظفــرنا الله بهم، ويجعل دائرة السوء عليهم .

وقال لأبي عبيدة : قد رأيت لك أن توقف سعيد بن زيد موقفك هذا، وتقف أنــت من ورائه في جــمــاعــة حــسنة، فــتكونوا ردءًا للمسلمين.

فقبل منه أبو عبيدة مــشورته، وقال: افعل ماأراك الله، وأنا فاعل ماذكرت، فــأمر أبو عبيدة سعــيد بن زيد ، فوقف في مكانه، وركب

أبو عبيدة، فسار في الناس يحرضـهم، ويوصيهم بتقوى الله والصبر، ثم انصرف ، فوقف من وراءِ الناس ردءاً لهم [١] .

وهكذا لما اقترب الروم من المسلمـين وفّق الله خالد بن الوليد إلى خطة تكمل مابدأه من خطته السابقـة التي قسم بها الجيش إلى أربعين كتيبة تقـريبًا ، وذلك أنه رأى ضخـامة جـيش الروم ومايتقـدمه من الخيول التي تزيد عن خيول المسلمين أضعافا، فأدرك أنه سيكون لهم شَدَّة عنيفة تؤثر فـيمن يواجههم ، وهو يدرك بألمعيته وخـبرته الحربية العالية أن مقاومة الجيوش الضخمة بجيوش لاتزيد عن عشرها لايكون بمجرد المواجهة والاعتماد على الشـجاعة والصبر والثبات ، وإنما لابد مع ذلك من إعـمال الفكر واسـتعـمال الحـيل، وذلك في تتبع نـقاط الضعف لدى الأعداء ثم الاستفادة من ذلك بالهجوم المركز الذي يبهت الأعداء ويحول بينهم وبين الاستفادة من طاقـتهم ، فيبقى أكوام منهم معطلين لايستطيعون المواجهة بمفردهم .

ونتيجة لهذا التفكير فـقد رأى خالد أن يقسم خيله قسمين، يكون هو على رأس قسـم منهما وعلى الآخـر قيس بن هبـيرة المرادي الذي كان يعتبر الرجل الثاني في الفروسية بعد خالد، فيكون أحدهما خلف ميمنة المسلمين والآخر خلف ميسـرتهم ، حتى إذا انتهت شَدَّة فرسان الروم الأولى واختلطوا بجيش المسلمين خرج لهم خالد وقيس بفرسان المسلمين من الميمنة والميسرة فأوقعوا الخلل في صفوفهم .

قال مـحمد بن عـبد الله الأزدي في سـياق خبـر ثابت بن سهل

---

(١) فتوح الشام / ٢٢٠ - ٢٢١ ، وانظر تاريخ دمشق ٢/ ١٥٠ - ١٥١ .

الأنصاري : وأقبلت الروم كقطع الليل حتى إذا حاذوا الميمنة نادى معاذ ابن جبل الناس، فقال: ياعباد الله المسلمين، إن هؤلاء قد تيسروا للشَّدَّة عليكم، ولا والله لايردهم إلا صدق اللقاء والصبر على البأساء، ثم نزل عن فرسه : وقال: من أراد أن يأخذ فرسي ويقاتل عليه فليأخذه، فوثب إليه ابنه عبد الرحمن بن معاذ وهو غلام حين احتلم. فقال: ياأبت ، إني لأرجو أن أكون أنا فارسًا أعظم غناء عن المسلمين مني راجلا، وأنت ياأبت راجل أعظم غناء منك فارسا، وعُظْم المسلمين رجالة، وإذا رأوك صابرًا محافظًا صبروا إن شاء الله وحافظوا .

فقال له معاذ بن جبل: وفقني الله وإياك يابني لما يحب ويرضاه، فقاتل معاذ وابنه قتالا ماقاتل مثله كثير من المسلمين .

ثم إن الروم تحاضّوا وتداعوا ، وقَصَّت عليهم الأساقفة والرهبان، وقد دنوا من المسلمين ، فإذا سمع معاذ ذلك منهم قال: اللهم زلزل أقدامهم ،وأرعب قلوبهم، وأنزل علينا السكينة، وألزمنا كلمة التقوى، وحبب إلينا اللقاءَ، ورضِّنا بالقضاء .

قال : وخرج باهان صاحب الروم ، فجال في أصحابه وتيسَّر ، وأمرهم بالصبر والقتال دون ذراريِّهم وأموالهم وسلطانهم وبلادهم، ثم بعث إلى صاحب الميسرة أن أحمل عليهم، وكان عليها الدَّرَنْجار، وكان متنسكا، فقالت البطارقة والرؤوس الذين معه : قد أمركم أميركم أن تحملوا عليهم .

قال : وتهيأت البطارقة ، ثم شدوا على الميمنة، وفيها الأزْد،

ومذْحج وحضرموت وحميَر وخوْلان ، فثبتوا حتى صدقوا ، واقتتلوا قتالا شديداً.

ثم إنه ركبهم من الروم أمثال الجبال ، فأزالوا المسلمين من الميمنة إلى ناحية من القلب، فانكشفت طائفة من المسلمين إلى المعسكر، وثبت عُظْم الناس فلم يزولوا ، وقاتلوا تحت راياتهم ولم ينكشفوا، ولم تنكشف يومئذ زَبِيد وهي في الميمنة، وفيهم الحجاج بن عبد يغوث أبو عمرو بن الحجاج ، فنادى : ياخَيْفان[1] ياخيفان، فاجتمعوا إليه، ثم شدوا على الروم، وهم في نحو من خمسمائة رجل شدة شديدة ، فلم ينتهنهوا حتى خالطوا الروم، ثم قاتلوا قتالا شديداً، وشغلوهم عن اتِّباع من انكشف من المسلمين، وشدت عليهم حمير وحضْرَمَوت وخولان بعدما كانوا زالوا ، ثم رجعوا إلى مواقفهم حتى وقفوا في الصف حيث كانوا .

واستقبلت النساء المسلمين وهم منهزمون ، ومعهن العنَاهِر (وقال العناهرُ عمُد البيوت) فأخذن يضربن بها وجوههم .

قال سهل بن سعد :أخذت خولة ابنة ثعلبة بن مالك بن الدُّخْشُم عموداً من تلك العمد، ثم أقبلت نحو المنهزمة وهي ترتجز وتقول :

ياهَارِبًا عَنْ نِسْوةٍ تَقِيَّات رُمِيتَ بالسَّهْم وبالمنيَّات
فعَنْ قَلِيلٍ ماأَتُرَى سَبِيَّات غير حظِيَّات ولارضيَّات[2]

كل هذا وخالد بن الوليد يقف بخيله خلف الميمنة ينتظر اللحظة

(١) الخيفان الكثرة من الناس .

(٢) فتوح الشام / ٢٢٢ - ٢٢٣ ، وانظر تاريخ دمشق ٢/١٥١ - ١٥٢ .

المناسبة للهجوم الكاسح الذي يرجو أن يحسم به المعركة، وكان قد توقع حدوث بعض الخلل في جيش المسلمين لأنه يدرك ضخامة العبء الذي سيصب على المسلمين حيث سيواجه ثلاثة صفوف من المسلمين عشرين صفًا من الروم، فوضع خطته الحربية التي نوَّهنا عنها سابقًا، وقد حان له الآن تنفيذها، فهجم بخيله هجومًا قويًا شديدًا على جيش الروم من جانب ميسرتهم فقتل منهم في حملته تلك نحوًا من عشرة آلاف ودخل كثير منهم معسكر المسلمين مجرحين وهاربين من عنف الهجوم الكاسح، ولما قضى خالد على هجوم الروم ورفع الضغط عن المسلمين عاد يتتبع بفرسانه الروم الذين دخلوا معسكر المسلمين ، ثم جمع خيله ونادى فيهم وفي عموم الجيش : ياأهل الإسلام لم يبق عند القوم من الجلَد والقتال والقوة إلا ما قد ر أيتم، فالشدَّةَ الشدة ، فو الذي نفسي بيده ليعطينكم الله الظفر عليهم الساعة، إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم .

فجعل لايسمع هذا القول من خالد أحد من المسلمين إلا شجعه عليهم (١) .

وقد كان خالد جعل خلف الميسرة نصف الفرسان بقيادة قيس بن هبيرة حسب خطته السابقة وقد قام قيس بمثل الهجوم الذي قام به خالد في الميمنة، فإنه لما أحس بأن فرسان الروم قد فقدوا كثيرًا من طاقتهم واشتدت الوطأة على المسلمين هجم بفرسانه من جانب ميمنة

---

(١) فتوح الشام / ٢٢٥ – ٢٢٦ ، وانظر تاريخ دمشق ١٥٤/٢ .

الروم فقصف بعضهم على بعض كما فعل خالد وقتل منهم عدداً كبيراً(١) .

أما قلب الجيش الإسلامي فقد كان في مقدمته سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عم عمر بن الخطاب وأحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم أجمعين وقد كان أسداً في الحروب لايهاب الأهوال، ولهذا كان أبو عبيدة يختاره للمقدمة لتفوقه في الثبات أمام الأعداء، ومن ورائه شرحبيل بن حسنة، ثم أبو عبيدة في جماعة من المسلمين. وقد كان في مقابلهم من جيش الروم جبلة بن الأيهم في عرب الشام، والأرمن بقيادة جرجير فتوجهوا إليه كأمثال الجبال ولكن موجاتهم العاتية تحطمت أمام ثبات سعيد بن زيد ومن معه من الأبطال، فثبت قلب الجيش الإسلامي ولم يتزحزح، وكان من أهم عوامل ثباته وجود أبي عبيدة في كتيبة من وجوه المسلمين خلف القلب ، فكان من أوجعه حر القتال وفكر في أن ينهزم يستحي أن يمرَّ بأبي عبيدة وهو منهزم، وإن وجود أبي عبيدة خلف الجيش جزء من خطة خالد التي سبق ذكرها وقد تبينت نتائجها الحسنة في سير المعركة .

وفي الإشادة بجهود سعيد بن زيد يقول حبيب بن مسلمة: اضطُرِرنا يوم اليرموك إلى سعيد بن زيد ، فلله در سعيد، ماسعيد يومئذ إلا مثل الأسد،جثا والله على ركبتيه حتى إذا دنوا منه وثب في وجوههم مثل الليث فطعن برايته أول رجل من القوم فقتله، وأخذ والله يقاتل راجلا قتال الرجل الشجاع البأس فارسا (٢) .

---

(١) فتوح الشام / ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) فتوح الشام / ٢٢٨ ، وانظر تاريخ دمشق ٢/ ١٥٥ .

هذا وقد نجحت خطة خالد بالهجوم المباغت بفرسان المسلمين من جانبي جيش الروم ، فاستطاع بذلك أن يفصل بين مشاة الروم الذين مايزالون في مصافِّهم وبين فرسانهم الذين دخلوا في جيش المسلمين وخرج كثير منهم من الخلف .

وقد ساعد على نجاح هذه الخطة قلة كثافة الجيش الإسلامي فكان فرسان الروم يخترقونه بسرعة، ثم يهرب كثير منهم في الصحراء ، خاصة بعد هجوم فرسان المسلمين، والروم كغيرهم من الكفار ليس لديهم استعداد للتضحية بأنفسهم ، فإن أهم شيء عندهم وقاية أنفسهم من الخطر، وقد كانوا قبل هذه المعركة يفرون من أول لقاء مع المسلمين ، فجاءت تعليمات هرقل لباهان أن يختار للجيش مكانا واسع المُطَّرد ضيق المهرب، فاختار ذلك المكان المقفل من الجهات الثلاث بحيث لايمكن الهروب إلا باختراق جيش المسلمين، ونظراً لخبرة المسلمين بالروم فقد أفسحوا لهم المجال للهرب فكان من يخترق جيشهم لايرجع إلى قومه في الغالب فأصبح مشاة الروم بدون فرسان في مواجهة المسلمين، عند ذلك نهد خالد بالجيش كله للهجوم على جيش الأعداء وقد كان معظمهم من المشاة، وقد ابتدأ الهجوم من القلب حيث أمر عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو أن ينشبا القتال الشامل وكانا على مجنبتي القلب .

فأنشبا القتال وارتجز القعقاع وقال :

ياليتني ألقاك في الطِّراد قبل اعترام الجحفل الورّاد

وأنت في حلبتك الوِرادِ

وقال عكرمة :

قد علِمَتْ بَهْكَنَة الجواري   أنّي على مكرُمَة أُحامي (١)

وشد المسلمون عليهم جميعًا شَدَّة واحدة، وكان الأعداء في رعب شديد لما وقع لفرسانهم ، فكانت مقاومتهم ضعيفة جداً، حتى شبَّههم بعض الرواة بالحائط كما جاء في رواية للطبري « وأقبل خالد والمسلمون على الرَّجْل - يعني المشاة - ففضُّوهم فكأنما هُدم بهم حائط » (٢) .

ومازال المسلمون يقتلونهم وهم يتراجعون إلى الخلف، حتى اقتحموا خندقهم فاقتحمه المسلمون معهم ، ومازال المسلمون يقتلون منهم وهم يتراجعون إلى الخلف حيث يسيرون إلى مهلكهم، ذلك أن مكان المعركة يضيق شيئًا فشيئًا بين نهر الرقاد ونهر اليرموك حتى يلتقيان في الأخير ، واستمر المسلمون في قتالهم ودَفْعهم حتى أظلم الليل عليهم، والمسلمون يواصلون القتال، حيث لايمنعهم من ذلك ظلام الليل ولاطول جلاد، إلى أن تهافت الروم في هاوية سحيقة في نهر الرقاد، فسميت تلك الهاوية الواقوصة لأن الروم وُقصوا فيها، وقد هلك منهم في الواقوصة نحو مائة وعشرين ألفا، وقد كان اقترن منهم بالسلاسل ثمانون ألفا كل عشرة في سلسلة، فكانوا إذا هوى منهم واحد هوى أصحابه المقترنون معه، وقتل منهم في المعركة بعدما أدبروا نحو من خمسين ألفا (٣) .

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٩٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠٠ .

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠٠ ، فتوح الشام للأزدي / ٩٤ -٩٥ .

وهكذا عاد تخطيطهم أكبر وبال عليهم، فلما كانت نقطة الضعف البارزة لديهم هي الفرار عند اللقاء حاولوا تلافي ذلك باختيار هذا المكان الذي يصعب الفرار منه ، وقرنوا جنودهم بالسلاسل من أجل أن لايفروا ، فكان ذلك سببًا في هلاك هذا العدد الهائل منهم، وهكذا يجعل الله تخطيط الكافرين وبالا عليهم، ويهدي المسلمين إلى التخطيط الناجح المحطِّم لعدوهم، فله سبحانه الحمد والمنة .

وأخرج الأزدي من خبر حنظلة بن جُوَيَّة قال : واتبعهم خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، على الخيل، يقتلهم في كل واد وكل شعب، وفي كل جبل وفي كل ناحية ، فلم يزل يقتلهم حتى انتهى إلى دمشق.

فخرج إليه أهل دمشق فاستقبلوه ، وقالوا : نحن على عهدنا الذي كان بيننا وبينكم .

فقال خالد لهم : أنتم على عهدكم .

ثم اتبعهم خالد، فجعل يقتلهم في القرى والأودية، وفي الجبال والشعاب، والسهل والجبل، وفي كل وجه .

فلم يزل يقتلهم حتى انتهى إلى حمص .

فخرج إليه أهل حمص، فقالوا له مثل ماقال له أهل دمشق .

وقال لهم : نحن على ماكان بيننا وبينكم .

وأقبل أبو عبيدة على قتلى المسلمين، يرحمهم الله ، وجزاهم عن الإسلام وعن أهله خيرًا ، فدفنهم (١) .

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٣١ ، وانظر تاريخ دمشق ٢/١٥٨ - ١٥٩ .

هذا وإننا حينما نتصور انتصار هذه الفئة القليلة التي لاتتجاوز عُشر جيش عدو قد أقبل وهو مملوء بالغيظ والعداء ، وقد اكتسب خبرة كافية في قتال المسلمين ، وتعاهد كبراؤه على الموت في سبيل الدفاع عن مملكة الروم . .

إننا حينما نتصور انتصار هذه الفئة على هذا العدو الهائل يتملكنا العجب، وتهيمن علينا الحيرة ، فإن هذا الانتصار في مقاييس البشر أقرب إلى الاستحالة .

إن الذي يتصوره الذهن المجرد أن جيش الروم الهائل سيطْبق على جيش المسلمين من كل جهة ، وسيشلُّ حركتهم ويتركهم كأمس الذاهب.

ولكن الذي يمحو هذا التصور من أذهاننا، والذي محاه قبل ذلك من أذهان المسلمين آنذاك هو الإيمان الراسخ بأن المسلمين الصادقين ليسوا وحدهم في الميدان، وإنما هم موصولون بقوة الله العلي القدير، ومن كانوا كذلك فإنهم لايُغلبون أبدا حتى يقع منهم الإخلال بشيء من واجبهم مع الله تعالى .

وفي ذلك يقول خالد بن الوليد في حال المشورة قبل المعركة: «وإن كنا إنما نقاتلهم بالله ولله فما جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض أنها تغني عنهم شيئًا » .

وقد ثبت أن الله تعالى أمد أولياءه المؤمنين بالملائكة في أكثر من موطن، فقد أمدهم في بدر وحنين، واعتبر سبحانه الشرط اللازم لهذا الإمداد أن يتحلَّى المؤمنون بالتقوى والصبر كما جاء في قوله تعالى

﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥] .

وقد كان الصحابة مثلا أعلى في تقوى الله تعالى والصبر على حر القتال .

وإن هؤلاء الذين أمدهم الله تعالى في عهد النبوة بالملائكة قد حضر اليرموك منهم ألف صحابي منهم مائة من أهل بدر[1] وصحبهم من التابعين من كانوا على نية صادقة واحتساب، وإن الصحابة الذين أمدهم الله تعالى بالملائكة في بدر وحنين لم يفقدوا في حروبهم بعد ذلك إلا شخص النبي ﷺ، ولكنهم ظلوا بعده على العهد لم يبدّلوا ولم يغيروا، فحَرِيٌّ بهم وهم كذلك أن تنزل عليهم الملائكة لنصرهم.

تحديد تاريخ المعركة :

تعتبر معركة اليرموك كبرى معارك المسلمين، ومع كونها بهذا الحجم الكبير وأنها المعركة الفاصلة بين المسلمين والروم فقد اختلف المؤرخون في تاريخ حدوثها اختلافًا كبيراً، فنجد سيف بن عمر الضَّبي يؤرخ لهذه المعركة في شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر ويعتبرها أولى المعارك الكبرى في الشام ويعتمد ذلك ابن جرير الطبري، بينما نجد جمهور المؤرخين يعتبرونها في شهر رجب من العام الخامس عشر ويجعلونها آخر المعارك الكبرى في الشام، وممن قال بذلك ابن إسحاق والواقدي والأزدي وابن الكلبي والبلاذري وابن عساكر، وقد ذكر في ذلك تسعة أقوال، ثم قال: وهذه الأقوال هي

(١) البداية والنهاية ٧/٩ .

المحفوظة في تاريخ اليرموك ، وقد ذكر سيف بن عمر أنها كانت قبل فتح دمشق في أول خلافة عمر سنة ثلاث عشرة ، ولم يتابع على ذلك(١) .

وقال الإمام الذهبي : نزلت الروم اليرموك في رجب سنة خمس عشرة ، وقيل سنة ثلاث عشرة وأراه وهمًا (٢) .

ولاشك بأن قول الجمهور بأنها كانت في العام الخامس عشر أرجح للدلائل التالية :

١- أن كثيراً من التفاصيل التي مرّ ذكرها لاتنطبق على كون المعركة في العام الثالث عشر وفي أواخر حياة الصديق رضي الله عنه، ومن ذلك الرسائل المتبادلة بين أبي عبيدة وعمر رضي الله عنهما، فهذا يدل قطعًا على أنها كانت في خلافة عمر، والرسائل أكثرها كان قبل المعركة .

٢- أنه جاء في خطاب هرقل الذي خاطب به عظماء الروم بعد فتح المسلمين لحمص " وقد قاتلتموهم - يعني المسلمين - غير مرة بأجنادين وفحل ودمشق والأردن وفلسطين وحمص " فذكر معارك الشام الكبرى ولم يذكر اليرموك مع شهرتها مما يدل على أنها لم تحدث آنذاك .

٣- جاء في أحداث اليرموك أن باهان قائد الروم بعث إلى أبي عبيدة يقول له: أرسل إليّ الرجل منكم الذي كان قبلك أميرا - يعني خالد بن الوليد - وهذا لاينطبق على كون المعركة في شهر جمادى

---

(١) البداية والنهاية ٧ ، فتوح البلدان للبلاذري / ١٨٦ ، تاريخ دمشق ٢/ ١٤١-١٤٢ .

(٢) تاريخ الإسلام / الخلفاء الراشدون / ١٣٩ .

الآخرة من العام الثالث عشر لأن الأمير كان آنذاك أبا عبيدة ثم كان خالدا بتأمير أبي بكر لهما .

٤- جاء في حوار خالد مع باهان قبيل المعركة قوله " وقد علمتَ وبلغك ما أسأل وما أطلب وما أدعو إليه، وقد جاءك بذلك أصحابك ومن لقينا منكم بأجنادين ومرج الصفَّر وفحل ومدائنكم وحصونكم" .

فهذا دليل على تأخر معركة اليرموك عن هذه المعارك المذكورة وعن فتح المدائن التي من أبرزها دمشق وحمص .

٥- جاء في أحداث معركة فحل أن عكرمة بن أبي جهل حضرها وكان له دور بارز فيها وأنه حضر اليرموك وقتل فيها، فهذا دليل على تأخر معركة اليرموك عن معركة فحل .

٦- ذكر الإمام الطبري رواية عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال : « كنت في الجيش الذي مع خالد الذين أَمَدَّ بهم أبا عبيدة وهو محاصر دمشق . . . » (١) .

فهذا يدل على أن وصول خالد إلى الشام كان أثناء حصار المسلمين دمشق وليس في أثناء معركة اليرموك .

وحيث تبين لنا أن هذه المعركة هي آخر المعارك الكبرى في الشام فهي المعركة الفاصلة حيث لم يقم للروم بعدها قائمة في بلاد الشام، فقد كان ملك الروم مرابطا في أنطاكية ينتظر أخبار هذه المعركة ليقرر بعدها مواصلة القتال واستعادة ملك الشام إن كانت المعركة لهم أو الجلاء عن الشام إلى غير رجعة إن كانت عليهم .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/١١.

بلوغ هزيمة الروم ملك الروم :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي: وحدثني عبيد الله بن العباس قال : إن الهزيمة لما انتهت إلى ملك الروم، وهو بأنطاكية، فكان أول من جاءه رجل من المنهزمة ، فأخبره بهزيمة الروم، قال: قد كنت أعلم أنهم سيهزمونكم .

قال: فقال له بعض جلسائه : ومن أين علمت ذلك أيها الملك ؟

قال: من حيث أنهم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة، ويرغبون في الآخرة أشد من رغبتكم في الدنيا، فلا يزالون ظاهرين ماكانوا هكذا ، وليغيِّرنَّ كما غيَّرتم ، ولينقضُنَّ كما نقضتم .

وروى بإسناده عن عبد الله بن قرط الثمالي قال: فإنه - يعني ملك الروم - لكذالك إذ جاءه رجل عظيم من عظماء الروم، فقال له الملك: ماوراءك؟ قال الشرُّ هُزمنا .

قال: فما فعل أميركم باهان؟ قال : قُتل، قال: فلان وفلان وفلان، فسمى له عدداً من أمرائه وبطارقته وفرسان الروم، قال: قتلوا.

فقال له : ولكنك أنت والله أخبث وألأم وأكثر من أن تذُبَّ عن دين أو تقاتل عن دنيا .

ثم قال لشرطه : أنزلوه ، فأنزلوه ، فجاءوا به، فقال له: ألست أنت كنت أشد الناس عليَّ في أمر محمد نبيّ العرب حين جاءني كتابه ورسوله؟ وكنتُ قد أردت أن أجيبه إلى ما دعاني إليه، وأدخل في دينه، فكنتَ أنت من أشد الناس علي حتى تركت ماكنت أريد من

ذلك ، فهلاً قاتلتَ الآن قوم محمد وأصحابه دون سلطاني، وعلى قدر ماكنتُ لقيتُ منك إذ منعتني من الدخول في دينه ؟ اضربوا عنقه، فقدموه ، فضربوا عنقه .

ثم نادى في أصحابه بالرحيل إلى القسطنطينية راجعا، فلما خرج من أرض الشام وأشرف على أرض الروم استقبل الشام بوجهه فقال: السلام عليك ياسورية، سلام مودِّع، لايرى أنه يرجع إليك أبدا.

ثم أقبل على أرضه، فنظر إليها وقال: ويحك أرضا، ماأنفعك لعدوك لكثرة مافيك من العشب والخصب والخير [1] .

وهكذا كان هرقل مصدقًا بالإسلام بقلبه ويعلم أن رسول الله ﷺ هو النبي الذي بشر به أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، منذ وصل إليه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام ، وسأل عنه أبا سفيان وصحبه، وقد جمع عظماء الروم آنذاك ودعاهم إلى الإسلام فأبوا جميعًا إباءً شديدًا فأظهر لهم أنه إنما أراد أن يختبر دينهم كما تقدم .

لقد كان هرقل يريد أن يدخل في الإسلام هو وقومه ويبقى على ملكه، فلما كان الخيار بين الإسلام والملك اختار الملك ولم يسلم .

وكان موقنًا بانتصار المسلمين في كل حروبهم مع الروم، ولكنه كان مضطرًا لبعث الجيوش لقتالهم لأنه لم يكن يتصرف بإرادته وإنما كان يتصرف بإرادة زعماء دولته.

وقد ظهر غضبه - في هذا الخبر - من ذلك الزعيم الرومي الذي جاءه بخبر الهزيمة ، حيث تذكَّر أنه كان من أشد الذين وقفوا في

(١) فتوح الشام / ٢٣٤ - ٢٣٦ .

وجهه حين دعاهم للإسلام، فقتله بسبب ذلك مع عدم ثباته في الدفاع عن دينه الذي أظهر تصلُّبه في اتباعه .

رسالتان بين أبي عبيدة وعمر :

قال أبو إسماعيل الأزدي : وكتب - يعني أبا عبيدة - إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه، حين أظهره الله على أهل اليرموك، وخرج يطلبهم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أمير المؤمنين، من أبي عبيدة ابن الجراح، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد ، فالحمد لله الذي أهلك المشركين ونصر المسلمين، وقديما ماتولى الله أمرهم، وأظهر فَلجهم، وأعز دعوتهم، فتبارك الله رب العالمين ، أُخبر أمير المؤمنين، أكرمه الله أنا لقينا الروم، وهم في جموع لم تلق العرب مثلها جموعًا قط، فأتوا وهم يرون أن لاغالب لهم من الناس أحد ، فقاتلوا المسلمين قتالا شديداً، ماقوتل المسلمون مثله في موطن قط، ورزق الله المسلمين الصبر، وأنزل عليهم النصر، فقتلهم الله في كل قرية وكل شعب، وكل واد وجبل وسهل، وغنم المسلمون عسكرهم، وماكان فيه من أموالهم ومتاعهم، ثم إني أتبعتهم بالمسلمين حتى بلغت أقاصي بلاد الشام، وقد بعثت إلى أهل الشام عُمَّالي ، وقد بعثت إلى أهل إيلياء ، أدعوهم إلى الإسلام ، فإن قبلوا وإلا فليؤدوا إلينا الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا سرت إليهم حتى أنزل بهم ، ثم لا أزايلهم حتى يفتح الله على المسلمين ، إن شاء الله ، والسلام عليك .

فكتب إليه أمير المؤمنين عمر :

من عبد الله عـمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيـدة بن الجراح، سلام عليك ، فإني أحـمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعـد ، فقد أتاني كتابك، وفـهمت ماذكرت فيـه من إهلاك الله المشركين، ونصره المؤمنين، وماصنع الله لأوليـائه وأهل طاعته، فأحمـد الله على حسن صنيعه إلينا، وأستَتِمُّ الله ذلك بشكره[١] ، ثم اعلموا أنكم لم تظهروا على عدوكم بعدد ولا عدّة، ولاحول ولاقوة، ولكنه بعون الله ونصره ومنّه، وفضله ، فلله الطَّوْل والمنُّ والفضل العظيم، فتبارك الله أحسن الخالقين ، والحمد لله رب العالمين ، والسلام [٢] .

مواقف بطولية لبعض المسلمين :

في هذا العنوان أذكر مواقف بطوليـة لبعض المجاهدين مما لم يرد له ذكر أثناء الكلام على المعركة :

١- فمن ذلك موقف لعكرمة بن أبي جهل فقد قال ذلك اليوم : قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن وأفرُّ منكم اليوم ! ثم نادى : من يبايع على الموت ؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمـائة من وجوه المسلمين وفرسانـهم ، فقاتلوا قدَّام فـسطاط خالد حتى أُثبتوا جميعًا جراحا وقُتلوا إلا من برأ [٣] .

قال ابن كـثيـر : وقد ذكـر الواقدي وغـيره أنهم لما صـرعوا من

(١) أي اطلب تمام ذلك من الله تعالى بشكره .

(٢) فتوح الشام / ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٣) تاريخ الطبري ٣/٤٠١ .

الجراح استسقوا ماء فجيء إليهم بشربة ماء فلما قُرِّبَت إلى أحدهم نظر إليه الآخر فقال : ادفعها إليه ، فلما دُفعت إليه نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليه ، فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحد منهم رضي الله عنهم أجمعين (١) .

وقد مات عكرمة بعدما أبلى بلاء عظيمًا سواء في هذه المعركة أو ما سبقها من المعارك منذ أن دخل في الإسلام رضي الله عنه

٢- وكان لأبي سفيان دور كبير في تثبيت المسلمين وإثارة حماسهم وكان لكبر سنه لايقاتل ولكنه يدور على المسلمين ويثبتهم حتى مرَّ على ابنه يزيد فقال له: يابني عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفًا بقتال، فكيف بك وبأشباهك الذين وَلُوا أمور المسلمين ؟ أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يا بني ولايكونَنَّ أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدو الإسلام منك . فقال: أفعل إن شاء الله ، فقاتل يومئذ يزيد قتالا شديدًا .

وعن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتًا يكاد يملأ العسكر يقول : يانصر الله اقترب، الثباتَ الثباتَ يامعشر المسلمين ، قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد (٢) .

٣- وأخرج الأزدي من خبر سهل بن سعد قال: وأقبل يومئذ

(١) البداية والنهاية ٧/ ١٢ .

(٢) فتوح الشام / ٢٢٨، البداية والنهاية ٧/ ١٤، تاريخ دمشق٢/ ١٥٥، ١٥٧ .

عمرو بـن الطُّفيل بن ذي النور وهو يقول : يامعـشر الأزد ، لايؤتيَنَّ المسلمون من قبَلِكم ، وأخذ يضرب بسيفه متقدمًا عليهم، وقاتل قتالا شديداً ، وقَتَل من أشدائهم تسعة ، ثم قتل رحمه الله .

ونادى أبو هريرة ، يامبرور ، يامبرور ، فأطافت به الأزد (١) .

٤- أخرج أبو إسماعيل محمـد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الأعلى بن سُراقة قال: انتهيت إلى أبي هريرة يومئذ وهو يقول: تزينوا للحور العين ، وارغبوا في جوار ربكم في جنات النعيم، فما أنتم إلى ربكم في موطن من مواطن الخير أحب إليه منكم في هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم .

قال: وأطافت به الأزد ، ثم اضطربوا هم والروم، فو الذي لا إله إلا هو لرأينا الروم وإنها لتدور بهم الأرض وهم في مـجال واحد كما تدور الرَّحا، فمـا برحوا ولازالوا ، وركبهم من الروم أمثـال الجبال، فما رأيت موطنا قطّ أكثـر قحفًا ساقطا(٢) ، أو معصمـا نادرا، أو كفًا طائحة من ذلك الموطن ، وقد والله أوحلناهم شراً وأوحلونا (٣).

٥- أخرج أبو إسـماعـيل محـمد بن عـبد الله الأزدي من خـبر حنظلة بن جُوَيَّة قال: والله إني لفي الميـسرة إذ مرّ بنا رجال من الروم على خيل العـرب، لايشبهـون الروم وهم أشبه شيء بنا، فـما أنسى قول قائل منهم : يامـعشر العرب الحقـوا بوادي القرى ويثرب ، وهو

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٤.

(٢) القحف العظم الذي فوق الدماغ .

(٣) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٤ - ٢٢٥، تاريخ دمشق ٢/١٥٣ .

يقول :

فِي كُـلِّ حِـينٍ فِئَةٌ تُـغِيرُ ... نَحْنُ لَنَا الْبَلْـقَاءُ والسَّدِيرُ
هَيْهَاتَ يَأْبَى ذَلِـكَ الأَمِيرُ ... والملك الْمُـتَوَّجُ الْمَخْبَورُ

قال : وأحـمل عليـه ، وحمل عليّ ، واضطربنا بسـيفـينا، فلم يغننا شيئًا .

قال : ثم إني اعتنقتـه فخررنا جمْيعا ، فاعـتركنا ساعة ، ثم إنا تحاجزنا ساعة .

قال : فنظرت إلى عنقـه وقد بدا منه مثل شراك النعل، فـمشيت إليه، واعتهدت ذلك الموضع بسيـفي ، فو الله ماأخطأته ، فقطعته ، وصرع ، فضربته حتى قتلته، وأقبلت إلى فرسي وقد كان عار[1] وإذا قومي قد حبسوه علي، فأقبلت حتى ركبته [2].

٦ – قال حنظلة بن جوية في هذه الرواية : وقاتل قبَاث بن أشيم يومئذ قتالا شديدًا ،وكسر في ذلك اليوم ثلاثة أرماح ، وقطع سيفين، وأخذ يقول كلما قطع سيفًـا أو كسر رمحًا : من يعين بسيف أو برمح في سبـيل الله رجلا قد حبس نفـسه مع أولياء الله ، وقـد عاهد الله لايفر ولايبـرح، يقاتل المشـركين حتى يُظهـر الله المسلمين أو يموت. وكان من أحسن الناس بلاء يومئذ [3] .

(١) أي لم يبق على ظهره شيء .

(٢) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٧.

(٣) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٧ – ٢٢٨ ، تاريخ دمشق ٢/ ١٥٥ .

٧- أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر حبيب بن مسلمة قال: وشد على عمرو بن العاص جماعة من الروم، فانكشف عنه أصحابه، وثبت عمرو، فجالدهم طويلا، وقاتلهم قتالا شديداً، ثم إن أصحابه تراجعوا إليه ، فلسَمِعْتُ أم حبيبة ابنة العاص وإنها لتقول : قبح الله رجلا يفر عن حليلته، وقبح الله رجلا يفر عن كريمته (١) .

وهذا موقف يذكر لعمرو بن العاص في الشجاعة والثبات وإن كانت شهرته في الدهاء والسياسة ، وكون الرجل يجمع بين الشجاعة والرأي من صفات الكمال في الرجال .

٨- قال حبيب بن مسلمة في هذه الرواية : وقاتل شرحبيل بن حسنة في رُبعه الذي كان فيه قتالا شديداً ، وكان وسطًا من الناس، إلى جانب سعيد بن زيد، وجعل ينادي ، ويقول :﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا** ﴾ إلى آخر الآية(٢).

ثم يقول: أين الشارون أنفسهم ابتغاء مرضاته أين المشتاقون إلى جوار الله في داره ؟

فاجتمع إليه ناس كثير، وبقي القلب لم ينكشف فيه أهله الذين كانوا فيه مع سعيد بن زيد .

وكان أبو عبيدة من وراء ظهور المسلمين ردءاً لهم (٣) .

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٩ ،وانظر تاريخ دمشق ٢/١٥٦ .

(٢) سورة التوبة / ١١١ .

(٣) فتوح الشام للأزدي /٢٢٩، تاريخ دمشق ٢/١٥٦ .

٩- قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي : وحدثني أبو عبد الله بن الحسين، أن الأشتر[1] كان من جلداء الرجال ومن أشدائهم وأهل القوة منهم والنجدة . وأنه قَتل يوم اليرموك قبل أن ينهزموا أحد عشر رجلا من بطارقتهم ، وقتل ثلاثة منهم مبارزة .

وأقبل الأشتر مع خالد بن الوليد حين طلب الروم وحين انهزموا، فلما بلغوا ثَنِيَّة العُقاب من أرض دمشق، وهو يهبط الهابط منها من قِبَل حمص، فيقع في الغوطة، غوطة دمشق، وعلى ثنية العقاب جماعة عظيمة من الروم ، فلما انتهوا إلى تلك الجماعة من الروم يرمون المسلمين من فوقهم ، فتقدم إليهم الأشتر في رجال من المسلمين ، وإذا أمام الروم رجل من عظمائهم وأشدائهم، وهو عظيم جسيم، فمضى إليه الأشتر فلما دنا منه وثب الأشتر ، فاستوى هو والرومي على صخرة مستوية، فاضطربا بسيفيهما، فضرب كف الرومي، فأطار كفه، وضرب الرومي الأشتر بسيفه، فلم يضره شيئًا، واعتنق كل منهما صاحبه، ثم دافعه الأشتر من فوق الصخرة، فوقعا عنها، ثم تدحرجا، فأخذ الأشتر يقول وهو في ذلك ملازم العلج لايتركه وهما يتدحرجان : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

فلم يزل يقول ذلك حتى انتهى إلى موضع مستوٍ من الجبل

---

(١) هو مالك بن الحارث النخعي .

(٢) الأنعام / ١٦٢ - ١٦٣.

وقرار، فلما استقرا جميعًا وثب الأشتر على الرومي، فقتله، ثم صاح في الناس : أن جوزوا ، فجار الناس .

فلما رأت الروم ذلك ، وأن صاحبهم قد قتله الأشتر خلوا سبيل العقبة للناس ، ثم انهزموا (١) .

وهكذا استطاع الأشتر أن يفتح الطريق للمسلمين بقتل عظيم الروم الذي كانوا يتقون به ، وهو مثل من أمثلة الشجاعة الفذة والإقدام المندفع ، حيث ينسى المغامر نفسه وحياته في سبيل خدمة المثل العليا التي يؤمن بها .

١٠- أما نساء المسلمين فكان لهن عمل مهم أثناء القتال حيث قمن بتأنيب المتراجعين إلى الوراء وتثبيتهم ، فإنهم لما انكشف بعض المسلمين من الميمنة والميسرة استقبلتهم النساء ومعهن عمد الخيام والحجارة حتى رددنَهم إلى المعسكر .

وصاحت نسوة من المسلمين يقلن : قاتلوا أيها المسلمون فلستم ببعولتنا إن لم تمنعونا، فكان لذلك أثر في تراجع المنكشفين إلى مواقفهم .

وكان لبعضهن مشاركة في قتال من اقترب منهن من الكفار (٢).

كما جاء عن إبراهيم النخعي رحمه الله حينما سئل عن جهاد النساء قال: كنَّ يشهدن مع رسول الله ﷺ فيداوين الجرحى ويسقين المقاتلة ، ولم أسمع معه بامرأة قتلت ، وقد قاتلن نساءُ قريش يوم

---

(١) فتوح الشام / ٢٣٣ - ٢٣٤ ، وانظر تاريخ دمشق ١٥٨/٢ .

(٢) فتوح الشام للأزدي /٢٢٩، البداية والنهاية ١١/٧، تاريخ دمشق ٢/ ١٥٤ .

اليرموك حين رهقهم جموع الروم حتى خالطوا عسكر المسلمين ، فضرب النساء يومئذ بالسيوف في خلافة عمر رضي الله عنه [١].

هذا إضافة إلى مهمتهن المعروفة دائمًا من سقي الجرحى وتضميد جراحهم .

فهذه المواقف وأمثالها مما مر علينا في الكلام على هذه المعركة تبين لنا عظمة المسلمين وتفوقهم في الحياة الجهادية لأنهم جعلوا الجهاد هو قضيتهم الكبرى ، فبرعوا فيه وفاقوا أبطال الأمم الذين يُعَدُّ الواحد منهم عن ألف مقاتل ، حتى أصبح الرعب منهم يسبقهم في كل موطن فيزلزل أقدام أعدائهم ، ويهيئهم للهزيمة والفشل .

وإن ماقامت به النساء المؤمنات من تثبيت المجاهدين وتقريع المنهزمين يعتبر جهداً عاليًا كان له دور جيد في تماسك المؤمنين وثباتهم .

وإن ماقامت به بعضهن من المشاركة في القتال دفاعًا عن أنفسهن يعتبر تضحية عالية وإسهامًا جيدًا في تخفيف العبء عن الرجال .

ولقد أدرك الأعداء الذين اخترقوا صفوف المؤمنين أنه ليس من السهل الاستيلاء على نساء المسلمين لأن كل واحدة منهن تُفَضِّل أن تُقتَل عن أن تقع أسيرة بيد الأعداء .

* * *

(١) مصنف عبد الرزاق ٥/٢٩٨، رقم ٩٦٧٣ .

مواقف وعبر
فى فتوحات الشام
(ما بعد اليرموك)

عاد أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بعد« اليرموك » إلى توزيع الجيوش الإسلامية في الشام حسب توجيه أبي بكر رضي الله عنه، فأمَّر على دمشق يزيد بن أبي سفيان وأمره بأن يستكمل فتح القرى التابعة لها، وأمَّر على الأردن شرحبيل بن حسنة وأمره بفتح القرى التابعة له، وأمَّر على فلسطين عمرو بن العاص وأمره أن يفتح بيت المقدس وسائر قراها، وسار هو إلى حمص وبرفقته خالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين .

وقد قام يزيد بن أبي سفيان بفتح بيروت وصيدا وبعض قرى الساحل وكان على مقدمته أخوه معاوية، وقد تولى معاوية فتح بعض القرى والحصون بتوجيه من أخيه يزيد [1] .

* * *

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ١٧٣ .

١ - فتح قِنَّسرين -

كان شمال الشام تابعًا لمدينة حمص حسب تقسيم الصحابة رضي الله عنهم في تقسيم الشام على أمراء الجهاد .

وقد ذكر الإمـام الطبري في رواية له أن أبا عبيـدة وجَّه خالد بن الوليد رضي الله عنهما لفتح قنسـرين ، فلقى حولها جمعًا من الروم والعرب بقيادة « ميناس» وهو رأس الروم وأعـظمهم بعد هرقل، فقُتِل ميناس ومن معـه مقتلة لم يقتلوا مـثلها، فأما الروم فـماتوا على دمه حتى لم يبق منهم أحد، وأما العرب فأرسَلوا إلى خالد يخبرونه بأنهم عرب وأنهم إنما حُشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم.

وسار خـالد إلى قنَّسرين فتـحصنوا منه فقـال: إنكم لو كنتم في السحاب لحملَنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا .

وهذه كلمة عظيمة تدل على ثقته البالغة بنصر الله تعالى كما أنها تحمل في طيَّاتها إظهار عزِّ الإسلام وتمكن دولته وسلطانه .

قال : فنظروا في أمرهم وذكروا مالقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص، فأبى إلا على إخراب المدينة فأخربها (١).

قال : ولما بلغ عمر ذلك قال: أمَّر خالد نفسه، يرحم الله أبا بكر هو كان أعـلم بالرجال مني، وقـد كان عزله هـو والمثنى مع قيـامه - يعني بأمـر الخلافة - وقـال: إني لم أعزلهـما عن ريبـة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما (٢) .

(١) يعني أخرب حصونها الحربية .

(٢) تاريخ الطبري ٣/٦٠١ .

هكذا ذكر هذا القول بعد « قنسرين » ولم يكن خالد في هذه المعركة قد أمّر نفسه وإنما ولاه أبو عبيدة ، ولم يظهر منه عمل كبير يلفت النظر بالنسبة إلى أعماله الحربية السابقة، وإنما أمّر نفسه في معركة « اليرموك» كما سبق حيث قال لأبي عبيدة « ولّني ماوراء بابك فأنا أكفيك بإذن الله أمر هذا العدو » ، وقد ظهر منه من البراعة في القيادة والقوة في تحمل المسئولية وبذل الطاقة العظيمة في معركة اليرموك مايبهر الأبصار ويستجيش البصائر .

فإذا ثبت أن عمر رضي الله عنه قال هذا القول عقب معركة قنسرين فإنما يريد بالدرجة الأولى ماقام به في اليرموك لقرب الزمن بين المعركتين وانطباق كلامه على ماجرى من خالد في اليرموك .

وإن هذا الثناء البالغ من عمر على خالد ليدلنا على عظمة شخصية عمر وتجرده الواضح من حظ النفس، فقد سبق له أن عزل خالدا وهو في أوج عزّه، لَما تبدى له من المصلحة العامة في ذلك آنذاك، وتحمّل ماقد يواجهه من لوم الناس في ذلك، فكان الوضع المعروف لدى أكثرية الناس في هذا المجال أن يغضّ الطرف عن محاسن من كان له رأي فيه يخالف الأغلبية إن لم يُغَطِّ على محاسنه ويحولها إلى مساوئ كما يفعل بعض الناس، أما عمر الرجل العظيم الذي يهين نفسه من أجل أن تسود المكارم والمعالي فإنه لم يهضم أبا سليمان حقه وحاشاه أن يفعل ذلك .

* * *

٢ - فتح حلب وأنطاكية -

ذكر البلاذري في رواية له أن أبا عبيدة رحل إلى حلب وعلى مقدمته عياض بن غَنْم، فوجد أهلها قد تحصنوا، فنزل عليها، فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها، فأُعطوا ذلك، فاستثنى عليهم موضع المسجد ، وكان الذي صالحهم عليه عياض، فأنفذ أبو عبيدة صلحه .

وسار أبو عبيدة إلى أنطاكية وقد تحصن بها خلق من أهل جند قنسرين، فلما صار بقرية مهروبة وهي على فرسخين من مدينة أنطاكية لقيه جمع للعدو ففضّهم وألجأهم إلى المدينة ، وحاصر أهلها من جميع جوانبها ثم إنهم صالحوه على الجزية والجلاء، فجلا بعضهم وأقام بعضهم (١) .

وهكذا تم فتح هتين المدينتين بهذه السرعة نظراً لقوة المسلمين، واعتباراً بما حصل لمدينتي دمشق وحمص، وبهذا نعلم ضرورة وجود دولة الإسلام القوية في كل زمن لأن وجودها يُخضع أعداءها لها بسلاح الرعب من غير أن يكون قتال ، وهذا يوفر قوة جيش المسلمين لاستخدامها عند الحاجة .

* * *

(١) فتوح البلدان / ١٩٩ - ٢٠٠ .

٣ - فتح اللاذقية -

أخـرج البـلاذري بإسناده عن مـشـايخ من أهل حـمص قـالوا: استخلف أبو عبيدة عبادة بن الصامت الأنصاري على حمص، فأتى[١] اللاذقية فـقاتله أهلها، فكان بهـا باب عظيم لايفتحه إلا جـماعة من الناس ، فلما رأى صعوبة مُرامـها عسكر على بُعدٍ من المدينة، ثم أمر أن تُحفـر حفائر كالأسـراب يستتـر الرجل وفرسه في الواحـدة منها، فاجتهد المسلمون في حفرها حتى فرغوا منها ، ثم إنهم أظهروا القفول إلى حمص، فلما جنَّ عليهم الليل عـادوا إلى معسكرهم وحفائرهم، وأهل اللاذقيـة غارُّون، يرون أنهم قد انصـرفوا عنهم، فلما أصبـحوا فتحوا بابهم وأخرجوا سرحهم، فلم يَرُعْهم إلا تصبيح المسلمين إياهم ودخولهم من بـاب المدينة ، ففُتـحت عنوة، ودخل عبـادة الحصن ثم علا حائطه فكبَّر عليه، وهرب قوم من نصارى اللاذقية إلى«اليُسَيْد» ثم طلبوا الأمـان على أن يتراجـعوا إلى أرضهم، فـقوطعـوا على خراج يؤدونه قلُّوا أو كثروا ، وتُركت لهم كنيستهم، وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً بأمر عبادة، ثم إنه وُسِّع بعدُ [٢] .

هذا وإن في هذا الخبر مـوقفًا حربيًا يذكـر لعبادة رضي الله عنه، وفيه لون جـديد من ألوان التخطيط الحربي القـائم على المكر بالأعداء باجتلاب شعورهم بالأمن ثم اغـتنام غفلتهم والإيقاع بهم، والمسلمون في حروبهم يحبون المبارزة بالحرب التي يتواجه فيها الأقران وتبرز فيها

---

(١) يعني عبادة بن الصامت .

(٢) فتوح البلدان / ١٨٠ - ١٨١ .

شجاعة الشجعان ، ولكن حينما يتحصن منهم الأعداء بالأسوار والأبواب المحكمة فإنهم يلجئون إلى استعمال الحيل وتصيُّد غفلات الأعداء حتى يهتكوا حصونهم ويقابلوهم وجهًا لوجه، وقلَّما يصمد لهم أعداؤهم .

* * *

٤ – فتح قَيسارِيَّة (١) –

ظلت قيسارية ممتنعة من المسلمين نحوا من سبع سنين، وكان عمرو بن العاص يحاصرها ثم يتركها لينضم إلى جيوش المسلمين في معاركهم الكبرى .

وحينما ولّى أمير المومنين عمر معاوية على جزء من الشام أمره بالمسير إليها، وجاء في كتابه له : أما بعد فإني قد وليتك قيسارية فسر إليها واستنصر الله عليهم وأكثر من قول لا حول ولاقوة إلا بالله، الله ربنا ورجاؤنا ومولانا ، نعم المولى ونعم النصير .

فسار معاوية إليها في سبعة عشر ألف من الجنود وعلى قيسارية أمير يسمى « أبنى » ، فخرجوا إلى جيش معاوية فقاتلوه فهزمهم عدة مرات، ثم إنهم خرجوا بجمع كبير فاقتتلوا في حفيظة واستماتة فانهزموا وقُتل منهم في المعركة ثمانون ألفًا وعشرون ألفًا في حال هزيمتهم .

وكان فتحها في العام التاسع عشر للهجرة .

وجعل معاوية يحبس الأسرى عنده ويقول : ماصنع ميخائيل بأسرانا صنعنا بأسراهم مثله، ففَطَمه عن العبث بأسرى المسلمين حتى افتتحها .

ووجَّه معاوية بالفتح إلى أمير المؤمنين عمر مع رجلين من«جذام» ثم خاف ضعفهما عن المسير فوجَّه رجلاً من خثعم ، فكان الخثعمي يُجهد نفسه في السير والسُّرَى وهو يقول :

(١) مدينة في فلسطين على ساحل البحر بين حيفا ويافا .

أَرَّقَ عَيْنِي أخَوَا جِذام أُخَيٌّ جُشْم وأخو حرام

كيف أنام وهما أمامي إذ يرحلان والهجير طامي

فسبقهما ودخل على عمر فكبَّر عمر وكبر المسلمون [1] .

وهكذا تم فتح هذه البلدة التي استعصت على المسلمين عدة سنوات لمناعة أسوارها ، ولأن الروم وضعوا ثقلهم فيها حينما أفلت الشام من أيديهم ، وقد لجأ إليها كثير ممن فر من معارك المسلمين مع الروم في الشام .

وإن كثافة عدد القتلى ليدلنا على كثرة من كان فيها من المحاربين.

ولقد كان فتح هذه البلدة من مآثر معاوية رضي الله عنه، كما أننا نلمح في هذا الخبر مثلين مما كان يتصف به معاوية من الحزم والدهاء : الأول في حبس أسرى الأعداء عنده حتى يضمن سلامة أسرى المسلمين، والثاني في إرساله رسولا ثالثًا يخبر بالفتح وعدم اكتفائه بالرسولين السابقين وإشعار الأخير بذلك مما جعله ينافس الرسولين السابقين ويصل قبلهما .

* * *

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ١٩١ - ١٩٤ ، تاريخ الطبري ٣/ ٦٠٤ باختصار .

٥ - فتح بيت المقدس -

وَجدَ عـمرو بن العاص نفـسه بين قوتين، قـوة ترابط داخل بيت المقدس، وقوة قد تحصنت بأجنادين، وذلك كله تحت قيادة «الأرطبون» وكان أدهى الروم وأبعدها غورا، وأنكاهـا فعلا، وقد رابط بأجنادين، وبعث عـمرو جيـشا لحـصار بيت المقـدس بقيـادة علقمـة بن حكيم الفراسي ومسروق بن فلان العكي، وبعث أبا أيوب المالكي إلى الرملة وكان بها جـيش تابع للأرطبون، ولما أمن عمرو على جـيشه من هذه القوات توجه إلى القوة الكبرى في أجنادين .

ذكر ذلك ابن جرير الطبري رحمه الله ثم قال : وأقام عمرو على أجنادين لايقدر من الأرطـبون على سقطة، ولاتشـفيه الرسل، فـوليَه بنفسه، فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه مايريد وسمع كلامه، وتأمل حصونه حتى عرف ماأراد .

وقال أرطبـون في نفسه : والله إن هذا لعمـرو أو إنه للذي يأخذ عمرو برأيه ، وماكنت لأصيب القـوم بأمر أعظم عليهم من قتله، ثم دعا حرسيـا فسارَّه بقتله، فقال: اخرج فقم مكان كـذا وكذا، فإذا مر بك فاقتله، وفطن له عمرو، فقـال: قد سمعت مني وسمعت منك، فأما ما قلتـه فقد وقع مني موقعا، وأنا واحد من عشـرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويُشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن فـإن رأوا في الذي عـرضتَ مـثل الذي أرى فـقـد رآه أهل العـسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مـأمنهم، وكنت على رأس أمرك، فقال: نعم.

ودعا رجلا فسارَّه، وقـال: اذهب إلى فلان فردَّه إليّ، فرجع إليه الرجل، وقال لعمرو: انطلق فجيء بأصحابك، فخرج عمرو ورأى أن لايعود لمثلها، وعلم الرومي بأنه قد خدعه فقال: خدعني الرجل، هذا أدهى الخلق، فبلغَتْ عمر فقال: غلبه عمرو، لله عمرو [1].

لقد كـان عمـر بن الخطاب قال حـينما علم بمواجـهة عـمرو بن العـاص لأرطبون الروم : قـد رمـينا أرطبون الـروم بأرطبون العـرب فانظروا عَمَّ تنفرج. وقد انفرجت عن استخدام ذكي من عمرو لما وهبه الله من الدهاء، عـرف به مداخل الـعدو ومـخارجـه ومواطن قـوته وضعفه.

وكان أرطبـون الروم من الدهاء بحيث عـرف أن عمرًا وقـد جاء على هيئة رسول ليس رجلا عاديا بل هو رجل يحـمل همًّا كبيرًا وقد هيمن على نفـسه فجعله يستـعمل كل طاقته في التـعرف على المواقع والرجال والسلاح وكل مـايتعلق بالحرب ولم يكن مجـرد رسول لقائد الجيش يؤدِّي الرسالة وهو غافل عن استكشاف قوة العدو وخفاياه .

وكان عمـرو بارعًا في دهائه حينما أدرك مـاأراده به الأرطبون من قراءة ذلـك في وجهـه وماقـام به من تصرف يوحي بإرادة الغـدر به، فابتكر بسرعة هذه الحيلة التي استطاع بها أن يتخلص منه، ولاشك أن عمـرًا كان أدهى منه، لأن أرطبون الروم لـم يستطع إخفـاء ماأراد في ضميره بل ظهر ذلك على وجهه حتى أدرك ذلك عمرو، بينما استطاع عمرو أن يعرض خدعته ببـساطة وكان أملك لأعصابه مع أنه كان في

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦٠٥ .

مقام الخوف، ومن المعلوم أن الخوف يظهر في آثار منها اصفرار الوجه وتلعثم اللسان، لكن عمرًا لم يبد على وجهه أيٌّ تغير ولم يفقد شيئا من رباطة الجأش وفصاحة اللسان، حتى خفي أمره تمامًا على أرطبون الروم، وطمع في إفناء عشرة من مفكري المسلمين بدلا من واحد .

ألا ماأحوج المسلمين اليوم إلى ممثلين لهم بذكاء عمرو ودهائه، خاصة وأن معركة المسلمين مع أعدائهم أصبحت في هذا الزمن تعتمد في أكثر مراحلها على التفوق الفكري، ولطالما استفاد القادة المسلمون من العباقرة في تذليل الصعوبات وحل المشكلات وإخضاع الأعداء للخطط التي يريدونها، ولطالما جنّبوا أممهم تضحيات كبيرة في الأنفس والأموال بسلوك الخطط التي يرسمها العباقرة وتوجيه أذكيائهم ووجهائهم للتفاوض مع الأعداء .

أما عمرو بن العاص فإنه وقد أفلت من قبضة الأرطبون قد استفاد من رؤية معسكر الأعداء ، فأصبح أجرأ على حربهم وقد عرف مكامن ضعفهم وقوتهم فالتقوا اللقاء الأخير الذي انهزم به الأعداء، وقد لجأ الأرطبون مع من بقي من جيشه إلى القدس ، واستطاع دخولها والتحصن بها .

أبو عبيدة إلى القدس :

بعد أن أكمل أبو عبيدة تطهير شمال الشام بمساعدة خالد بن الوليد توجه بجيشه إلى القدس التي استعصى فتحها على عمرو بن العاص.

قال محمد بن عبد الله الأزدي في رواية له : فنادى بالرحيل إلى

إيلياء ، وقدَّم خالد بن الوليد على مقدمته بين يديه، وأقبل يسير حتى انتهى إلى حمص، فبعث على حمص حبيب بن مَسْلَمة القُرشي، وأرض قنسرين إذ ذاك مجموعة إلى صاحب حمص، وإنما سميت حمص الجند المقدّم ، لأنها كانت أدناها من الروم ومن دمشق ومن الأردن وفلسطين ، وهن كلهن وراءها .

ثم خرج من حمص ومن دمشق ، فولاًها سعيد بن زيد بن عمرو ابن نُفَيل، ثم خرج حتى مَرَّ بالأردن، فنزلها ، فعسكر بها، وبعث إلى أهل إيلياء الرسل، وقال: اخرُجوا إليّ أكتب لكم الأمان على أنفسكم وأموالكم ، ونَفِ لكم كما وفينا لغيركم . فتثاقلوا وأبَوْا.

قال: فكتب أبو عبيدة إليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله العظيم ورسوله، أما بعد ، فإنا ندعوكم إلى شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، فإذا شهدتم بذلك حرمت علينا دماؤكم وأموالكم، وكنتم إخواننا في ديننا ، وإن أبيتم فأقِرُّوا لنا باعطاء الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإن أبيتم سرت إليكم بقوم هم أشد حبا للموت منكم للحياة ولشرب الخمر وأكل الخنزير ، ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله حتى أقتل مقاتلتكم، وأسبي ذراريكم (١) .

وهذا كتاب قوي شرح فيه أبو عبيدة دعوة الإسلام، ودعا أهل

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٤٢ - ٢٤٣ .

بيت المقدس إلى الدخول فيه بالترغيب أولا ثم بالترهيب ثانيا، وليس أعظم في الترغيب من أن يكونوا إخوانا للمسلمين إذا أسلموا ، لهم مالهم وعليهم ماعليهم ، وليس أبلغ في الترهيب من التهديد بالغزو برجال هم أحب للموت من أعدائهم للحياة !

قال: ثم إن أبا عبيدة انتظر أهل إيلياء ، فأبوا أن يأتوه ولايصالحوه، فأقبل إليهم حتى نزل بهم، فحاصرهم حصاراً شديداً، وضيق عليهم من كل جانب، فخرجوا إليه ذات يوم، فقاتلوا المسلمين ساعة، ثم إن المسلمين شدوا عليهم من كل جانب ، فقاتلوهم ساعة، ثم انهزموا فدخلوا حصنهم، فكان الذي ولى قتالهم خالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، كل واحد منهما في جانب .

فبلغ ذلك سعيد بن زيد وهو على دمشق ، فكتب إلى أبي عبيدة،رضي الله عنه ورحمه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من سعيد بن زيد إلى أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فلعمري ماكنت لأوثرك وأصحابك بالجهاد في سبيل الله على نفسي، وعلى مايقربني من مرضاة ربي عز وجل ، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث إلى عملك من هو أرغب فيه مني، فليعمل لك عليه مابدا لك ، فإني قادم عليك وشيكا، إن شاء الله ، والسلام .

قال :فلما وصل كتابه إلى أبي عبيدة قال ، أشهد ليفعلنّها .

فقال ليزيد بن أبي سفيان : اكفني دمشق ، فوجهه إليها، فسار يزيد إليها ، فوليها [1].

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٤٤ - ٢٤٦ .

قال : فلما حضر أبو عبيدة أهل إيلياء ورأوا أنه غير مقلع عنهم وظنوا أنه لاطاقة لهم بحربه قالوا له : نحن نصالحك قال: فإني أقبل منكم الصلح .

قالوا : فأرسل إلى خليفتكم عمر، فيكون هو الذي يعطينا العهد، وهو يصالحنا ، ويكتب لنا الأمان (١) .

فقبل ذلك أبو عبيدة منهم ، وهمّ بالكتاب، وكان أبو عبيدة قد بعث معاذ بن جبل على الأُرْدُنّ، وكان معاذ لايفارق أبا عبيدة لرغبته في الجهاد، وكان أبو عبيدة لايكاد يقطع أمراً دون رأي معاذ، فأرسل إلى معاذ . فلما قدم عليه أخبره بما سأله القوم .

فقال له معاذ : تكتب إلى أمير المؤمنين ، وتسأله القدوم عليك فلعله يقدم عليك ، ثم يأبى هؤلاء الصلح، فيكون مسيره عناء وفضلا، فلا تكتب له حتى توثق هؤلاء وتستحلفهم بأيمانهم المغلظة، لئن أنت سألت أمير المؤمنين القدوم عليهم، وكتبت إليه بذلك فقدم عليهم، فأعطاهم الأمان، وكتب لهم كتابا على الصلح لَيَقْبَلُنّ ذلك ويصالحوا عليه .

فأخذ عليهم أبو عبيدة الأيمان المغلظة ، فحلفوا بأيمانهم، لئن عُمَرُ أمير المؤمنين قدم عليهم ، ونزل بهم ، فأعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وكتب على ذلك كتابا ليقبلُنّ ذلك وليؤدُّنّ الجزية، وليدخلُنّ فيما دخل فيه أهل الشام .

---

(١) وإنما طلبوا ذلك لأن في كتبهم المقدسة أن الذي يفتح بيت المقدس هو عمر ، وقد ذكر باسمه وصفاته كما سيأتي مايفيد ذلك .

فلما فعلوا ذلك كتب أبو عبيـدة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بسم الله الرحمن الرحـيم . لعبد الله عمر أمـير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعـد فإنا أقمنا على إيليـاء ، وظنوا أن لهم في المطاولة بهم فرجا ورجاء ، فم يزدهم الله بها إلا ضـيقًا ونقصًا وهزلا وأزلا ، فلما رأوا ذلك سألونا أن نعطيهم ماكـانوا به ممتنعين قبل ذلك وله كارهين. وانهم سـألوا الصلح على أن يَقْدَم عـليهم أمـير المؤمنين، فـيكون هو المؤمِّن لهم والكاتب لهم كتابا، وإنا خشـينا أن يقدم أمير المؤمنين، ثم يغدر القوم فيرجعـون، فيكون سيرك - أصلحك الله - عناء وفضلا، فـأخذنا عـليهم المواثيـق المغلظة بأيمانهم ، لئن أنت قـدمت عليـهم، فأمَّنتهم على أنفسهم وأموالهم ليقبلُنَّ ذلك، وليؤدُّنَّ الجزية، وليدخلُنَّ فيما دخـل فيه أهل الذمة، ففعلوا وأخـذنا عليهم الأيمان بذلك، فإن رأيت يا أمـير المؤمنين أن تـقدم علينا فـافـعل، فإن في سـيرك أجـراً وسلاما، وعافية للمسلمين، أراك الله مرشدك، ويسر أمرك، والسلام عليك .

فلما اتى عمر ، رضي الله عنه كـتابه جمع رءوس المسلمين إليه، فقرأ عليـهم كتاب أبي عبيـدة إليه، واستشارهـم بالذي كتب إليه أبو عبيدة.

فـقال له عـثمـان بن عفـان : أصلحك الله ، إن الله قـد أذلَّهم وحصرهم وضيق عليهم، وأراهم ماصنع بجموعهم وملوكهم ، وقتل من صناديدهم، وفتح على المسلمين بلادهم، فهم في كل يوم يزدادون

هزلا وأزْلا - قال: والأزل شدة العيش - وذلا ونقصا، وضيقًا وَرغْما، فإن أنت أقمت ولم تسر إليهم علموا أنك بهم وبأمرهم مستخفّ ، وبشأنهم محتقر وغير معظم ، فلم يلبثوا إلا يسيرًا حتى ينزلوا على الحكم أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا حاصرهم المسلمون وضيقوا عليهم حتى يعطوا بأيديهم .

فقال عمر : ماذا ترون ؟ هل عند أحد منكم غير هذا الرأي ؟

فقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : نعم ياأمير المؤمنين، عندي غير هذا، فقال : فماهو ؟

قال : إنهم ياأمير المؤمنين قد سألوك المنزلة التي لهم فيها الذل والصغار، وهي على المسلمين فتح ولهم عزّ، وهم يعطونكها الآن في العاجل في عافية، ليس بينك وبين ذلك إلا أن تقدم عليهم، ولك ياأمير المؤمنين في القدوم عليهم الأجر في كل ظَمإ وكل مَخمَصَة(١) ، وفي قطع كل وادٍ وكل فج وشعِب، وفي كل نفقة تنفقها حتى تقدم عليهم، فإن قدمت عليهم كان قدومك الأمن والعافية، والصلح والفتح، ولست تأمن لو أنهم يئسوا من قبولك الصلح ومن قدومك عليهم أن يتمسكوا بحصونهم، ولعلهم أن يأتيهم من عدونا منهم مدد لهم، فيدخلوا معهم في حصونهم، فيدخل على المسلمين من حربهم وجهادهم بلاء ومشقة، ويطول بهم الحصار ، ويقيم المسلمون عليهم، فيصيب المسلمين من الجهد والجوع نحو مايصيبهم ، ولعل المسلمين يدنون من حصونهم ، فيرمونهم بالنّشاب، أو يقذفونهم بالحجارة،

---

(١) كل عطش وكل جوع .

فـإن قُتل أحـد من المسلمين تمنيـتم أنكم افتـديتم رجـلا من المسلمين بمسيركم إلى مقطع التراب، ولكان المسلم بذلك من إخوانه أهلا .

فقال عمر - رضي الله عنه - قد أحسن عثمان في مكيدة العدو، وقد أحسن عليّ النظر لأهل الإسلام .

ثم قال : سـيروا على اسم الله ، فـإني معسكر وسـائر، وخرج الناس معه ، أشراف الناس، وبيوتات العرب، والمهاجرون والأنصار، وأخرج عمر معه العباس بن عبد المطلب [1].

هذا وإن هذه المحاورة لتدلنا على تفوق الصحابة رضي الله عنهم - وخاصة أمير المؤمنين عمر - في الاستفادة من الشورى التي أمر الله تعالى بها وأمر بها رسوله ﷺ وطبـقها في حياته، ولقد درأ الله عنهم شرورا كـثيرة وحقق لهم خـيرا كثـيرا بسبب اسـتقامتـهم على الأخذ بالشورى.

وهذه المحاورة تدلنا على أن العـقل البشري لايحـيط بالأمور من كل جوانبها غالبا، بل يغلب على فكر أحد المستشارين أمر بينما يغلب على فكر غيره أمور أخرى، ولقد أوجـز عمر رضي الله عنه اختلاف وجهة النظر بين عثمان وعلي رضي الله عنهما بكلمات معدودة حيث قال: « قـد أحسن عثمـان في مكيدة العدو، وقـد أحسن علي النظر لأهل الإسلام » وفي هذا الكلام ثناء على الرجلين وتقـدير لهما، ثم أخذ برأي علي لأنه رأه أرفق بالمسلمين .

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٤٧ - ٢٥٠ .

وصول أمير المؤمنين عمر إلى الشام :

ووصل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى الشام .

يقول الأزدي في سياق روايته : ثم خرج من الجابية إلى إيلياء، فخرج إليه المسلمون يستقبلونه. . . فأقبلوا يبتدرونه ، فقال للمسلمين: مكانكم .

ثم نزل عمر رضي الله عنه عن بعيره فأخذ زمام جمله، وزمامه من ليف، ثم دخل الماءَ بين يدَيْ جمله حتى جاز الماء إلى أصحاب أبي عبيدة فإذا معهم برذون يُجنِّبونه ، فقالوا ياأمير المؤمنين، اركب هذا البرذون ، فإنه أجمل بك وأهون عليك في ركوبك ، ولانحب أن يراك أهل الذمة في مثل هذه الهيئة التي نراك فيها، واسقبلوه بثياب بيض .

فنزل عمر رضي الله عنه عن جمله ، وركب البرذون وترك الثياب.

فلما هملج به البرذون نزل عنه ، وقال خذوا هذا مني، فإن هذا شيطان وأخاف أن يغيِّر عليَّ قلبي .

قالوا : ياأمير المؤمنين ،فلو لبست هذه الثياب البيض، وركبت هذا البرذون لكان أجمل في المروءة، وأحسن في المركز، وخيراً في الجهاد .

فقال لهم عمر رضي الله عنه : ويْحكم لاتعتزوا بغير ماأعزكم الله به فتذلوا .

ثم مضى، ومضى المسلمون معه حتى أتى إيلياء فنزل بها، فأتاه رجال من المسلمين، فيهم أبو الأعور السُّلَمي وقد لبسوا لباس الروم وتشبهوا بهم في هيئتهم .

فقال عمر رضي الله عنه : احثوا في وجوههم التراب حتى يرجعوا إلى هيئتنا وسنتنا ولباسنا .

وكانوا قد أظهروا أشياء من الديباج . ثم أمر بهم فخرق ذلك عليهم.

فقال له يزيد بن أبي سفيان : ياأمير المؤمنين، إن الدواب والثياب عندنا كثيرة ، والعيش عندنا رفيع، والسعر عندنا رخيص، وحال المسلمين كما تحب ، فلو أنك لبست من هذه الثياب البيض، وركبت من هذه الدواب الغرّة، وأطعمت المسلمين من هذا الطعام الكثير كان أبعد للصوت، وكان أزين لك في هذا الأمر، وأعظم لك في الأعاجم.

فقال له : يايزيد لا والله لاأدع الهيئة التي فارقت عليها صاحبَيَّ، ولاأتزين للناس بما أخاف أن يشينَني عند ربي ، ولاأريد أن يعظُم أمري عند الناس ويصغر عند الله .

ولم يترك عمر رضي الله عنه هيئته على الأمر الذي كان عليه في حياة رسول الله ﷺ وحياة أبي بكر رضي الله عنه ، حتى خرج من الدنيا (١) .

وهكذا اطَّرح عمر رضي الله عنه مظاهر الدنيا، ولم يُلْق لها

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٥٢ - ٢٥٤ .

بالا، وغلب عليه ذكر الآخرة ، ومافارق عليه صاحبيه رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه،ولم يستطع أمراء المسلمين في الشام أن يؤثروا عليه بما ذكروا من مسوغات تغيير الملبس والمركب ونحو ذلك.

وتظهر في هـذا الخبر حـساسيـة عمـر المرهفة نحو مظـاهر الدنيا والخوف مـن الافتـتان بهـا، ويُذَكِّره تراقص البـرذون لما ركبـه بمظاهر الدنيا، فينزل عنه سريعًـا ويعود إلى جمله، وهذا يدل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه .

ونراه يركز في موعظتـه للصحابة على الاعتـصام بالإسلام الذي أعز الله به المسلمون، والحذر من النظر إلى المظاهـر الدنيوية، واعتبار أنها سبيل إلى العزة والكرامة .

خطبة لعمر :

قال : ثم إن عمر - رضي الله عنه - قام في الناس ، فحمد الله وأثنى علـيـه بماهو أهله، وصلـى على النبي ﷺ ، ثم قـــال: ياأهل الإسـلام ، إن الله قـد صدقكم الـوعد، ونصـركم على الأعـداء ، وورَّثكم البـــلاد، ومكَّن لكم في الأرض، فـلايكـن جـزاء ربكم إلا الشكر، وإياكم والعمل بالمعاصي ، فإن العـمل بالمعاصي كفر للنعم، وقَلَّ ماكفر قوم بما أنعم الله عليهم، ثم لم يَفزعوا إلى التوبة إلا سُلبوا عزَّهم ، وسُلِّط عليهم عدوهم . ثم نزل (١) .

فأميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه يذكِّـر المسلمين في هذه الخطبة

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٥٦ .

بأن ذلك العز الذي يعيشون فيه والتمكين في الأرض سببه نصر الله تعالى إياهم .

وضمان ثباته واستدامته يكون بشكر المنعم جل وعلا بذكره وطاعته.

وزوال هذه النعم العظيمة يكون بمعصية الله تعالى فليحذر المسلمون من المعاصي حتى لايُسلبوا عزهم في الدنيا ثم يبوؤوا بالندامة يوم القيامة .

أذان بلال :

وحضرت الصلاة، فقال عمر : يابلال ، ألا تؤذن لنا رحمك الله؟ فقال بلال ياأمير المؤمنين ، أما والله ماأردت أن أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ ، ولكن سأطيعك اليوم إذ أمرتني في هذه الصلاة وحدها.

فلما أذن بلال ، وسمعت الصحابة صوته ذكروا نبيهم ﷺ، فبكوا بكاء شديداً، ولم يكن من المسلمين يومئذ أحد أطول بكاء من أبي عبيدة ابن الجراح، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما حتى قال لهما عمر رضي الله عنه حسبكما رحمكما الله (١) .

هذا الخبر يبين لنا حب الصحابة رضي الله عنهم العظيم لرسول الله ﷺ حيث بكوا ذلك البكاء الشديد لذكراه، وإن هذا الحب العالي من أهم الدوافع التي دفعتهم للتقيد الشديد بسنته، وبذلك ظهر تفوقهم في سلمهم وحربهم .

---

(١) فتوح الشام للأزدي /٢٥٦ .

شكوى من بلال :

فلما قضى عمر رضي الله عنه صلاته قام إليه بلال فقال: ياأمير المؤمنين ، إن أمراء أجنادك بالشام والله مايأكلون إلا لحوم الطير والخبز النقي، ومايجد ذلك عامة المسلمين .

فقال لهم عمر رضي الله عنه : مايقول بلال ؟

فقال له يزيد بن أبي سفيان : ياأمير المؤمنين ، إن سعر بلادنا رخيص، وإنا نصيب هذا الذي ذكر بلال ههنا بمثل ماكنا به نقوت عيالاتنا بالحجاز .

فقال عمر رضي الله عنه لا والله لاأبرح العرصة[١] أبدًا حتى تضمنوا لي أرزاق المسلمين في كل شهر .

ثم قال . انظروا كم يكفي الرجل مايشبعه ويكتفي به في كل يوم؟ فقالوا له : كذا وكذا .

قال : كم يكون ذلك في الشهر ؟ قالوا: جريبين [٢] مع مايصلحه من الزيت والخلّ عند رأس كل هلال، فضمنوا له ذلك .

ثم قال : يامعشر المسلمين ، هذا لكم سوى أعطياتكم ، فإن وفى لكم أمراؤكم بهذا الذي فرضت لكم عليهم، وأعطوكموه في كل شهر فذلك ماأحب، وإن هم لم يفعلوا فأعلموني حتى أعزلهم عنكم وأولّي أمركم غيرهم .

---

(١) أي ذلك المكان والعرصة المكان الواسع بين البيوت .

(٢) الجريب مكيال وزنه حوالي ثلاثين رطلا .

قال: فلم يزل ذلك جاريًا لهم دهرًا مـن دهرِهم حتى قطعه عنهم ولاة السوء [1] .

وهذا الذي ذكر بلال رضي الله عنه في هذا الخبر لايعني أن أمراء الجند يوسـعون علـى أنفسـهم من الأمـوال العامـة، بل إن ذلك من أموالهم الخاصة، ولو كان من مال المسلمين لحاسبهم عليه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .

ولكن لما علم عـمـر بأن هناك تفـاوتًا في المعـيشـة بين الأغنيـاء والفقراء رفع من شأن الفقراء بما ضمن لهم من المعـيشة اليومية إضافة إلى أعطياتهم السنوية .

فلله در أمير المؤمنـين عمر من أمير عـادل يواسي الجراح ويقضي الحاجات ويقارب بين طبقات المجتمع .

عمر يجري الصلح مع أهل بيت المقدس :

قال محـمد بن عبد الله الأزدي :حدثنـي الحسن بن علي قال: ولما قدم عمر ضربت له قبة من شعر، وجلس فيها على التراب ثم قام يصلي، وعلت للمسلمين ضجة عظيمة بالتهليل والتكبير، فسمع أهل إيلياء ، فأشرفوا عليهم لينظـروا شأنهم، ونادى واحد منهم : يامعشر العرب ماشأنكم ؟

قالوا : إن أمير المؤمنين عمر قـد قدم علينا من مدينة نبينا، قال: فرجع فأعلم البطريق ، فأطرق إلى الأرض لايتكلم .

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٥٦ - ٢٥٧ .

فلما كان الغد وصلى عمر بالناس صلاة الفجر قال لأبي عبيدة: تقدم إلى القوم ، وأعلمهم أني قد أتيت .

قال : فخرج أبو عبيدة ، وصاح بهم وقال ، إن صاحبنا أمير المؤمنين قد قدم ، فما تصنعون فيما قلتم ؟

قال : فأعلموا البطريق فخرج من كنيسته، وعليه المسوح، وترجَّل الرهبان والقسس والأساقفة معه، وقد حمل بين يديه صليبًا لايخرجونه إلا في يوم عيدهم، وتقدم إزاء أبي عبيدة وقال: ياهذا الرجل ، إن كان صاحبك قد أتى فدعه يدنُ منا، فإنا نعرفه، وأفردوه من بينكم، وليقف بإزائنا حتى نراه .

قال : فرجع أبو عبيدة إلى عمر ، وأخبره بما قال البطريق .

فَهَمَّ عمر بالقيام ، فقال له أصحابه ، ياأمير المؤمنين ، تخرج إليهم منفردًا وليس عليك آلة حرب، وإنا نخشى عليك منهم غدرا ومكرا، فينالون منك .

فقال عمر : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

ثم أمر ببعيره ، فاستوى عليه ، وسار بين القوم ، وليس معه غير أبي عبيدة ، حتى قرب من السور ، ووقف بإزاء البطريق والجاثليق.

وتكلم البطريق وقال :هذا والله الذي نجد صفته، ويكون فتح بلادنا على يديه .

(١) سورة التوبة آية (٥١) .

ثم إنه قال لأهل بيت المقدس : انزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة، هذا والله صاحب محمد بن عبد الله .

قال : فلما سمعت الروم كلام البطريق نزلوا مسرعين، وكانوا قد ضاقت أنفسهم من الحصار ، ففتحوا الأبواب، وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد والميثاق والذمة ، ويقرُّون له بالجزية .

فنظر إليهم عمر ، وخر ساجدًا لله وقال : ارجعوا إلى بلادكم وذويكم ولكم الذمة والعهد إذا سألتمونا وأقررتم الجزية .

قال : ورجع عمر إلى عسكره فبات فيه ليلة (١) .

هذا وقول عالم النصارى عن عمر رضي الله عنه « فإنا نعرفه» يعني أنه مذكور في كتبهم التي ورثوها عن أنبيائهم عليهم السلام بصفته ، وكونهم طلبوا أن يكون الصلح على يده دليل على أن اسمه موجود في كتبهم ، وقد جاء في رواية أخرجها الإمام الطبري أن عمرو بن العاص رضي الله عنه خادعهم ليعرف من هو الذي ذكر في كتبهم يتم الصلح على يديه، حيث كتب كتابًا إلى الأرطبون جاء فيه «وقد علمت أني صاحب فتح هذه البلاد» وأرسله مع رجل يعرف لغتهم وأمره أن يتنكر وأن لايكلمهم بلغتهم ، فقرأ الأرطبون الكتاب بمشهد من وزرائه فقالوا له : من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟ قال: صاحبها اسمه « عمر » ثلاثة أحرف (٢) .

هذا وإن ذهاب أمير المؤمنين عمر إليهم وهو أمير العالم

---

(١) فتوح الشام / ٢٥٧ - ٢٥٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/٦٠٦ .

الإسلامي، وكلٌّ الأعداء يتـمنون قتله . . إن ذهابه إليهم بغـير سلاح وليس معه إلا أبو عبيدة دليل على عظمة توكله على الله جل وعلا .

بشرى عظيمة :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي : وحدثني عطاء عن شَهرِ بن حوشَب عن كعْب (١) قال، قلت لعمر رضي الله عنه ، وهو بالشـام عند انصرافه : يـاأمير المؤمنين ، إنـه مكتوب في كتـاب الله تعالى ، إن هذه البلاد التي كان فيها بنو إسرائيل وكانوا أهلها مفتوحة علي رجل من الصـالحين، رحيم بالمؤمنين ، شديد عـلى الكافرين ، سره مثل علانيته، وعلانيته مثل سره، وقوله لايخالف قلبه، والقريب والبعيد عنده في الحق سواء ، وأتبـاعه رهبان بالليل، وأُسْدٌ بالنهار ، متراحمون ، متواصلون ، متنازلون .

فقال له عمر رضي الله عنه : ثكلتك أمك ، أحقٌّ ماتقول ؟

قـال : إي، والذي أنزل التـوراة علـى مـوسى ، والذي يسـمع ماأقول إنه لحق .

قـال عمـر رحمـة الله عليـه فالحـمد لـله الذي أعزّنا ،وأكـرمنا وشرفنا، ورحمنا بمحمد ﷺ وبرحمته التي وسعت كل شيء .

قال : وكان كعب رجلا من العرب من أهل اليمن من حِميْر(٢).

وهذه صفات جليلة عالية تدل على عظمـة عمر والصحابة الذين معه رضي الله عنهم .

---

(١) كعب هو المشهور بكعب الأحبار الحميري .

(٢) فتوح الشام / ٢٦٢ .

عمر في المسجد الأقصى :

أخرج ابن جرير عن رجاء بن حيوة عن من شهد أنه قال: لما شخص عمر من الجابية إلى « إيلياء » فدنا من باب المسجد قال: ارقبوا لي كعبا - يعني كعب الأحبار لعلمه بما في الكتب السابقة- فلما انفرق به الباب قال: لبيك اللهم لبيك بما هو أحب إليك، ثم قصد المحراب ، محراب داود عليه السلام، وذلك ليلاً فصلى فيه، ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة فتقدم فصلى بالناس، وقرأ بهم « ص » وسجد فيها ، ثم قام وقرأ بهم في الثانية صدر« بني إسرائيل» [1] ثم ركع ثم انصرف .

فقال : عليَّ بكعب ، فقال : أين ترى أن نجعل المصلَّى؟ فقال: إلى الصخرة ، فقال: ضاهيت والله اليهودية ياكعب، وقد رأيتك وخلْعَك نعليك ، فقال: أحببت أن أباشره بقدمي، فقال : قد رأيتك، بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله ﷺ قبلة مساجدنا صدورها، اذهب إليك فإنا لم نؤمر بالصخرة ،ولكنا أمرنا بالكعبة، فجعل قبلته صدره .

ثم قام إلى كناسة قد كانت الروم قد دفنت بها بيت المقدس في زمان بني إسرائيل ، فلما صار إليهم أبرزوا بعضها وتركوا سائرها، وقال: ياأيها الناس اصنعوا كما أصنع، وجثا في أصلها وحثا في فرج

---

(١) يعني سورة الإسراء ، وفي السورتين مناسبة ظاهرة، فسورة (ص) فيها ذكر داود وسليمان عليهما السلام ، وقد عمرا المسجد الأقصى، وسورة الإسراء فيها ذكر مسرى رسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى .

من فروج قبـائه وسمع التكبير من خلفه، وكـان يكره سوء الرِّعة في كل شيء ، فقال: ماهـذا ؟ فقالوا : كبَّر كعب وكبَّـر الناس بتكبيره، فـقال: عليَّ به، فـأُتي به، فـقال: ياأمـير المؤمنـين إنه قد تنبَّـأ على ماصنعت اليوم نبي منذ خمسمائة سنة، فقال: وكيف؟ فقال: إن الروم أغاروا على بني إسرائيل فأُدِيلوا علـيهم، فدفنوه- يعني بيت المقدس- ثم أُديلوا - يعني بني إسرائيل - فلم يفرغوا له - يعني لتنظيفه- حتى أغارت عليهم فارس فبغوا على بني إسرائيل ، ثم أُديلت الروم عليهم حتى وَلِيتَ ، فبعث الله نبيا على الكناسة- يعني في أمرها وذلك قبل خمسمائة عام من ذلك التاريخ كما ذكر كعب - فقال: أبشري «أوري شلَم » عليك الفاروق ينقِّيك مما فيك (١) .

وهذه فضيلة عظمى لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حيث ذكره الأنبياء عليهم السلام ، وقـام بتنظيف المسجد الأقصى ، وأظهر الحق الذي غطى عليه الروم والفرس .

وصول عمر إلى المدينة :

ثم إن عمر رضي اللـه عنه أقبل نحو المدينة ، فاستـقبله الناس، يهنئونه بالنصر والفتح، فجاء حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ فصلى ركعتين عند المنبر ، ثم صعد المنبر ، فاجـتمع الناس إليه، فقام فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ وقال :

أيهـا الناس ، إن الله قـد اصطنع عند هذه الأمـة أن يحـمـدوه

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦١١، وأوري شلَم اسم القدس بالعبرانية وينطقونها الآن أورشليم.

ويشكروه، وقد أعز دعوتـها، وجمع كلمتها، وأظهر فَلَـجها ونصرها على الأعداء، وشرَّفهـا ومكّن لها في الأرض، وأورثها بلاد المشركين وديارهم وأموالهم، فـأحْدِثوا لله شكرًا يزدكم، واحمدوه على نـعمه يُدِمْها لكم ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين ثم نزل [١] .

*　　*　　*

---

(١) فتوح الشام / ٢٦٦ .

٦ – حصار الروم مدينة حمص –

ذكر الإمام الطبري في أحداث السنة السابعة عشرة للهجرة أن الروم وأهل الجزيرة [١] اتفقوا على غزو المسلمين والهجوم على مدينة حمص، فلما علم أبو عبيدة بذلك ضمَّ إليه جيوشه القريبة وعسكروا بفناء مدينة حمص، وأقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه من «قِنَّسرين» حتى انضم إليهم فيمن انضم من أمراء الجيوش فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصن إلى مجيء الغياث، فكان خالد يرى مناجزتهم، وأشار سائرهم بالتحصن، وأن يكتب إلى عمر، فأخذ أبو عبيدة برأي الأكثر ، وكتب إلى عمر يخبره بخروج الروم إليه، وانشغال أجناد الشام عنه بالمرابطة في مواقعهم فلما بلغ الخبر عمرَ رضي الله عنه كتب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو ، وسرِّحْهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص، فإن أبا عبيدة قد أحيط به .

وكان عمر قد أعد خيولاً احتياطية في كل بلد استعداداً للحروب المفاجئة ، فكان في الكوفة أربعة آلاف فرس، فجهز سعد عليها الجيش الذي أرسله إلى الشام .

وكتب عمر أيضًا إلى سعد : أن سرِّح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند، وليَأْت « الرَّقَّة » فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص، وإن أهل « قَرْقِيسياء» لهم سلف، وسرِّح عبد الله ابن عبد الله بن عتبان إلى « نصيبين » فإن أهل قرقيساء لهم سلف،

(١) يعني بلاد الجزيرة التي تقع شمال غرب العراق وهي الآن تابعة لسوريا .

ثم لينفُضا حرَّان والرُّها، وسرِّح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ ، وسرح عياضًا، فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعًا إلى عياض بن غَنْم .

فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو حمص، وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة فأخذوا طريقهم نحو الأهداف التي وجهوا إليها .

وخرج أمير المؤمنين عمر من المدينة مغيثًا لأبي عبيدة يريد حمص حتى نزل الجابية .

وعلم أهل الجزيرة الذين اشتركوا مع الروم في حصار أهل حمص بخروج الجيوش من العراق، ولايدرون هل مقصدهم حمص أم بلادهم في الجزيرة فتفرقوا إلى بلدانهم وإخوانهم، وتركوا الروم يواجهون المعركة وحدهم .

ولما رأى أبو عبيدة أن أنصار الروم من أهل الجزيرة قد انفضوا عنهم، استشار خالدا في الخروج إليهم وقتالهم فأشار عليه بذلك، فخرجوا إليهم وقاتلوهم وفتح الله عليهم .

وقدم القعقاع بن عمرو ومن معه من أهل الكوفة بعد ثلاثة أيام من المعركة .

وقدم أمير المؤمنين عمر فنزل بالجابية ، فكتبوا إليه بالفتح وبقدوم المدد عليهم بعد ثلاثة أيام من الفتح وبالحكم في ذلك، فكتب إليهم : أن أشركوهم فإنهم قد نفروا إليكم وقد تفرق لهم عدوكم [1] .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٥٠ .

هذا وإن في هذا الخبـر مواقف عـالية للصحـابة رضي الله عنهم نوجزها فيما يلي :

١- حينما داهم الروم وأحـلافهم المسلمين جمع أبو عبـيدة أمراء الأجناد فاسـتشارهم في القـتال أو التـحصن حتى مـجيء الأمداد من الخليفة ، وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة التي تدل على أن أمور المسلمين في ذلك العـصـر تقـوم على الشـورى ، وقـد أمـر الله جل وعـلا رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه مع أنه معصوم كما قال تعالى ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾[1] وطبَّق ذلك في حياته وتأسى به فـيه أصحابه رضي الله عنهم .

ومشورة أهل الحل والـعقد في الأمور المهمـة تجمع عقولا كـثيرة كلها تفكر في القضية بدلا من أن يفكر فيها عقل الرجل المسئول وحده فَينتج عن ذلك رأي موحد مدروس، وفي حـال فشل القضية لاتكون المسئولية متركزة على فـرد واحد، ويتضاءل إنكار الناس لكون القضية قد دُرست وبذل فيها الجهد .

٢ - جاء في هذا الخبـر أن أمير المؤمنين عمـر رضي الله عنه قد أعد خـيولا للأمور الطـارئة، في جميع أقطار المسلـمين ، ووكل بها أناسًا يقومون بسـياستها وتمرينها لتكون مسـتعدة للجري في أي وقت فإذا نابت المسلمين نائبة ركـبها قوم وتقدموا إلى أن يستـعد الناس كما جاء في بعض الروايات [2] .

---

(١) سورة آل عمران / ١٥٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٥٢ .

وفي هذا دليل على اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بأمور الجهاد، وعنايتهم بتنفيذ أوامر الله تعالى كقوله ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

وواضح أنه لكل عصر أسلحته ووسائله الخاصة به، والصحابة رضي الله عنهم قد بلغوا في عصرهم أعلى المستويات في الاستعدادات الحربية، مع ما اختصوا به من القوة المعنوية الفائقة، الناتجة عن تمسكهم القوي بهذا الدين الحنيف، فلذلك فشل الأعداء في مواجهتهم سواء في الحروب التي يتم التخطيط لها والعلم بها، أو في محاولاتهم المتكررة للغدر بالمسلمين وأخذهم على غرة .

٣- حينما نتأمل هذه الخطة الحربية البديعة التي رسمها عمر رضي الله عنه لإرباك الأعداء وتفريقهم نجد أمرًا عجبا، ويزداد عجبنا إذا علمنا أنه يضع الخطط الحربية وهو بعيد عن ميدان المعارك ، فقد أمر ببعث جيش سريع من الكوفة إلى حمص ليقوم بعملية الإنقاذ وخرج هو بجيش من المدينة ، وهذا كله يبدو أمرًا معتادا ، ولكن الأمر الذي يثير الإعجاب هو ماقام به من الأمر ببعث الجيوش إلى بلاد المحاربين ليضطرهم إلى ترك ميدان القتال والتفرق إلى بلادهم لحمايتها، وقد نجحت هذه الخطة حيث تفرقوا فهان على المسلمين القضاء على الروم.

---

(١) سورة الأنفال / ٦٠.

٤ - ونستفيد أخيراً أن أعداء المسلمين جميعًا لايؤمن غدرهم وإن هادنوا المسلمين وأظهروا مسالمتهم، فإنـهم إنما يتحيَّنون الفرص المناسبة للانقضاض على المسلمين والقضاء عليهم، وقد كانت مواقف الصحابة رضي الله عنهم عاليـة في أخذ الحيطة والحذر والرصـد الحربي الدائم حيث كانوا يعرفون تحركات الأعداء في وقت مبكر وقد مرت بنا أمثلة واضحة لذلك .

ويحسن بنا أخيراً أن نعقد مقارنة بين مواجهة المسلمين لغزو الروم هذا ومواجهتهم لغزوهم السابق الذي تم حسمه بمعركة اليرموك ، ففي الغـزو السابق خـرج أبو عبـيدة وخـالد بجيش المسلمين من حـمص وضمـوا إليهم جيشـهم في دمشق وخرجوا منهـا واجتمعت جـيوش المسلمين في جنوب الشام ليواجهـوا أعداءهم وهم جميع، وفي الغزو الأخير ظل أبو عـبيدة وخالد مع جيش المسلـمين في حمص وتحصنوا بها إلى أن يصل مدد المسلمين .

والفرق واضح فـإنه في الغزو الأول كان كل من يستطيع الخلـيفة أن يجندهم قد وجههم إلى العراق، وكـان المسلمون في انتظار المعركة الحاسمة في القادسية فليس من المؤمل أن يصل إليهم مدد كبير، فكان الرأي أن تجتـمع الجيـوش في الشام لمواجـهة الأعـداء ولو تخلوا عن المدن، أما الغزو الأخـير فكانت جيوش العراق قد انتـهت من المعركة الفـاصلة وبإمكان أمـير المـؤمنين أن يمدهم من العـراق والمدينة، فكان الرأي بقاء الجيوش في حماية المدن الكبيره والتحصن إلى حين وصول المدد .

* * *

٧ - فتح بلاد الجزيرة -

تقدم لنا أن الروم وأهل بلاد الجزيرة التي تقع جنوب بلادهم أغاروا على مدينة حمص وحصروا فيها أبا عبيدة رضي الله عنه والمسلمين وأن عمر رضي الله عنه أرسل إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يأمرهُ بإمداد أهل حمص بجيش يخرج من الكوفة إلى حمص، وجيوش تخرج إلى الجزيرة .

وقد أرسل سعد جيشا من الكوفة بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي، وأرسل جيوشًا إلى الجزيرة وكلها تحت قيادة عياض بن غنم رضي الله عنه .

فخرجَت هذه الجيوش إلى الجزيرة فسلك سهيل بن عدي وجنده طريق الفراض حتى انتهى إلى « الرَّقَّة » فحاصرهم، فنظروا إلى أنفسهم بين قوتين للمسلمين في العراق والشام فصالحوه .

وسلك عبد الله بن عبد الله بن عتْبان طريق دجلة حتى انتهى إلى نصيبين فلقيه أهلها بالصلح كما صنع أَهل الرقة .

ولما أعطى أهل الرقة ونصيبين الطاعة ضم عياض سهيلا وعبد الله إليه وسار بالناس إلى حران فأخذ مادونها، فلما انتهى إليهم اتقوه بالإجابة إلى الجزية فقبل منهم ، ثم سرَّح سهيلا وعبد الله إلى الرُّها فاتقوهما بالإجابة إلى الجزية .

وهكذا فتحت الجزيرة كلها على سعتها صلحا، فكانت أسهل البلدان أمرا [1] .

(١) تاريخ الطبري ٤/٥٣ .

ولو عقدنا مقارنة بين فتح بلاد الجزيرة ، وماتم فتحه من بلاد المسلمين قبل ذلك لوجدنا فرقا كبيراً في الجهود الذي بذلت في تلك البلاد .

وهذا إنما يرجع لعزة المسلمين وقوة دولتهم ، فكلما قويت شوكة المسلمين، وانتشر وجودهم الحربي فإن الأعداء يرهبونهم فليقون لهم ما بأيديهم ويستسلمون لهم بدون مقاومة، ولايفكرون في غزو بلادهم، وكلما ضعف أمر المسلمين وتضاءل وجودهم الحربي فإن الأعداء يطمعون بهم، ويصعب عليهم - والحال هذه - القضاء على قوة أعدائهم .

ومن العرض السابق لفتح بلاد الجزيرة يتبين لنا بجلاء أهمية سلاح الرعب الذي ينصر الله به المسلمين إذا قاموا بأمره تعالى وأقاموا علم الجهاد في سبيله، وهذا السلاح يوفر عليهم جهوداً كبيرة حيث يضطر المعاندين إلى الاستسلام والصلح بدون مقاومة .

وكان من قادة المسلمين في فتح بلاد الجزيرة الوليد بن عقبة وقد انحار إليه المسلمون من عرب الجزيرة وصالحه الكفار منهم إلا بني إياد ابن نزار فإنهم ارتحلوا إلى الروم، وقد كتب الوليد إلى أمير المؤمنين يُعلمه بأمرهم فكتب عمر رضي الله عنه إلى ملك الروم :إنه بلغني أن حيًا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك، فو الله لتُخرِجَنَّه أو لننبذنَّ إلى النصارى ، ثم لنُخرجنَّهم إليك، فأخرجهم ملك الروم، فخرجوا، فتَمَّ منهم على الخروج أربعة آلاف مع أبي عدي بن زياد، وخنس بقيتهم فتفرقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم، فكل

إيادي في أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف [1] .

وفي هذا الخبر نموذج للمواقف العالية التي جرت من خلفاء المسلمين في معاملتهم مع الأعداء ، فإن الأعداء في أغلب الأزمان لهم مصالح في بلاد المسلمين تَقـلُّ أو تكثر، وبإمكان قادة المسلمين أن يحملوا الأعداء على احترام المصالح الإسلامية بتهديدهم في مصالحهم التي يرعونها في بلاد الإسلام .

وكان بعض عرب الجزيرة من النصارى قد رفضوا دفع الجزية لكونهم يرونها منقصة ومذمة، فبعث الوليد برؤساء النصارى وعلمائهم إلى أمير المؤمنين فقال لهم : أدُّوا الجزية : فقالوا لعمر: أبلغنا مأمننا ، والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم والله لتفضحنَّا من بين العرب ، فقال لهم : أنتم فضحتم أنفسكم، وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية، والله لتؤدنَّه وأنتم صَغَرَةٌ قَمأة [يعني حقيرين] ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم، ثم لأسبينكم .

قالوا : فخذ منا شيئًا ولاتسمه جزاء ، فقال : أما نحن فنسميه جزاء وسموه أنتم ماشئتم، فقال له علي ابن أبي طالب : ياأمير المؤمنين ألم يُضْعِف عليهم سعد بن مالك الصدقة؟ قال: بلى ، وأصغى إليه فرضي به منهم جزاء ، فرجعوا على ذلك .

ومن هذا الخبر نأخذ درسًا في معاملة المتكبرين من الأعداء الذين يخاطبون المسلمين بعزة وأنفة ويهددون باللجوء إلى دول الكفر، فنجد

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٥٤ .

أميـر المؤمنين عمـر خاطبـهم بعنف وحقَّـرهم وهددهم إذا لجئوا إلى الكفار بالسـعي في إحضارهم ومعاملـتهم كمعاملة الحـربيين من سبي ذراريهم ونسائهم ، وهذا أشد عليهم كثيراً من دفع الجزية .

ففي هذا الجواب القوي أزال مافي رؤوسهم من الكبرياء والتعاظم فرجعوا متواضعين يطلبون من أمير المؤمنين أن يوافق على أخذ مايريد من غير أن يُسَمَّى ذلك جزية .

وهنا تدخَّل علي رضي اللـه عنه - وكان لرأيه مكـانة عند عمـر لفقهـه في الدين - فأشار عليه بأن يُضْـعِف عليهم الصدقه كـما فعل سعد بن أبي وقاص بأمثالهم ، فقبل ذلك أمير المؤمنين تألفًا لهم ومنعًا من محاولة اللجوء إلى دول الكفر .

وقد أصـبح هذا الرأي مقـبولا حـينما وقع مـوقعه، وذلـك بعد ماأزال أمير المؤمنين عـمر ما في نفوسهم من العزة والكـبرياء، فأما لو قبل ذلك منهم في بداية العـرض فإنهم سيعـودون بكبريائهم ولايُؤمن منهم بعد ذلك أن ينقضوا العهد ويسيئوا إلى المسلمين .

* * *

٨ – عزل خالد عن قِنَّسرين –

تبين لنا أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه جاء بنفسه نجدة لأبي عبيدة رضي الله عنه ومن معه من المسلمين في حمص وحينما اطمأن عمر إلى حال المسلمين هناك عاد إلى المدينة .

وعلى إثر عودة أمير المؤمنين إلى المدينة قام خالد بن الوليد ومعه عياض بن غَنْم رضي الله عنهما في جيش من المسلمين بغزو الروم في بلادهم ، ولعلهم أرادوا بذلك إرهاب الروم حتى لايتجرؤوا على غزو المسلمين مرة أخرى .

وقد قاموا بمغامرة جريئة نجحت وغنموا فيها غنائم كثيرة ، ولكن كان من نتائجها عزل خالد بن الوليد عن ولاية قِنَّسرين، وهو العزل النهائي له عن العمل ، وذلك أنه لما رجع من الغزوة وتسامع الناس بما غنم قصده رجال من الآفاق ، وكان ممن قصده الأشعث بن قيس الكندي فأجازه خالد بعشرة آلاف، وكان عمر لايخفى عليه شيء من عمله، حيث كان يُكتَب إليه بما يكون من عماله ، فدعا البريد فكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يُعلمهم من أين إجارة الأشعث ، أَمِنْ ماله أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنها من إصابة فقد أقر بخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف .

وتمَّ استجوابه بحضور أبي عبيدة ، وأقر بأن ذلك كان من ماله، ولما علم بعزله ودَّع أهل الشام وخرج إلى المدينة إجابة لطلب أمير المؤمنين، فلما قدم على عمر ، قال : لقد شكوتك إلى المسلمين،

وبالله إنك في أمري غير مُجمِل ياعمر، فقال عمر : من أين هذا الثراء؟ قال : من الأنفال والسهمان، مازاد على الستين ألفا فهو لك، فقوَّم عمر عروضه فخرجت إليه عشرون ألفا فأدخلها بيت المال، ثم قال: ياخالد والله إنك عليَّ لكريم ، وإنك إليَّ لحبيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء [1] .

وهكذا نجد الموقف أمام قضية فيها حرج كبير لأمير المؤمنين عمر، حيث يُقْدم فيها على استجواب رجل بلغت شهرته الآفاق، فحاز على إعجاب المؤمنين ، وأرهب الكافرين في كل أقطار الأرض، ولكن عمر أمام مبادئ إسلامية واضحة لابد من أن يطبقها، وجاهلية بقيت رواسبها عالقة ببعض النفوس لابد أن يطمسها، فالمال في الإسلام لابد من التحري الدقيق فيه ، من أين اكتُسب وفيم أُنفق؟ خاصة من الولاة الذين يقتدى الناس بهم، وإذا كان الاكتساب حلالاً، والإنفاق في حلال فلابد من اجتناب السرف والخيلاء وإلا وقع المنفق في المآثم.

كان ذلك واضحًا أمام عمر ، وكان واضحًا لديه فيما يتعلق بهذا الأمر أن من رواسب الجاهلية تَطَلُّع ذوي الشرف واللسان إلى انتجاع ذوي السلطان والغنى وطلب رِفدهم وعائدتهم عن طريق الثناء بالشعر وغير ذلك من الوسائل المعروفة .

فلما سمع بأن مِنْ هؤلاء مَنْ قصدوا خالد بن الوليد لهذا الغرض فزع من ذلك وأشفق على المجتمع الإسلامي أن تحيا فيه عوائد الجاهلية، فكانت عقوبته لخالد بليغة مؤثرة .

---

(١) تاريخ الطبري باختصار ٤/٦٧ .

وهذه العقـوبة من النظرة الأولى تبـدو أكبر بكثـير من المخـالفة، ولكن عند التـأمل في الدوافع التي دفعت عمـر إلى إجرائهـا يتبين لنا أنها إجراء مناسب لإقـرار مبادئ الإسلام ومحو مبـادئ الجاهلية، هذا الأمر الذي ظل عمر يجاهد من أجله بقوة لاتعرف الكلل ولا التردد.

ولقد كان إجراء هذه العقـوبة على رجل عظيم القدر في المجتمع الإسلامي وأثير عند عمر نفسه له أكبر الأثر في قطع هذا الطريق الذي مُحِـي تمامًا في عـهد رسول الـله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، وبدأ الناس يعودون إليه لما كثرت عوائد الفتوح .

أما خـالد رضي الله عنه فـلاشك أنه لم يكن يتصـور هذه الآثار الناجمة عن تصرفه ، وكان رجلا كريمًا شـهمًا فأجاز قاصديه من ماله الخاص .

وقد يقول قـائل : إنه كان يكفي في معاقبتـه بعث خطاب عتاب وتحذير إليـه ، أو تغريمه المبلغ المصروف مع ذلك، ولكن عـمر رضي الله عنه كان أخبر الناس بطبيعـة خالد، فهو رجل قد بلغ الكمال في القيـادة الحربية ، ولكنـه ليس على النمط الذين يريدهم عمـر للإمارة حيث كـان لايُلزم نفسه بالتحـري الدقيق في الحسـابات والرجوع في ذلك إلى دار الخـلافة ، يدل على ذلـك المحاورة التي جـرت بين أبي بكر وعمـر في شأن خالد رضي الله عنهم ، وقد ذكـرها الحافظ ابن كثير قال :

وقد حكى مالك عن عمـر بن الخطاب أنه قال لأبي بكر : اكتب إلى خـالد أن لايعطي شاة ولابعـيراً إلا بأمـرك ، فكتب أبو بكر إلى

خالـد بذلك فكتب إليه خـالد : إما أن تدعني وعـملي وإلا فشـأنك وعملك، فأشـار عليه عمر بعزله ، فقـال أبو بكر : فمن يجزي عني جزاء خالد ؟ قال عمر : أنا ، قال : فأنت ، فـتجهز عمر حتى أُنيخَ الظهر في الدار ، ثم جاء الصـحابة فأشاروا على الصديق بإبقـاء عمر بالمدينة وإبقـاء خالد بالشـام . فلما ولي عـمر كتب إلى خـالد بذلك فكتب إليـه خالد بمثل ذلك فعـزله ، وقال : مـاكان الله ليـراني آمر أبابكر بشيء لاأنفذه أنا (١) .

وهذا الخبر يدلنا على أن أبا بكر كان يعلم ميل خالد إلى الاجتهاد في صرف الأموال أحيانًا، ولكنه أبقاه لعـدم وجود من يقوم مقامه في الشئون الحربية .

واستعداد عمر لأن يقـوم مقام خالد في ذلك ليس من باب سؤال الإمارة المنهي عنه ، وإنما هو مما تقـدم بيانه من أن المسلم إذا آنس من نفسه الكفاءة في عملٍ معين وأَمِنَ الـفتنة فلا بأس من أن يعرض نفسه للعـمل ، على أنه مُـقْـدم على عمـل صالح فـيـه خدمـة للإسـلام والمسلمين.

وهذا هو العزل الأول لخـالد حين كان أميراً على الشـام ، فعزله عمر وولَّى أبا عـبيدة إمرة الشام ولكن ظل خالد قـائداً للجيوش تحت إمرة أبي عبيدة إلى أن فتح قِنَّسريـن فولاه عليها وأقره على ذلك أمير المؤمنين عمر .

وقد اعتذر عمر إلى الناس من عزله خالدا عن إمرة الشام بأمرين:

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ١١٥ .

أولهما : يتعلق بحماية التوحيد ، وقد روى الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن عدي بن سهيل قال : كتب عمر إلى الأمصار : إني لم أعزل خالدا عن سخطة ولاخيانة ،ولكن الناس فُتنوا به ، فخفت أن يوكلوا إليه ويُبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وأن لايكونوا بعَرضِ فتنة (١) .

وهذا ملحظ مهم لأن التوكل على الله وحده هو العامل الرئيس في النصر . وفيه تبرئة لخالد، وبيان أن ماتجاوز فيه كان عن اجتهادٍ منه في خدمة الجهاد ولم يكن عن خيانة .

والثاني : هو ماتقدم من تجاوزه في صرف المال، وقد روى الإمام البخاري في التاريخ وغيره من طريق علي بن رباح عن ياسر بن سمي البرني قال: سمعت عمر يعتذر إلى الناس بالجابية من عزل خالد، فقال: أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف واللسان ، فأمَّرت أبا عبيدة (٢) .

ولاشك أن عمر وخالداً مجتهدان فيما ذهبا إليه ولكن عمر أدرك أموراً لم يدركها خالد رضي الله عنهما .

حياة خالد بن الوليد الجهادية :

لقد بدأ خالد بن الوليد رضي الله عنه حياته الجهادية في السنة التي أسلم فيها وذلك في العام الثامن للهجرة، حيث حاز على شرف اللقب الجهادي العظيم « سيف الله » يوم أن كانت النهاية المشرفة

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٦٨ .

(٢) البداية والنهاية ٧/١١٥ .

لمعركة «مؤتة » على يده ، فلقبه رسول الله ﷺ بهذا اللقب .

ثم تتابعت أحداثه الجهادية في أواخر حياة النبي ﷺ ، ومن أبرز ذلك قيادة سرية « دومة الجندل» ، وقيادة مقدمة الجيش في « فتح مكة المكرمة وحنين » .

ثم كان جهاده الكبير في حروب الردة في العام الحادي عشر، حيث قضى على تجمع طليحة الأسدي وتجمع مسيلمة الحنفي، اللذين هما أضخم التجمعات الحربية في جزيرة العرب آنذاك، وكانت تلك المعركتان أبرز معارك حروب الردة، حيث تقرر بهما مصير بلاد العرب لصالح دولة الإسلام .

ثم قام في العام الثاني عشر بقيادة الجيش الإسلامي الموجه لجهاد الفرس، حيث تمت على يده فتوح العراق الأولى التي نجحت في إضعاف قوة الفرس وضم غربي العراق للدولة الإسلامية .

ثم كان له شرف المشاركة في فتوح الشام وقيادة معاركها، ومن أبرزها معركتا فحل واليرموك التي تقرر بها مصير الحروب بين المسلمين والروم .

لقد كان خوض معامع القتال والاصطلاء بنار الحروب وأهوالها أعظم هوايات خالد بن الوليد رضي الله عنه .

وإذا كان كثير من الناس يحبون الراحة والدعة والسكون فإننا نجد خالدًا يقول في أمنيته المحبوبة إليه : مامن ليلة يُهدى إليَّ فيها عروس

أنا لها محب أحب إليَّ من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد في سرية أصبِّح فيها العدو [1] .

وهكذا تُحبَّب المعالي إلى النفوس العالية ، فالقتال أمر مكروه للنفوس حسب طبائعها المعتادة كما قال الله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [2] ولكنه أمام الأفذاذ من الرجال محبوب ، بل هو أحب إليهم من الشهوات التي جُبِلَ الإنسان عليها، وذلك أن من سما بفكره نحو المعالي من الأمور يعيش بخياله وأحاسيسه لهذه الأمور فلا يكاد يفكر بشيء غيرها .

وكلما حالت المشاقُّ والعقبات دون الوصول إلى المراد كلما ازداد أصحاب الهمم العالية إصراراً وشوقًا إلى بلوغ المقصود، ويصوِّر ذلك شَدْوُ خالد بن الوليد بقطع المفاوز في ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد والأمل يحدوه إلى ملاقاة عدوه في الصباح .

ويشبه هذه الأمنية السامية - مع الفارق الكبير في البذل والتضحية- هُيام أهل العلم بالتحصيل والبحث، حتى يُنسيهم الاستغراق في ذلك كثيراً من الملذات الحسية والمعنوية التي يتنافس الناس عليها .

وإذا كانت النفوس كباراً تَعِبَتْ في مرادها الأجسام

وإنه بمثل هذا البطل المغوار، والقائد المقدام ينتشر الإسلام وتُحْمَى

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٧٥ .

(٢) البقرة / ٢١٦ .

بلاد المسلمين ، وتقوم دولة الحق ورايته عالية فوق بقاع المعمورة.

فما أحوج الأمة الإسلامية إلى الرجال الأكفاء الذين يجسّدون هذه المعاني السامية، فيحيونها بتضحيات يراها الناس ويحسّون بها، فإن مآثر الأمة الماضية تظل مادة مذكِّرة عبر الأجيال، ولكن الانتفاع الكامل بها يتم بالتأسّي بأولئك العظماء ، وتطبيق هذه المعاني الكريمة من عظماء الرجال الذين يشاركون أفراد الأمة في ظروف الحياة المعاصرة، حتى لايظن ظانٌّ أن هذه المواقف والدروس التربوية إنما كانت في عصور ملائمة لوجودها، وأنّ تكرارها يتطلب ظروفًا حياتية مشابهة .

والحقيقة أنه كلما قوى المحرك الإيماني فإن الله تعالى يتكفل بنصر أوليائه، وتسخير ظروف الحياة لصالحهم .

نهاية خالد :

بعد ذلك العمر الجهادي القصير نسبيا ، المليء بالأحداث الجهادية المتلاحقة حانت وفاة هذا البطل الكبير الذي كان أعظم قادة العالم في عصره، وذلك في العام الحادي والعشرين للهجرة [١] .

ولقد كان ذِكْر الجهاد على لسان خالد حتى في حال احتظاره، كما ذكر الإمام الذهبي من خبر عاصم بن بهدلة عن أبي وائل أظن قال: لما حضرت خالدًا الوفاةُ قال: لقد طلبت القتل مظانَّه فلم يُقدَّر لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد التوحيد من ليلة بِتُّها وأنا مُتَتَرِّس والسماء تهلّني ننتظر الصبح حتى

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨٣ .

نغـير على الكفـار، ثم قال : إذا مِتُّ فـانظروا إلى سلاحي وفـرسي فاجعلوه عدَّة في سبيل الله (١) .

كما ذكـر الذهبي عن أبي الزناد : أن خالد بن الوليد لما احـتُضِر بكى وقال: لقيت كذا وكذا زحفًا، ومافي جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمـية بسهم ، وها أنا أمـوت على فراشي حتف أنفي كـما يموت العَيْر (٢) ، فلا نامت أعـين الجبناء (٣) . فرضي الله عن خالد ورحمه رحمة واسعة .

*   *   *

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨١ .

(٢) أي الحمار .

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨٢ .

مواقف وعبر
فى
فتــح المــدائن

١ - في الطريق إلى المدائن -

نتنقل إلى الحديث عن المواقف التي جرت بين القادسية وفتح المدائن، وقد أقام سعد رضي الله عنه في القادسية شهرين حتى أتاه أمر أمير المؤمنين بالتوجه نحو المدائن، فبعث مقدمة الجيش بقيادة زُهرة بن الحَوِيَّة، وأتبعه بعبد الله بن المعتَّم في طائفة من الجيش ثم بُشَرحْبيل بن السمط في طائفة أخرى ، ثم بهاشم بن عتبة بن أبي وقاص وقد جعله على خلافته بدلاً من خالد بن عرفطة، ثم لحق سعد بهم ببقية الجيش وقد جعل على المؤخرة خالد بن عرفطة .

معركة « برس » :

ارتحل قائد المقدمات زهرة بن الحوية التميمي متوجهًا نحو المدائن، فلما انتهى إلى « برس » لقيه بها أحد قادة الفرس وهو «بصبهري» في جمع فناوشوه فهزمهم زهرة ، فهرب بصبهري ومن معه إلى «بابل» وبها جمع من فلول الفرس في القادسية وبقايا رؤسائهم، وقد طعن زهرة بصبهري أثناء هروبه فمات بعد وصوله إلى بابل .

ولما هُزم بصبهري أقبل « بسطام» أمير برس فصالح زهرة وعقد له الجسور ، وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل [١].

معركة بابل :

لما علم زهرة بخبر الذين اجتمعوا ببابل كتب إلى سعد بالخبر، ولما علم سعد بذلك ارتحل بالناس على نظامه السابق، ولما وصل إلى«برس» قدَّم زهرة، ثم أتبعه بعبد الله بن المعتَّم ، ثم بشرحبيل بن

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢١٩ - ٢٢٠ .

السمط وهاشم ابن عـتبة ، واتَّبـعهم فنزلوا ببـابل وعلى الجمع فيـها «الفيرزان » .

وقد قال قادة الفـرس : نقاتل المسلمين شيئًا من قـتال ثم نفترق، وكان كل واحد منهم يريد أن يستـولي على جزء من فارس ، وكأنهم أرادوا بهذا التجمع وقتال المسلمين أن يعذرهم « يزدجرد» إذا تفرقوا .

فاقـتتلوا فهزمـهم المسلمون في أسرع من لَفْت الرداء ، فـانطلقوا على وجوههم ولم يكن لهم همَّة إلا الافتراق، فـخرج الهرمزان نحو الأهواز فـأخذها ، وخـرج الفيـرزان نحو نهـاوند فأخـذها ، وذهب النخيرجان ومهران الرازي للمدائن (١) .

معركة كُوثَى :

تقدم زهرة من بابل نحـو المدائن، وكان النخيـرجان ومهـران قد استخلفـا على جنودهما « شهريار » وقد التـقى زهرة بهذا الجيش في أكناف« كـوثى» فخرج شـهريار فنادى : ألا رجل ، ألا فـارس منكم شديد عظـيم يخرج إلي حتـى أنكِّل به! فقال زهـرة : لقد أردت أن أبارزك، فأمـا إذا سمعت قولك فـإني لا أُخرج إليك إلا عبـداً ، فإن أقمت له قتلك إن شاء الله ببغيك ، وإن فررت منه فررت من عبد ، وكايده .

ثم أمر أبا نباتة نائل بن جعشم الأعرجي - وكان من شجعان بني تميم- فـخرج إليـه ، ومع كل واحد منـهمـا الرمح، وكلاهمـا وثيق الخلق، إلا أن الشّـهـريار مـثل الجـمل، فلمـا رأى نائلا ألقى الرمح

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦٢٠ .

ليعتنقه، وألقى نائل رمحه ليعتنقه ، وانتضيا سيفيهما فاجتلدا ، ثم اعتنقا فخرّاً عن دابتيهما، فوقع على نائل كأنه بيت ، فضغطه بفخذه وأخذ الخنجر وأراغ حل أزرار درعه فوقعت إبهامه في فم نائل فحطّم عظمها، ورأى منه فتورا فثاوره فجلد به الأرض ثم قعد على صدره وأخذ خنجره فكشف درعه عن بطنه فطعنه في بطنه وجنبه حتى مات فأخذ فرسه وسوارَيْه وسلَبه ، وانكشف أصحابه فذهبوا في البلاد .

وأقام زهرة بكوثَى حتى قدم عليه سعد ، فأتى به سعداً ، فقال سعد: عزمت عليك يانائل بن جعشم لمّا لبست سواريه وقباءه ودرعه ولتركبّن برذونه ، وغنّمه ذلك كله ، فانطلق فتدرع سلبه، ثم أتاه في سلاحه على دابته ، فقال : اخلع سواريك إلا أن ترى حربا فتلبسهما فكان أولَ رجل من المسلمين سُوِّر بالعراق (١) .

وهكذا رأينا هذا الفارس البطل كيف قضى على خصمه الذي يشبه الجمل من ضخامته ، ولم يشغله كون ذلك الفارسي قد جثم على صدره بجسمه الهائل ولا ما ينتظره من الموت عن أن يغتنم الفرص للإيقاع بخصمه ، فاستفاد من وقوع إبهام ذلك الفارسي في فمه ليحطم عظمها ويشل حركته ، فكان ذلك التصرف السريع بداية النهاية بالنسبة لخصمه الذي كان واثقًا من تفوقه .

ولقد رأينا في هذا الموطن وفي مواطن كثيرة أن نتائج حروب المبارزة في الفتوحات الإسلامية الأولى تكون دائمًا لصالح المسلمين، والمبارزة فنٌّ رفيع يكون له دائمًا مابعده ، ولقد رأينا في هذا الموطن وفي مواطن أخرى مشابهةً أن عوامل النصر المادية تكون لصالح

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦٢١ - ٦٢٢ .

الأعداء ثم يقيِّض الله تعالى في الأخير سببًا لصالح المبارز المسلم لايتوقعه الأعداء فتكون النتيجة لصالحه ، وهذا شاهد واضح على أن الله تعالى دائمًا مع أوليائه المؤمنين بنصره وتأييده .

معركة مظلم ساباط :

مضى زهرة بن الحوية التميمي من « كوثَى » بالمقدمات إلى «بَهُرَسير» شرقي المدائن، وقد تلقاه «شيرزاد» بساباط بالصلح وتأدية الجِزاء، فأمضاه إلى سعد بن أبي وقاص .

واصطدم زهرة بكتيبة كسرى التي سمِّيت باسم ابنته« بوران» فهزمهم وفَلَّ جمعهم ، ثم مضى إلى المدائن(١) .

هذا القائد البطل الذي اختاره سعد لهذه المهمة الشاقة حيث كان يتقدم الجيش فيتحمل هو ومن معه من الأبطال هول المفاجآت وتذليل الصعوبات ، ولاشك أنه كان رجل المواقف حيث استمر مسئولا عن هذه المهمة من قبل معركة القادسية .

وكان موضع ثقة عمر رضي الله عنه كما جاء في الخطاب الذي وجهه إلى إلى سعد في شأن زهرة حيث قال فيه : أنا أعلم بزهرة منك، وجاء فيه : تَعْمَدُ إلى مثل زهرة وقد صَلَى بمثل ما صَلَى به وقد بقي عليك من حربك مابقي تكسر قرنه وتفسد قلبه ! أَمْضِ له سلَبه وفَضِّله عند العطاء بخمسمائة .

وكان سعد قد استكثر عليه سلب الجالنوس أحد قادة الفرس وكان زهرة قتله أثناء مطاردته فلول الفرس يوم القادسية،وتعجَّل زهرة فلبس

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦٢٢ .

سلب الجالنوس قبل أن يأذن له سعد فغضب سعد ونزعه منه[1].

وهذا نوع من الخطأ لكنه محتمل من زهرة وقد قدَّم هذه التضحيات الكبيرة، ولذلك لام أمير المؤمنين سعداً على موقفه منه وأمره بإعادة ماأخذ منه .

وهذا دليل من الأدلة الكثيرة التي تدل على براعة عمر رضي الله عنه وتفوقه في معرفة الرجال .

وقد توجه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى المدائن وجرى له موقف يذكر، وذلك حينما وصل إلى « مظلم ساباط» ولعله سُمِّي بذلك لكثرة مابه من الأشجار ، وكان فيه كتائب لكسرى ، وفيه أُسُودٌ قد دُرِّبت على الهجوم وكان منها أسد ضخم يسمى « المُقَرَّط» كان كسرى قد اختاره ، فلما وصل هاشم إلى مظلم ساباط انتظر حتى أتى سعد ببقية الجيش، فلما وصل سعد وافق وصول ذلك الأسد فبادر إلى الهجوم على جيش المسلمين ، فنزل إليه هاشم وقاتله بسيفه حتى قتله ، وسُمِّي سيفه المَتْن لقوته وإنما القوة من حامله، وقد أكبر سعد هذا الموقف من ابن أخيه هاشم فكافأه بتقبيل رأسه ، ورأى هاشم ذلك كبيراً من سعد فقبَّل قدم عمه رضي الله عنهم أجمعين[2].

وهكذا نرى قادة المسلمين يسارعون إلى ركوب المخاطر ومواجهة الأهوال ، فقد كان بإمكان هذا القائد المغامر أن يوجه لذلك الأسد كتيبة ممن هم تحت قيادته ، ولكنه كان من قوم يستعذبون الشدائد

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٦٧ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٦٢٢ .

ويتنافسون في البذل والتضحية فقدَّم نفسه فداء لأخوانه المجاهدين فنصره الله على ذلك الوحش الكاسر .

وهكذا أثبتوا للعالم أنهم لايقتصرون على منازلة أندادهم من البشر، بل تجاوزوا ذلك إلى منازلة الوحوش الضارية .

وهذا موقف يُثبت لنا شجاعة هذا القائد إلى جانب ما عُرف عنه من الرأي والتدبير ، فلا يظنَّنَّ ظانٌ أن سعداً ولاه النيابة عنه لكونه ابن أخيه، فقد ولاه قيادة جيش العراق القادم من الشام أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وفي جيشه القعقاع بن عمرو وقيس بن هبيرة ، وأمثالهما من الأبطال ، وإنما كانوا يولّون القيادة من كان يجمع بين سداد الرأي والشجاعة .

هذا وقد نزل سعد في « مظلم ساباط» بعد أن قدم هاشما ومن معه نحو بَهُرَسير وهي الجزء الغربي من المدائن، ولما نزل سعد ذلك المكان قرأ قول الله تعالى ﴿ **وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ** ﴾ [إبراهيم: ٤٤] .

وإنما تلا هذه الآية لأن في ذلك المكان كتائب لكسرى تُدْعَى بوران، وكانوا يحلفون بالله كل يوم : لايزول ملك فارس ماعشنا (١).

وقد هزمهم وفرقهم زهرة بن الحوية كما سبق .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦٢٢ .

٢ - التوجه نحو المدائن -

توجه زهرة قائد المقدمـات إلى المدائن، والمدائن هي عاصمة دولة الفـرس ، وتقع شـرق نهـر دجلة وغـربه، فـالجـزء الذي يقع غـربه يسمى «بَهُرَسِير » والذي يقع شرقه يسمى « أسبانير» و« طيسفون» .

وقد وصل زهرة إلي بهرسـير وبدأ حصار المدينة . ثم سـار سعد ابن أبي وقاص بالجيش الإسلامي ومعـه قائد قواته ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقـاص إلى المدائن الغربية « بهرسير» وفـيها مَلك الفرس يَزْدَجرد، فحاصـرها المسلمون شهرين، وكان الفرس يخـرجون أحيانًا لقتال المسلمين ولكنهم لايثبتون لهم .

وقـد أصيب زهرة بن الحـوية بسـهم ، وذلك أنه كان عليـه درع مفصومة، فقيل له : لو أمـرت بهذا الفصم فسُرد [يعني حتى لاتبقى فيها فتحة تصل منها السهام] فقال : ولِمَ ؟ قالوا : نخاف عليك منه، قال: إني لكريم على الله إن تَرك سـهمُ فارسَ الجندَ كلَّه ثم أتاني من هذا الفصم حتى يثبت فيَّ .

وكـان كـريما على الله تـعالـى كـمـا أمَّل ، فكان أولَ رجل من المسلمين أصـيب يومئذ بـسهم ، فثـبت فيـه من ذلك الفصم، فـقال بعضـهم: انزعوها منه، فـقال: دعوني فـإن نفسي مـعي مادامت فيَّ لعلي أن أصيب منهم بطعـنة أو ضربة أو خطوة ، فمضى نحـو العدو فضرب بسيفه شهريار من أهل اصطخر فقتله (١).

وهذا مـوقف عظيـم من هذا القـائد البطل يـدل على قـوة إيمانه

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٦ ، وقد جاء لزهرة ذكر بعد فتح المدائن فلعله شفي من تلك الإصابة .

ورغبته الصادقة في الاستشهاد في سبيله ، فإنه لما علم الله تعالى صدق نيته ورغبته في الإصابة قدَّر إصابته من ذلك المكان .

ثم لننظر إلى هذا البطل الذي خالط حب الجهاد شِغاف قلبه، حيث يعارض في نزع السهم من جسمه خشية أن تخرج روحه قبل أن يضرب في الأعداء ، فهو يريد بقاء نفسه لالمتاع الدنيا الزائل وإنما ليضرب ضربة يثخن بها في العدو ، أو على الأقل أن يتقدم إليهم خطوات لتخرج نفسه وهو أقرب ما يكون إلى العدو .

سبحان الله ما أعظم هؤلاء الرجال ! أما كان يكفي زهرةَ من النضال والتضحية ماقدمه في مواقفه السابقة الكثيرة ؟ أما كان من حقه- وقد أصيب - أن ينزوي في ناحية بعيدة آمنة ليعالج جرحه ويأخذ قسطًا من الراحة ؟

نعم كان ذلك من حقه ، ولكنه من قوم ينسون أنفسهم في سبيل تقديم الخدمة لأمتهم ، ويضحون بأرواحهم في سبيل الدفاع عن دينهم ونشر دعوتهم ، ويرون أن أسمى أمنية تتطلع إليها نفوسهم أن يُستشهدوا في سبيل الله تعالى .

وقد بقي المسلمون في حصار بهرسير شهرين ، استعملوا خلالها المجانيق ، وقد صنع لهم الفرس الموالون لهم عشرين منجنيقًا شغلوا بها الفرس وأخافوهم (١).

وفي هذا دلالة على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا لايهملون تحصيل أسباب النصر المادية إذا قدروا عليها ، وأنهم كانوا على ذكر

(١) تاريخ الطبري ٦/٤ .

تام لقول الله تعالى﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (١) ، إلى جانب تفوقـهم في أسباب النصر المعنوية التي انفـردوا بأهمها وأبرزها وهو الاعتماد على الله تعالى وذكره ودعاؤه .

ومما يُذكر من الأمثلة على معية الله تعالى لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن أنس بن الحليس قال : بينمـا نحن محاصرون بهـرسير بعد زحفـهم وهزيمتهم أشـرف علينا رسـولٌ فـقال : إن المـلك يقـول لكم : هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجَبَلُنا ولكن ما يليكم من دجلة إلي جبلكم؟ أمَا شـبعتم لا أشبع الله بطونكم ! فبـدر الناسَ أبو مُفَزِّر الأسود ابن قطبة ، وقد أنطقـه الله بما لايدري ماهو ولانحن ، فرجع الرجل ورأيناهم يقطعـون إلى المدائن - يعني يعبرون النهـر إلى شرق المدائن - فقلنا : يا أبا مفزر ماقلت له ؟ قال : لا والذي بعث محمدًا بالحق ما أدري ماهو إلا أن عليَّ سكينة ، و أنا أرجو أن أكون أُنطقتُ بالذي هو خير، وانتاب الناس يسألونه حتي سمع بذلك سعد فجاءنا فقال: ياأبا مـفزر ماقلت ؟ فو الله إنهم لهُرَّاب ، فحـدثه بمثل حديثه إيانا .

فنادى الناس ثم نهد بهم ، وإن مَجَانيقنا لتخطر عليهم ، فماظهر على المدينة أحد ولاخـرج إلينا إلا رجل نادى بالأمان فأمَّنَّاه ، فـقال: إنْ بقي فيها أحد ، فما يمنعكم ؟ [يعني لم يبـق فيها أحد] فتسورها الرجال وافـتتـحناها فما وجـدنا فيـها شيـئًا ولا أحـدا ، إلا أسارى أسرناهم خارجًا منهـا ، فسألناهم وذلك الرجل : لأي شيء هربوا ؟

(١) سورة الأنفال / ٦٠ .

فقالوا : بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح ، فأجبتموه بأنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبدًا حتى نأكل عسل أفريذين بأُتْرُجِّ كوثَى ، فقال الملك : واويله ! ألا إن الملائكة تكلَّم على ألسنتهم ، ترد علينا وتجيب عن العرب، والله لئن لم يكن كذلك ماهذا إلا شيء أُلقي عَلَى فِيٍّ هذا الرجل لِنَنْتَهِي ، فأَرَزُوا إلى المدينة القصوى[1] .

وهكذا أنطق الله تعالى هذا المسلم العربي بلسان العجم بكلام لايصدر إلا منهم ، ولاشك أنه كان بلغة فارسية متقنة لايُشتبه فيها أنها من عربي تعلم الفارسية ، فأيقن الفرس حالاً بأن من نطق بذلك ملكٌ يجيب عن المسلمين أو رجل منهم أُلقي هذا الكلام على لسانه ، فأخْلَوا مدينتهم الغربية من الرعب وانحازوا إلى مدينتهم الشرقية واحتموا بنهر دجلة الذي كان يجري بغزارة في تلك الأيام .

ولما دخل المسلمون « بَهُرَسْير » - وذلك في جوف الليل-لاح لهم الأبيض [وهو قصر الأكاسرة] فقال ضرار بن الخطاب: الله أكبر أبيض كسرى، هذا ما وعد الله ورسوله، وتابعوا التكبير حتى أصبحوا [2].

وقوله « هذا ما وعد الله ورسوله » يعني يوم حفر الخندق لما بشر النبي ﷺ أصحابه بفتح فارس والروم ووصف لهم قصورها وقد سبق بيان ذلك .

مشورة بين سعد وجنوده في عبور النهر :

هذا ولما علم سعد أن كسرى قد عبر بالسفن إلى المدائن الشرقية وضم السفن كلها إليه وقع في حيرة من أمره ، فالعدو أمامهم وليس

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٧ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٨ .

بينهم إلا النهر ، ولاسبيل إلى عبوره لعدم توفر السفن ، وهو يخشى أن يرتحل عدوه فيصعب القضاء عليه ، وقد أتى سعداً بعض أهل فارس فدلُّوه على مخاضة يمكن اجتيازها مع المخاطرة ، فأبى سعد وتردد عن ذلك ، ثم فاجأهم النهر بمدٍّ عظيم حتى اسودَّ ماء النهر وقذف بالزَّبد من سرعة جريانه ، وفي أثناء ذلك رأى سعد رؤيا صالحة مفادها أن خيول المسلمين قد عبرت النهر ، فعزم لتأويل رؤياه على العبور، وجمع الناس فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه معه وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا فَيُنَاوِشونكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتَوا منه، قد كفاكموهم أهل الأيام [1]، وعطلوا ثغورهم ، وأفنوا ذادتهم [2]، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد عدوكم بنيَّاتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم .

فقالوا جميعًا : عزَمَ الله لنا ولك على الرشد فافعل .

وقبل أن أذكر خبر العبور أحب أن أقف أمام هذه العزيمة الصادقة وقفات :

الأولى : تَذَكُّر معية الله جل وعلا لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهذه الرؤيا الصادقة التي رآها سعد رضي الله عنه من الله جل وعلا لتثبيت قلبه ليُقدم على هذا الأمر المجهول العاقبة .

الثانية : أن الله تعالى يُجري الأمور لصالح المؤمنين ، فالنهر

---

(١) يعني المجاهدين السابقين .

(٢) يعني مادتهم التي يدافعون عنها .

جرى بكثافة مفاجئة على غير المعتاد ، وظاهر هذا أنه لصالح الفرس، حيث إنه سيمنع أي محاولة لعبور المسلمين ، ولكن حقيقته أنه لصالح المسلمين ، حيث أعطى ذلك الكفار طمأنينة فلم يستعدوا لقدوم المسلمين المفاجيء لهم ، ولم يستطيعوا أن يحملوا معهم كل ما يريدون حَمْلَهُ في حال الفرار ، وإقدامُ المسلمين على العبور رغم المخاطر، وتوقع الهلاك في عرف البشر المعتاد أثار فزع الأعداء وخارت عزائمهم.

وهذا يشبه ما جرى يوم بدر من تقليل الكفار في أعين المسلمين وتقليل المسلمين في أعين الكفار ، ليُقْدم كل فريق على قتال الآخر، فيجري بذلك ما قدره الله تعالى من ظهور الحق على الباطل ﴿ **وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ** ﴾ [الأنفال: ٤٤] .

الثالثة : أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتفاءلون خيراً بالرؤيا من الرجل الصالح، ويعتبرونها مُرجِّحا للإقدام على العمل ، وكانوا رضي الله عنهم يحسنون الظن بالله تعالى ، ويعتبرون أن رُؤَى الخير تثبيت وتأييد منه تعالى .

الرابعة : أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتصفون بالجرأة والإقدام وقد مرت أمثلة كثيرة على جرأتهم في منازلة الأبطال ومجاولة الوحوش الضارية، وهاهم يُقدمون على خوض النهر الجارف بخيولهم، ومن قبل خاضوا البحر بخيولهم بقيادة العلاء بن الحضرمي،كما مر معنا سابقًا ، وعلى قدر أهل العزم تكون العزائم .

الخامسة : أن قادة المسلمين في ذلك العهد كانوا يتصفون غالبًا

بالحزم واغتنام الفـرص لاستنفاد طاقة الجنود وهم في حمـاسهم وقوة إيمانهم ، فهذا سعد رضي الله عنه يأمر جـيشه بأن يعبروا إلى الأعداء بسلاح الإخلاص والتقوى وقد كان مطمئنًا إلى مستوى جيشه الإيماني فأقدم على ما أقدم عليه مستعينًا بَعْد الله تعالى بذلك المستوى الرفيع.

السـادسة : اتصـاف الصحـابة رضي الله عنهم ومن معـهم من التابعين بالطاعـة التامة لقادتهم ، وكـانوا يعتبرون هذه الطاعـة واجبًا شرعيًا وعملا صالحًا يتقربون به إلى الله تعالى .

عبور النهر وفتح المدائن :

وقد ندب سـعد الناس إلى الـعبور وقـال : مَنْ يبدأ ويحـمي لنا الفِراضَ [يعني سـاحل النهر الشرقي] حتى تتـلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج ؟ فانتدب له عاصم بن عـمرو التميمي وكان من أصحـاب البأس والقوة ، وانتدب بعـده ستمـائة من أهل النجدات ، فأمَّر عليهم سعد عاصمًـا ، فسار فيهم حتى وقف على شاطيء دجلة وقال: من ينتدب مـعي لنحمي الفراض من عدوكم ولنحـميكم حتى تعبروا ؟ فانتدب له ستون من أصحـاب البأس والنجدة ، ثـم اقتحموا دجلة ، واقتحم بقية الستمائة على إ ثرهم .

وهكذا تكونت من جـيش المسلمين فـرقة مـن الفدائيين عـددهم ستمـائة وقد سميت كتـيبة الأهوال ، واستخلص عـاصم منهم ستين تحت قيادته ليكونوا مقدمة لهذه الفرقة .

وهذا تخطيط مـحكم من سـعد أولًا ثم من عـاصم ، وذلك أن مـواجهـة الأهوال والمغامـرات لاتكون بالعـدد ا لكبيـر ، وإنما تكون

بأصحاب البأس الشديد والقدرة القتالية العالية وإن كانوا قلائل ، وذلك أنه إذا انضم لهذه الفرقة من هم أقل كفاءة وشجاعة ثم ارتدوا عند هجوم الأعداء يسببون انهزام الفرقة كلها .

ومما يميز المسلمين آنذاك أن كل واحد منهم يعرف قدر نفسه وطاقتها، فلا يندفع إلا في حدود إمكاناته ، وذلك لأنهم لا يعملون للمجد الدنيوي ، لأن من كان كذلك قد يغامر بنفسه وهو غير مؤهل لذلك، رجاء أن يبقى فيحوز ذلك المجد ، وهو في أدائه هذا العمل لن ينجح كثيراً لأنه سيبذل جل طاقته في الدفاع عن نفسه، وهذا يفوِّت الغرض الذي يجب أن يغامر من أجله ، وإنما كان أولئك يعملون للآخرة، ولرفع مجد الإسلام ، فهم لا يضعون خطواتهم إلا في موضعها الصحيح ، وقد يغامر بعضهم وهو غير مؤهل حينما يتعين عليه الإقدام ثم يسِّهل الله له مخرجًا من الهول الذي غامر بنفسه فيه كما تقدم.

واقتحم عاصم النهر بالستين على الخيول وقد ذُكر من طليعتهم الذين سبقوا إلى الشاطيء الآخر أصمٌّ بني وَلَّاد التيمي ، والكَلَج الضبِّي، وأبو مفزِّر الأسود بن قطبة ، وشرحبيل بن السِّمط الكندي، وحَجْل العجلي ، ومالك بن كعب الهمداني ، وغلام من بني الحارث ابن كعب .

فلما رآهم الأعاجم أعدُّوا لهم فرسانا فالتقوا بهم في النهر قرب الشاطيء الشرقي ، فقال عاصم : الرماحَ الرماح ، أشرعوها وتوخَّوا العيون ، فالتقوا فاطَّعَنوا ، وتوخَّى المسلمون عيونهم ، فولَّوا نحو الشاطيء ، والمسلمون ينخسون خيولهم بالرماح لتسرع في الهروب ، فصارت تسرع وأصحابها لايملكون منعها .

ولحق بهم المسلمون فقتلوا عامتهم ونجا من نجا منهم عورانا ، ولحق بقية الستمائة بإخوانهم فاستولوا على الشاطيء الشرقي[1] .

هذا ولقد كان بإمكان الفرس الموكَّلين بحماية الشاطيء أن يلزموا مكانهم وأن يكثِّفوا رماية المسلمين بسهامهم ، وذلك لو تَمَّ سيعرقل تقدم المسلمين بعض الوقت ، وستقع فيهم إصابات نظرًا لكونهم في الماء وعدوهم في اليابسة ، والنظر إلى الموضوع من الناحية الحربية يجعل القدرة المادية إلى جانب الفرس لأن الذي فوق الأرض يستطيع أن يحدِّد الأهداف أكثر ممن يعوم في الماء ، ولكن الله سبحانه أعمى بصائر الفرس عن ذلك مع أنهم أهل الحروب الذين ورثوها كابرًا عن كابر ليتم ما أراده الله تعالى من نصرة دينه وأوليائه ، حيث قدَّم أعداؤهم طائفة منهم لخوض الجانب الشرقي من النهر وجانب النهر عادة يكون خفيف الماء، فالتحموا مع المسلمين ، ولم يستطيعوا الثبات لهم وأصبحوا عائقًا يحول بين الرماة ومواصلة رمي المسلمين .

جاء في رواية سيف بن عمر عن شيوخه قالوا : ولما رأى سعد عاصما على الفراض [يعني التي في الجانب الشرقي] قد منعها أذن للناس في الاقتحام وقال :« قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

وهذا القول تعبير من سعد ومن كانوا معه عن مدى تعلقهم بالله تعالى ، واعتبارهم أن الأمر بيده كله ، وأن تدبير أمور الحرب والسلم عنده، فهو الذي يوهن قلوب الأعداء ويعمي بصائرهم عن إدراك عوامل النصر ، وهو الذي يوفق المسلمين لهذه العوامل وللتفكير

---

(١) تاريخ الطبري ٩/٤ .

السديد في الخـروج من المآزق ، وهو الذي يذلل لهم شواهق الجـبال المليئة بالجليد، وأعماق البحار والأنهار التي تقذف بالأمواج والزَّبَد ، وهو الذي يُمدهم بالملائكة عليهم السلام إذا كان الأعداء فوق طاقتهم الكبرى.

فهـذا الكلام ليس مجـرد كلام يقال باللســان، كما يـقوله بعض المسلمين الذين عُمِرتْ قلوبهم بالخوف من طغـاة البشر وتضخمت في أنظارهم قـوتهم وتضاءل في قلوبهم الخـوف من الله تعالـى ،و تذكّر قوته وسعة ملكه ، ثم مع ذلك يرجون من النطق بهذا الكلام أن يظهر مفعوله المدهش في واقع حياتهم .

إن الصحابة رضي الله عنهم قبل أن ينطقوا بهذا الكلام قد جردوا قلوبهم تمامًا من حب غير الله تعالى ومن تعظيم طغاة البشر أو الخوف منهم ، وعمروها بحب الله تعالى والإيمان بعظمته وقوته والخوف منه وحده، واعتبار أن السماوات والأرض ومافيهن في قبضته تعالى .

فسعد حينما يأمر الجيش الإسلامي بالنطق بهذه الكلمات لايحاول أن ينشيء في قلوبهم عقيـدة التوحيد الصافية، وإنما يـذكّرهم بما يعبر عن هذه العـقيـدة ليـتذكـر منهم من كان شـارد الفكر عن ذكـر الله القلبي.

ولذلك كانت هذه الكلمات وأمثالهـا تعطي مفعولها المؤثر ، لأن أولئك الصادقين كـانوا يتمتـعون بانســجام تام بين أقوالهم وأعــمالهم واعتقاداتهم .

فالذي يركع لله تعالى مثلا قد قام بتعظيمه بفعله لأن الركوع هيئة تعظيم ، ثم قام بتـعظيمه بقوله حـيث يقول سبحــان ربي العظيم فإذا

وافق ذلك حضور القلب واعتقاده بعظمة الله تعالى كان ركوعا كاملا وأدى مفعوله في تقوية الإيمان وتقويم السلوك والظفر بمعية الله تعالى بالنصر والتأييد ، أما إذا كان القلب غافلا والفكر شارداً فإن ذلك يكون مجرد أقوال وأفعال لاتعطي شيئًا من ثمراتها العظيمة التي شُرعت من أجلها .

ولقد كانت أعمال الصحابة وأذكارهم عامرة بالاعتقاد الحي المتجدد مع تجدد الزمن ، فلذلك استقامت حياتهم وظفروا بهذه الانتصارات الباهرة التي أصبحت مضرب الأمثال .

فسعد رضي الله عنه يذكِّرهم بالاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه وحده ، لأنه جل وعلا هو الذي بيده حسم تلك المعركة وغيرها من أفعال العباد ، ثم يذكِّرهم بالذكر الذي قاله إبراهيم عليه السلام حينما أُلقِيَ في النار ، وقاله رسول الله ﷺ حينما هدده الكفار بجمعهم كما ذكره الله سبحانه بقوله ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ (١) فإذا كان الكفار يعتَدُّون بجمعهم وقوتهم المادية فإن المسلمين الصادقين يعتدون بالله تعالى وكفى به معينا وناصرا وهو جل شأنه نعم المعتمد.

ثم يذكِّرهم بأن التحول من حال الضعف إلى القوة، ومن العسر والشدة إلى اليسر والسهولة ، ومن انغلاق السبل إلى انفتاحها لايكون إلاّ بالله تعالى وحده ، حينما يقول المسلم مع الاعتقاد الجازم «لاحول ولا قوة إلا بالله العظيم » .

قال الرواة في الرواية المذكورة : وتلاحق عُظْم الجند فركبوا

---

(١) سورة آل عمران / ١٧٣ .

اللُّجَّة، وإنَّ دجلة لَتَرمي بالزَّبَد ، وإنها لمسودَّة ، وإن الناس ليتحدثون في عومهم وقد اقتربوا ، ما يكترثون كـما يتحدثون في مسيرهـم على الأرض[1] .

وجاء في رواية أبي بكر بن حـفص بن عمر : وكـان الذي يساير سعدًا في الماء سلمان الفارسي ، فعامت بهم الخيل ، وسعد يقول : «حسبـنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرَنَّ الله وليَّـه ، وليظهرنَّ الله دينه ، وليـهـزمنَّ الله عـدوه ، إنْ لم يكن في الجـيش بَغْي أو ذنوب تغلب الحسنات» [2] وهذا حُسْن ظن بالله تعالى ، وثقة عظيمة بتحقق وعـده أوليائه بـالنصر ، ثم إدراك دقـيق لعـوامل تخلف ذلك حـيث اشتـرط خُلُوَّ الجـيش من الظلم والعدوان ومن الذنوب الأخـرى التي تغلب الحسنات .

فجـميع النصـوص التي فيهـا الوعد بنصـر المؤمنين وتمكينهم في الأرض حق لامرية فيه ، ويجب على المسلـمين أن يؤمنوا بها ويتحقَّق وقـوعهـا ، ولكن مع تجرد قـلوب المسلمين من تعظيم طغـاة البشـر والخوف منهم ، وتجرد ألسنتهم من الثناء عليهم وتعداد محامدهـم ،أو بعبارة أخـرى أن يكون من توجهوا لهذا الأمـر من الموحدين ، ثـم أن ينزهوا أنفسهم عن الظلم والعدوان ، فإن الظالمين قد يُديل الله عليهم جبابرة الـكفار وإن كانوا أبعد منهم عن الهـدى المنحرف بمراحل ، ثم أن ينزعوا أنفسهم عن المعاصي التي تغلب الحسنات كما جاء في تعبير سعد رضي الله عنه ، ومن ذلك الكبائر والإصرار على الذنوب وعدم

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١١-١٢ .

المبالاة بآثارها، ولم يأت في استثناء سعد ذكر التوحيد ، وإنما ذكر البغي والمعاصي لأن الذين معه كانوا جميعًا من الموحدين .

وهذه المعاني مذكورة في قول الله تعالى ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (١) .

فالعبادة تشمل تطبيق الإسلام في جميع شئون الحياة فكل عمل مشروع أراد به فاعله وجه الله تعالى فهو عبادة (٢) .

واجتناب الشرك يعني إخلاء القلب وتجريده من أي اعتقاد يزاحم وجود الإيمان بالله تعالى وذلك كالخضوع للطغاة وتعظيمهم والخوف منهم ، أو التعلق بالدنيا على أنها غاية يُعمل من أجلها ، وما يترتب على اعتقاد القلب من الأقوال والأعمال الشركية .

قال الرواة : فقال له سلمان : الإسلام جديد ، ذُلِّلتْ لهم والله البحور كما ذُلِّلَ لهم البر ، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرُجنَّ منه أفواجا كما دخلوه أفواجا (٣).

وقول سلمان رضي الله عنه : الإسلام جديد ، يعني لازال حيا واتباعه أقوياء الإيمان معتزون به ، وقد جعلوه قضيتهم التي من أجلها يحيون ومن أجلها يموتون ، وإليها يَدْعون وعنها يدافعون ، أما حينما

---

(١) سورة النور / ٥٥ .

(٢) ينظر كتاب « شمول العبادة في الإسلام » للمؤلف .

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ١١ - ١٢ .

يتقادم العـهد فإنه تأتي أجيال ترث هذا الدين وراثة لا اخـتياراً ، ولا تجعله القـضية التي تأخـذ على أفرادها مشـاعرهـم واهتمـاماتهم ، بل يجعلون همـهم الأكبر هو العلو في الدنيا والتـمتع بمتاعهـا ، ويصبح الدين أمر ثانويًا في قاموس حياتهـم ، فعند ذلك يخرجون منه أفواجًا كما دخلوه أفواجًا.

هذا وقد تم عـبور المسلمين جـميـعًا سالمين لم يُصَب أحـد منهم بأذى كما جاء في عدة روايات أخـرجها الإمام الطبري ، ولم يقع في النهر منهم إلا رجل واحـد كما جاء في رواية أبي عثـمان النهدي : أنهم سلموا من عند آخرهم إلا رجـلا من بارق يدعى " غرقدة" زال عن ظهر فرس شـقراء كأني أنظر إليهـا تنفض أعرافها عُـريًا والغريق طاف، فثنى القعقاع ابن عمرو عنان فرسـه إليه فأخذ بيده فجرّه حتى عبر ، فـقال البارقي - وكان من أشد الناس - أَعْـجَزْتَ الأخوات أن يلدن مثلك ياقعقاع، وكان للقعقاع فيهم خؤولة[1] .

وهذه منقبة للقعقاع تضاف إلى مناقبه الكثيرة في الشهامة والبطولة والنجدة .

هذا وقد كان عبور المسلمين مفاجأة للفرس لم يكونوا يتوقعونها ، ولم يحسبوا لها حسابا ، حيث إنَّ قطع النهر وهو بتلك الكثافة والقوة في الجريان لا يمكن أن يتم إلا بالسفن عادة .

ولقد كان بإمكان الفـرس لو توقعوا هذا العبور أن يجهـزوا جيشًا على السفن يقاتلون به المسلمين بحـيث لايمكنونهم من العبور ، ولكن الله تعالى قدر جريان النهر بتلك الكثافة المـفاجئة كما جاء في إحدى

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٢ .

الروايات « وفَجئَـهم المدُّ » وفي عبارة أخرى « وفي سنة جَوْدٍ صيـفها متتابع» .

قدر الله سبحانه ذلك ليطمـئن الفرس على عدم وصول المسلمين إليهم لعلمهم بأن فيـضان النهر يستمر عدة أشهـر حسب المعتاد وليس لدى المسلمين سفن يعبرون عليها .

فكان عبـور المسلمين في تلك الحال مفـاجأة أذهلت الفرس كـما جاء في رواية سـيف السابقة : فَفَـجَئُوا أهل فـارس بأمر لم يكن في حسابهم ، فأجهضوهم وأعجلوهم عن جمهور أموالهم [١] .

وفي رواية أخرى عن أبي مالك حبيب بن صـهبان قال : لما عبر المسلمون يوم المدائن دجلة ، فنظروا إليهم وهم يعبرون جعلوا يقولون بالفـارسية « ديوان آمـد » - قال أبو بكر بـن سيف : يعني قـد جاء الشيطان- وقالوا بعضهم لبعض : والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن ، فانهزموا [٢].

وهكذا كـانت هذه الكرامـة العظيمـة التي أكـرم الله بها أوليـاءه المؤمنين من عبور النـهر سببًا في فزع الأعـداء وهروبهم وجلائهم عن عاصـمة مـلكهم، وقد اعـتبـروا أن عبـور المسلمين بدون سفن أمـر لايجري من الإنس عادة وإنما يمـكن من الجن الذين مكّنهم الله تعالى من الطيران في الهـواء وغير ذلك مما لايبلغه الإنس ، فنادى بـعضهم بعضا بالتحريض على الفـرار ، لأنه لاطاقة لهم بقتال من جرى منهم هذا الأمر الخارق .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٤ .

وبعد ذكر خبر العبور أحبُّ أن أبين أن عبور النهر لم يكن أمراً عاديًا كما يصوره بعض الكتاب المعاصرين حيث يرون بأن الخيل تعوم عادة في الماء ، وأنهم استخدموها للعبور كما تُستخدم السفن ، وهذا التصوير مخالف لسياق الخبر ، فلو كان الأمر عاديا لما تحيَّر سعد وتردد في العبور، ولما كان لحيازة الأعداء جميع السفن إلى شاطئهم فائدة تذكر ، ومما يدل على أن العبور كان خارقًا للعادة أن الفرس لما رأوا المسلمين يسيرون في النهر فوق ظهور الخيل ذهلوا من هول المفاجأة وقالوا :والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن كما تقدم.

ومما يدل على ذلك أيضًا ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن عمير الصائدي قال : لما أقحم سعد الناس في دجلة اقترنوا فكان سلمان قرين سعد إلى جانبه يسايره في الماء ، وقال سعد : ذلك تقدير العزيز العليم، والماء يَطْمُو بهم ، وما يزال فرس يستوي قائمًا إذا أعيا يُنْشَز له تلعة فيستريح عليها كأنه على الأرض فلم يكن بالمدائن أعجب من ذلك ، وذلك يوم الماء ، وكان يُدْعَى يوم الجراثيم- يعني من كثرة مارفع للمسلمين من الأرض و سط النهر -.

وأثبت ذلك أيضًا سيف بن عمر فيما يرويه عن شيوخه قالوا: كان يوم ركوب دجلة يُدْعَى يوم الجراثيم ، لايَعيا أحد إلا أُنشِزت له جرثومة يريح عليها (١).

ومن الغريب أن بعض الكتاب المعاصرين يفسر ذلك بالجُزُر النهرية التي تكون أحيانًا في وسط الأنهار ، فهل كان الرواة الأوائل

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٣ .

من الغباء بحيث لايعرفـون الجزر النهرية ؟ ولو كان هناك جزر لوقف عليـها طائفـة من الجند على الأقل ولم تكن خاصـة بأفراد يـصيبـهم الإعياء .

ومما يدل أيضًـا على كون الأمـر خارقًـا للعادة مـاتقدم من قـول سلمان رضي الله عنه عن المسلمين : ذُلِّلت لهم والله البحور .

فلو كان الأمر اجتيازًا معتادًا لما كان لهذا القول حاجة .

ومما يدل على ماذكـرنا أيضًا ما أخرجه الإمـام الطبري من طريق سيف عن قـيس بن أبي حازم قال : خضنـا دجلة وهي تطفح ، فلما كنا في أكثرها ماء لم يزل فارس واقفا ما يبلغ الماء حزامه[1] .

فـإذا كان الماء لايبلغ أحـزمة الخـيل مع أنهم في أغـزر مكان من دجلة فهل يُتصور أن الخيل كانت تسير على أقدامها في أرض النهر مع ماذكـر الرواة مـن عمق النهر وغزارته ومَـدِّه العظيم في تـلك الأيام ؟ أم هـل يُتصور أن لدى الخـيل قوة على العوم وهي تحمل راكبـيها ثم لايبلغ المـاء أحزمتها ؟

إن ذلك كله لايمكن تصـوره ، ولكن المؤمـن الذي هو على علم ويقين من أمر الله تعالى يدرك أن قدرته تعالى فوق كل شيء وأنه هو الذي حمل ذلك الجيش الكبير بقدرته تعالى ولطفه ومَنِّه .

كمـا يدل عليه أيضًا مـاجاء في رواية أبي عـثمان النهـدي قال: طبَّقنا دجلة خيلاً ورَجْلاً ودوابَّ[2] .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٠ .

فهذا يدل على أن العبور غير مقتصر على الخيل ، وأنه كان هناك مشاة يسيرون على أقدامهم ودواب أخرى .

أما الفرس فإنهم لما علموا ببدء عـبور المسلمين بعثوا من الفرسان حامية تعوق تقدمهم حتى يتمّ جلاؤهم .

وقـد قاومت هذه الحـاميـة بعض الوقت ، وخرج ملك الفـرس يزدجرد إلى حلوان ، وخلت المدائن من الجيش الفارسي إلا حامية في القصر الأبيض .

وقد دخل المسلمون المدائن الغربية فلم يجدوا مقاومة حتى وصلوا إلى القصـر الأبيض فامـتنعت به حامـيتـه،وقد دعاهم المسـلمون إلى الإسلام،وكان الذي تولى ذلك سلمـان الفارسي رضي الله عنه حيث قال لهم :إني منكم في الأصل وأنا أرقّ لكم،ولكُم فيّ ثلاث أدعوكم إليها ما يصلحكم :أن تسلموا فـإخواننا،لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإلا فالجزية ،وإلا نابذناكم على سواء إن الله لايحب الخائنين .

ولما كان اليوم الثالث قبل أهل القصر الجزية وخرجوا[1] .

ولما دخل سعد المدائن فرأى خلوتها وانتهى إلى إيوان كسرى أقبل يقرأ ﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ** ﴾ [الدخان :٢٥-٢٨][2] .

مواقف من أمانة المسلمين :

لما فتحت المدائن وجّه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فِرقًا من

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٦ .

المسلمين لتتبُّع المنهزمين وجمع الغنائم ، وقد أدَّوا تلك الغنائم بكل أمانة وإخلاص ، وقد رُويت في ذلك أخبار تدل على مبلغ أمانتهم .

فمن ذلك ما قام به زُهرة بن الحويَّة قائد المقدمة ، حيث خرج يتبع المنهزمين فأدرك بعضهم على جسر النهروان ، فازدحموا فوقع بغل في الماء ، فعجلوا واجتمعوا عليه ، فقال زهرة : إني أقسم بالله إن لهذا البغل لشأنا ، ما كَلب القوم عليه ولاصبروا للسيوف بهذا الموقف الضَّنك إلا لشيء بعدما أرادوا تركه ، وترجَّل زهرة يومئذ حتى إذا أزاحهم أمر أصحابه بالبغل فاحتملوه فأخرجوه فجاؤوا بما عليه حتى ردَّه إلى الأقباض ما يدرون ما عليه وإذا الذي عليه حلية كسرى ثيابه وخرزاته ووشاحه ، ودرعه التي كان فيها الجوهر ، وكان يجلس فيها للمباهاة[1] .

وهكذا جمع زهرة في هذا الخبر بين الدهاء حيث أدرك أن وراء اهتمام الفرس بذلك البغل سرّاً ، والشجاعة حيث ترجل عن فرسه وقاتل أولئك القوم ، والأمانة حيث سلَّم ما على البغل من غير أن ينظر فيه .

ومنها خبر الكَلَج الضبيٍّ وقد خرج للطلب فوجد اثنين من البغَّالين فقتلهما بعد أن أفلت من سهامهما ، ثم ساق البغلين حتى سلَّمهما لصاحب الأقباض ، وإذا فيهما تاج كسرى ، وفيهما الجوهر وثياب كسرى من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر .

ومنها خبر القعقاع بن عمرو وقد لحق بفارسي يحمي الناس فقتله، وإذا معه غلافان وعيبتان ، وإذا في أحد الغلافين خمسة

(١) تاريخ الطبري ١٧/٤ ، بتصرف .

أسيـاف وفي الآخر ستـة ، وهي من أسياف المـلوك من الفرس ومن الملوك الذين جـرت بينهم وبين الفرس حـروب وفيهـا سيف كـسرى وسيف هرقل وإذا في العيبتين أدراع من أدراع الملوك وفيها درع كسرى ودرع هرقل ،فجاء بهـا إلى سعد ، فقال : اختـر أحد هذه الأسياف فاختـار سيف هرقل ، وأعطاه درع بهرام ،وأما سـائرها فنفلها كتـيبة الخرساء التي هي بقيا دة القعقاع،إلا سيف كسرى والنعمان ،فقد رأى أن يبعثهما إلى أمير المؤمنين لتسمع بذلك العرب لمعرفتهم بهما[1].

ومنهـا مارواه أبو عـبيدة العنبـري قال: لما هبط المسلمـون المدائن وجـمعـوا الأقـباض أقـبل رجل بِحُقٍّ مـعه ، فـدفـعه إلى صـاحـب الأقباض، فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدله ماعندنا ولايقاربه ، فقالوا : هل أخذت منه شيئًا ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فـعرفوا أن للرجل شأنا فقـالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتـحمدوني ، ولا غيركم ليقـرِّظوني ، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه ، فأتْبـعوه رجلا حتى انتهى إلى أصحـابه ، فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس [2] .

ومنها ما رُوي عن عصمة بن الحارث الضَّبِّي قال : خرجت فيمن خرج يطلب ، فـأخذت طريقًا مسلـوكًا وإذا عليه حَمَّـار ، فلما رآني حثَّه فلحق بآخر قدامـه ، فمالا وحثًّا حماريهما ، فـانتهيا إلى جدول قد كُـسر جسـره فثبتـا حتى أتيتـهما ، ثم تفـرقا ، ورماني أحـدهما فـألَظَظْت به [يعني تبـعتـه] فقـتلتـه وأفلت الآخر ، ورجـعت إلى

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٨ ، بتصرف .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٩ .

الحمارين ، فأتيت بهما صاحب الأقباض ، فنظر فيما على أحدهما فإذا سَفَطان في أحدهما فرسٍ من ذهب مسرج بسرج من فضة على ثَفْره [1] ولبَبَه الياقوت والزمرد منظوم على الفضة ولجام كذلك ، وفارس من فضة مكلَّل بالجوهر، وإذا في الآخر ناقة من فضة عليها شليل[2] من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب ، وكل ذلك منظوم بالياقوت ، وإذا عليها رجل من ذهب مكلل بالجوهر ، كان كسرى يضعهما إلى اسطوانتَي التاج[3] .

وبَعْدُ فهذه نماذج من وقائع كثيرة تدل على صدق أولئك المجاهدين وأمانتهم ، وتجردهم من مصالحهم الخاصة ، فإن الذي جمعوه وأدَّوه يعتبر من أعظم عجائب الدنيا ونفائسها ويكفي في تقدير قيمته أنه عنوان حضارة الفرس المادية ، حيث ظل الأكاسرة يجلبونه بالأموال العظيمة، ويصنعون منه تلك المظاهر الدنيوية الخادعة .

وإنَّ أداء هذه الأموال والنفائس العظيمة مع إمكان إخفاء بعضها دليل على قوة إيمان أولئك المجاهدين ، وإذا كانت هذه حالهم فلا غرابة في محالفة النصر لهم بما يشبه خوارق العادات أو بما هو من خوارقها .

ولقد أثنى على ذلك الجيش أكابر الصحابة رضي الله عنهم ، فمن ذلك قول سعد بن أبي وقاص : والله إن الجيش لذو أمانة ولولا ماسبق لأهل بدر لقلت على فضل أهل بدر .

---

(١) هو السير الذي في مؤخرة السرج .

(٢) هو ما يوضع على عجز البعير .

(٣) تاريخ الطبري ٤/ ١٨ - ١٩ .

وقول جابر بن عبد الله : والله الذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة ، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كالذي هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم : طليحة بن خويلد، وعمرو بن معد يكرب ، وقيس بن المكشوح .

وأكبر من ذلك ثناء أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عليهم لَمَّا رأى خُمس تلك الغنائم كما أخرج الإمام الطبري من طريق سيف عن مخلد ابن قيس العجلي عن أبيه قال : لما قُدم بسيف كسرى على عمر ومنطقته وزبرجده قال : إن قوما أدَّوا هذا لذَوُوا أمانه ، فقال علي رضي الله عنه: إنك عففتَ فعفَّت الرعية ، ولو رتَعْتَ لرَتَعَتْ [1] .

وصول نوادر الغنائم إلى المدينة وموقف لعمر :

هذاولما قسم سعد غنائم المدائن العظيمة أرسل إلى أمير المؤمنين عمر بالأخماس وأرسل معها نوادر من لبس كسرى وفرشه وأشيائه الخاصه ، واستأذن الجيش في ذلك فأذنوا وطابت بذلك نفوسهم ، ولما وصل ذلك إلى المداينة ورآه أمير المؤمنين فزع لمنظره وذكَرَ به حقارة الدنيا وحقارة من اغتر بها ، وقد أراد أن يُلقي على المسلمين في المدينة درسًا عمليّا في التزهيد بمظاهر الدنيا ، وقد ذكر خبر ذلك الحافظ ابن كثير من رواية الهيثم بن عدي قال: أخبرنا أسامة بن زيد الليثي قال حدثنا القاسم بن محمد بن أبي بكر قال : بعث سعد بن أبي وقاص أيام القادسية إلى عمر بقباء كسرى وسيفه ومنطقته وسوارَيْه وسراويله وقميصه وتاجه وخفَّيه - وقد كانت كما في روايات أخرى من مواد غالية الثمن كالحرير والذهب والجوهر - قال : فنظر عمر في وجوه

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٩ - ٢٠ ، البداية والنهاية ٧/ ٦٧ .

القوم ، وكـان أجسمـهم وأبدنهم قامة سـراقة بن مالك بن جـعشم ، فقال: ياسُرَاقَ قم فالبس ، قال سراقة: فطمعت فيه ، فقمت فلبست فقـال: أدبر فأدبرت ، ثم قـال : أقبل فـأقبلت ، ثم قـال بخ بخ ، أعيـرابي من بني مدلج عليـه قباء كـسرى وسراويله وسـيفه ومنطقـته وتاجه وخفاه ، رب يوم ياسراق بن مـالك لو كان عليك فيه هذا من متـاع كسرى وآل كسـرى كان شرفًـا لك ولقومك، انزع ، فنزعت ، فقـال : اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبـيك وكان أحب إليك مني وأكـرم عليك مني ، ومنعـته أبا بكر وكـان أحب إليك مني وأكـرم عليك مني ، وأعطيتنيه فأعـوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكر بي ، ثم بكى حتـى رحمه من كـان عنده ، ثم قال لعـبد الرحـمن بن عوف: أقسمت عليك لما بِعْته ثم قسمته قبل أن تمسي [1] .

وهكذا جسَّم عـمر رضي الله عنه مظاهر الدنيا الخلابـة الخداعة، حينما ألبس سراقة متاع كسرى ، وكأنه يقول : انظروا إلى قمة مظاهر الدنيا التي بُذلت فيها آلاف الدنانير ، ثم ما الذي أغنته عن صاحبها؟ فها هو في حياته الدنيا يُطرد من كل بلد ، ويعيش في رعب وخوف، ثم هو في الآخرة من أصحاب الجـحيم ، فهل جلبت له هذه المظاهر السعادة في الدنيا والآخرة ؟ وهل دفعت عنه ما يكره في الدارين ؟

الواقع أنها تهـاوت كما تتهـاوى الخرائب ، وسقط معـها كل من انخدع بها .

ثم يشير عمر رضي الله عنه بقوله « رب يوم ياسراق بن مالك لو كـان عليك فيـه هذا من متـاع كـسرى وآل كـسرى كـان شرفـا لك

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ٦٨ .

ولقومك». . يشير إلى أن العرب في جاهليتهم ليسوا أحسن حالاً من غيرهم في الاغترار بمظاهر الدنيا ، فقد كانوا يعظمون أهل هذه المظاهر ، فلو غنم هذه المغانم أهل الجاهلية ولبسوها لاعتبروا ذلك شرفا لهم ، أما وقد غنمها المسلمون فإنهم لن يستحلوا لبسها ، ولن يروها شيئًا يذكر، لأن الله سبحانه أعزهم بالإسلام فلا عزة لهم بغيره.

وبعد أن تم ما أراده عمر من تحقير مظاهر الدنيا مرت عليه لحظات من محاسبة النفس غلب عليه فيها جانب الخوف من الله عز وجل، فقارن بين حياته وحياة خليليه السابقين رسول الله ﷺ وخليفته أبي بكر رضي الله عنه ، فرأى أنهما قد سلما من رؤية هذه المظاهر فخشي أن يكون قد ابتلي بها استدراجًا ، فسَخَتْ عيناه بدموع هملت من سحب الخشية ، وتحدَّرت من منابع الحزن ، حتى أشفق عليه أصحابه مما يرونه يعاني من الحزن المضني والتأثر العميق ، وماذاك إلا لقوة معرفته بالله تعالى ، ومن كان بالله أعرف كان من الله أخوف.

وهكذا فُتحت مدينة « المدائن » عاصمة دولة الفرس التي كانت تملك أكثر من نصف الأرض الشرقي .

فيا تُرى لو كان الفاتحون من غير المسلمين هل يتركون تلك المدينة وقصرها الأبيض المشهور وإيوان كسرى ؟!

إن البدهي في منطق العقول المعتادة أن ينتقل حاكم المسلمين وأميرهم من المدينة المنورة ذات المباني الطينية والخشونة في العيش ليعيش في قصور الأكاسرة ، وليجعل من حاضرة ملكهم التي تم بناؤها بجهود ضخمة عاصمة لدولة الإسلام .

وإذا لم يتم ذلك فـلا أقل من أن يتـربع على عـرش تلك المدينة والي العراق والمشرق .

ولكن أمير المؤمنين عمـر رضي الله عنه لم يفعل ذلك، ولم يفعله أيضاوالي العـراق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . . ذلك لأنـهما من قوم زكى الله تعـالى قلوبهم وطهر سرائـرهم ،فطمحت أنظارهم وأفكارهم نحو قـصور الجنة ونعـيمها الـدائم . . فرأوا أن أيّ تنعم في الدنيا ينقص من رفعة درجاتهم في الجنة .

* * *

مواقف وعبر
فى
فتـــوح المشـــرق

١ – موقعة جلولاء –

ذكر الإمام محمد بن جرير الطبري عدة روايات عن موقعة جلولاء من طريق سيف بن عمر عن شيوخه وخلاصتها أن الأعاجم لما هُزموا مرات عديدة في المعارك التي خاضوها مع المسلمين والتي كان آخرها معركة القادسية وفتح المدائن،اجتمعوا على مفترق الطرق إلى مدائنهم في جلولاء فتذامروا وقالوا :إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً، وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم فإذا كانت لنا فهو الذي نريد وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا وأبلينا عذرا ، واجتمعوا على قيادة مهران الرازي ،وحفروا خندقًا حول مدينتهم ،وأحاطوا به الحسك من الخشب إلا الطرق التي يعبرون منها.

وقد كتب سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين عمر يخبره بذلك، فكتب إلى سعد يأمر ببعث هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى جلولاء في اثني عشر ألفا ، وأن يجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي وعلى ميمنته مسعر بن مالك ، وعلي ميسرته عمرو بن مالك ابن عتبة وعلى ساقته عمرو بن مرة الجهني .

وسار إليهم هاشم بجيشه فحاصرهم وطاولهم أهل فارس فكانوا لايخرجون لهم إلا إذا أرادوا ، وزاحفهم المسلمون ثمانين زحفا ، كل ذلك يعطي الله المسلمين عليهم الظفر ، وغلبوا المشركين على حسك الخشب التي اتخذوها لإعاقة المسلمين فاتخذ الأعداء حسك الحديد .

وجعل هاشم يقوم في الناس ويقول : إن هذا المنزل منزل له

مابعده وجعل سعد يمده بالفرسان ، حتى إذا طال الأمر وضاق الأعداء من صبر المسلمين اهتموا بهم فخرجوا لقتالهم ، فقام هاشم في الناس فقال: أبلوا الله بلاء حسنا يتم لكم عليه الأجر والمغنم واعملوا لله ، فالتقوا فاقتتلوا، وبعث الله عليهم ريحًا أظلمت عليهم البلاد فلم يستطيعوا إلا المحاجزة ، فتهافت فرسانهم في الخندق فلم يجدوا بداً من أن يردموا الخندق مما يليهم لتصعد منه خيلهم فأفسدوا حصنهم .

أقول : وهذا مثل من أمثلة كثيرة يقيض الله فيها أسبابًا ترجِّح كفة المسلمين مما يدل على قرب الله تعالى من أوليائه وإمدادهم بالنصر والتأييد كلما ادلهمَّت بهم الخطوب وتوالت عليهم المحن .

فالمسلم مأمور بأن يستمر في العمل بالأسباب المشروعة التي سخرها الله سبحانه له وجعلها مجالاً لجريان أقداره على ما يشاء ويقدر جل وعلا، مع شعوره الدائم بمعية الله له بالعلم والنصر والتأييد وظهور آثار عبوديته لربه جل وعلا بالخضوع له والدعاء والعبادة .

جاء في الرواية المذكورة « فلما بلغ المسلمين ما قام به الأعداء من ردم الخندق قالوا : أننهض إليهم ثانية فندخله عليهم أو نموت دونه ؟ فلما نهض المسلمون لقتالهم خرجوا فرَموا حول الخندق مما يلي المسلمين بحسك الحديد لكيلا تقدم عليهم الخيل وتركوا مكانا يخرجون منه على المسلمين فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثله إلا ليلة الهرير وهي من ليالي القادسية إلا أنه كان أقصر وأعجل » .

وهذا مثل من حزم المسلمين آنذاك واهتبالهم الفرص المناسبة

للنكاية بالأعداء بالرغم مما أصاب المسلمين من الإنهاك المتواصل، وبذل مافي الوسع من الطاقة والقوة ، وهو دليل على قوتهم في المصابرة على القتال المستمر ، وقد نجحوا أكثر من مرة بسبب ذلك في الظفر على الأعداء ،وكانت اللحظات الحاسمة تأتي بتفوق المسلمين في المصابرة بعد ملاحظة قوة أملهم بالله تعالى .

قال : « وانتهى القعقاع بن عمرو في الوجه الذي زاحف فيه إلى باب خندقهم فأخذ به وأمر مناديًا فنادى : يامعشر المسلمين هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به فأقبلوا إليه ولايمنعنّكم مَنْ بينكم وبينه من دخوله- وإنما أمر بذلك ليقَوِّي المسلمين به - فحمل المسلمون ولا يشكُّون في أن هاشمًا فيه فلم يقم لحملتهم شيء حتى انتهوا إلى باب الخندق فإذا هم بالقعقاع بن عمرو وقد أخذ به و أخذ المشركون في هزيمة يمنةً ويسرةً عن المجال الذي بحيال خندقهم ، فهلكوا فيما أعدوا للمسلمين فعُقرت دوابهم [يعني بسبب حسك الحديد التي أعدوها للمسلمين] وعادوا رجّالة ، وأتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم إلا من لايُعَدّ ، وقتل الله منهم يومئذ مائة ألف ، فجَلَّلت القتلى المجال ومابين يديه وماخلفه ، فسميت جلولاء بما جللها من قتلاهم ، فهو جلولاء الوقيعة » .

وهكذا تمت اللحظات الحاسمة في هذه المعركة على يدي القعقاع ابن عمرو كما تمت بذلك معركة القادسية وغيرها ، فلله دره من بطل دوّخ أعداء الإسلام بشجاعته النادرة ومصابرته المضنية وتخطيطه الحربي المدهش ، وذلك يدل على قوة إيمانه بالله تعالى وعظيم ثقته بنصره وتأييده .

ومن عجائب هذه المعركة أن المسلـمين تفوقوا على أعدائهم وكان النصـر حليـفهم في جـمـيع اللقاءات بـينهم ، حتى كـانت النهـاية لصالحهم، مع أن الأعداء يفوقونهم كثيرا في الاستعداد الحربي ، فقد حفروا خندقًـا عميقًا حـول مدينتهم لايمكن اجتيـازه ، فضمنوا بذلك حصنًا منيـعًا يحـميهم، ثم وضـعـوا عوائق مـن الخشب تَصُدُّ خـيول المسلمين عن التقـدم، ولما غلبهم المسلمون على هذه العـوائق فأبطلوا مفعـولها وضع لهم الأعداء حسك الحديد دونهـا، واستطاع المسلمون بتوفيق الله تـعالى ، ثم بمهارتهم في التخطيط الحـربي أن يتفادوا قطَع الحديد تلك ، وركزوا هجومهم على المجال الخالي الذي تركه الأعداء لهم ليخرجوا منه إلى المسلمين ، كما مر في صنيع القعقاع بن عمرو.

ولما كان الأعـداء قد خـرجوا في ذلك اليوم الذي حُـسمت فـيه المعركة لقتال المسلمين فإن القعـقاع بن عمرو ومن معه من الأبطال قد غلبـوا على المجال الذي يسـتطيـعون أن يعـبـروا منه إلى مدينتـهـم ، واضطروهم بالضـغط الـشديد إلـى أن يذهبـوا يمنة ويسـرة عن ذلك المجال، فتورطوا بحسك الحديد التي أعدوها لخيول المسلمين ، فوقعت بها خيـولهم ، واضطروا إلى ترك الخيول وأن يقاتلوا مشـاة على غير نظام ، وإذا كان الأعداء لم يثبتوا للمسلمين وهم على خيولهم في كل الحروب التي خاضـوها معهم فكيف يثبتـون لهم وهم مشاة ؟ ولذلك كانت تلك نهـايتهم ، وعاد عـليهم سلاحـهم الذي وضعوه لتـعويق المسلمين فتورطوا به، وكسب المسلمون المعركة .

هذا وقد ذكـر الطبري أن سعد بن أبي وقـاص بعث زياد بن أبيه

بالحسابات المالية إلى أمير المؤمنين ، وكان زياد هو الذي يكتب للناس ويدونّهم فلما قدم على عمر كلمه فيما جاء له ووصف له فقال عمر : هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به ؟ فقال والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك ، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك! فقام في الناس بما أصابوا وبما صنعوا، وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد ، فقال عمر : هذا الخطيب المصقع ، فقال زياد : إن جندنا أطلقوا بالفَعال لساننا[1] .

وقول زياد لعمر « والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك » لايريد زياد هيبة الضعفاء المغلوبين على أمرهم من الجبارين الطغاة، ولكنها هيبة الأقوياء الأحرار من العظماء الذي وقرت محبتهم المشوبة بالإجلال والإكبار في نفوس المؤمنين .

وهو شاهد حي على ما يَمُنُّ الله به على أقوياء الإيمان من تسخير القلوب لهم وملئها بالهيبة منهم ، فكلما عظم الله تعالى في قلب المؤمن عظمت مكانته بين الناس ، وإذا كان حاكما فإنه لايحتاج إلى كثير من البشر لحماية أَمْنه وأَمْن دولته ، لأنه قد أمن جانب المؤمنين الذين يَعتبرون طاعته طاعة لله تعالى وإكرامه إجلالا له جل وعلا كما جاء في قول رسول الله ﷺ « إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط » أخرجه الإمام أبو داود بإسناد حسن [2].

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤-٢٩ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب / ٢٠ .

وهكذا انتهت معركة جلولاء بانتصـار المسلمين ، وقد غنموا فيها مغانم عظيمـة أرسلوا بأخماسها إلى أميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه فـقـال حين رآه : والله لايُجنّه سـقف بيـت حتى أقـسـمـه فـبـات عبدالرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم يحرسانه في صحن المسجد ، فلما أصبح جاء في الناس فكشف عنه جلابيبه - وهي الأنطاع - فلما نظر إلى ياقـوته وزبرجده وجـوهره بكى ، فقـال له عبد الـرحمن : مايبكيك يا أمـير المؤمنين فـو الله إن هذا لموطن شكر ! فقال عـمر : والله مـاذاك يبكيـني، والله مـا أعطَى الله هذا قـومًـا إلا تحـاسـدوا وتباغضوا ، ولاتحاسدوا إلا أُلقِيَ بأسهم بينهم[1] .

وهكذا فزع عمر رضي الله عنه حينما رأى كثرة ذلك المال وخشي من مسئوليته فأقسم أن لايستره سقف بيت حتى يقسمه ، ثم بكى لما رأى تنوع مظاهر الدنيا في ذلـك المال ، وخشى على الأمة الإسلامـية من حياة الترف ومايتنج عنها من تباغض وتحاسد ، ومايعقب ذلك من شقاق وعداء.

وهذا لون من حـسـاسيـة الإيمان المرهفـة ، حـيث يدرك المؤمن الراسخ من نتائج الأمور المستقبلية ما لايخطر على بال غيره ، فيحمله الإشفاق على المؤمنين من أن يـكدر صفو علاقاتهم الإيمانيـة شائبة من شـوائب الدنيا الـتي تباعـد بين القلوب . . يحـمله ذلك على التـأثر العميق الذي يصل إلى تحدر دموعه أمام الناس .

وإنه لعجيب أن تهطل الدموع مـن عيني رجل بلغ من القوة حدًا

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٣٠ .

يخشاه أهل الأرض قاطبة مسلمهم وكافرهم ومنافقهم ، ولكنها الرحمة التي حلَّى بها الله جل وعلا قلوب المؤمنين . فأصبحوا كما وصفهم الله سبحانه بقوله ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [**الفتح** : ٢٩]

وإن أغزر الأنهار مياهًا لتنحدر من شواهق الجبال الرواسي .

* * *

٢ - غزوة فارس من جهة البحرين -

أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أقر العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه على إمرة البحرين ، وكان قد فتحها وقضى على المرتدين فيها في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، ونهاه عمر عن غزو فارس من البحر ، خوفًا من تعريض المسلمين للهلاك والحصر من الأعداء ، ولكن العلاء خالف أمر عمر ، فندب أهل البحرين لغزوة فارس من البحر وفرقهم أجنادًا ، على أحدها الجارود بن المُعَلَّى ، وعلى الآخر السوّار بن همّام وعلى الآخر خُلَيد بن المنذر بن ساوى ، وخليد على جماعة الناس ، فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس ، فخرجوا في "اصطخر" ، وبإزائهم أهل فارس ، وعلى أهل فارس « الهربذ » اجتمعوا عليه [١] ، فحالوا بين المسلمين وسفنهم ، فقام خليد في الناس فقال : أما بعد فإن الله إذا قضى أمراً جرت به المقادير حتى تصيبه ، وإن هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم إلى حربهم ، وإنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب ، فاستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، فأجابوه إلى ذلك فصلوا الظهر ، ثم ناهدوهم فاقتتلوا قتالاً شديداً في موضع من الأرض يُدْعَى « طاوس» فَقُتِل أهل فارس مقتلة لم يقتلوا مثلها قبلها .

ثم خرج المسلمون يريدون البصرة وقد غرقت سفنهم فلم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلا ، ثم وجدوا « شهرك » أحد قادة الفرس

---

(١) يعني على توليته القيادة .

قد أخذ على المسلمين الطرق ، فعسكروا وامتنعوا في مكان حصرهم.

ولما بلغ عمر الذي صنع العلاء من بعثه ذلك الجيش في البحر ألقي في روعه نَحْوٌ من الذي كان ، فاشتد غضبه على العلاء ، وكتب إليه يعزله وتوعده ، وقال : الحق بسعد بن أبي وقاص فيمن قبَلك ، فخرج بمن معه نحو سعد .

وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان : إن العلاء بن الحضرمي حمل جندًا من المسلمين فأقطعهم أهل فارس وعصاني ، وأظنه لم يرد الله بذلك فخشيت عليهم إنْ لاينصروا أن يغلبوا وينشَبوا ، فاندب إليهم الناس واضممهم إليك من قبل أن يُجتاحوا .

فندب عتبة الناس وأخبرهم بكتاب عمر ، فانتدب اثنا عشر ألفا بقيادة أبي سبرة بن أبي رهم أحد بني مالك بن حسل بن عامر بن لُؤَيّ، ومعه عدد من الوجهاء والشجعان ، فسار بالناس من طريق الساحل ولم يعرض له أحد ، حتى التقوا بخليد وأصحابه عقب معركتهم مع الأعداء وقد أُخِذَتْ عليهم الطرق .

وكان أهل اصطخر قد استصرخوا عليهم أهل فارس كلهم لما حصروهم فضربوا إليهم من كل أنحاء فارس ، فوافت أمداد فارس وقد وصل مدد المسلمين ، فالتقوا مع عدوهم فاقتتلوا ففتح الله على المسلمين وقَتَل المشركين وأصاب المسلمون منهم من شاؤوا ، ثم عادوا جميعًا إلى البصرة وكان عتبة أوصاهم بعدم الإقامة (١) .

ومن عرض هذا الخبر تبين أن الذي كان يخشاه عمر رضي الله

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٧٩ - ٨٢ .

عنه على المسلمين من الغـزو من البحـر قد حدث ، حـيث لم يصل المسلمون في فتوحهم من جهـة البر إلى ذلك المكان ، فانحصر الغزاة المسلمـون في بلاد عدوهم وسـدوا عليهم الطرق المؤدية إلى اخـوانهم المسلمين في العراق، وبدؤوا يخطّطون للقضاء عليهم ، فندبوا لهم من جيـوش فارس مالا قبل لـهم به ، لولا أن قيض الله تعالى لهم أمـير المؤمنين عمر فأدرك بإحساســه المرهف ويقظته الدائمة - بَعْد إلهام الله إياه - ماسيـؤول إليه أمر ذلك الجيش المحصـور ، فندب أهل البصرة لإنقاذه ، فكانت رحمة الله بهم، حيث تم إنقاذهم وهزيمة عدوهم .

هذا وإننا حـينما نتذكـر أسبـاب النصر الحـقيقـية التي بينـها الله سبـحانه ورسوله ﷺ نجد أن سـببًا من أهم تلك الأسبـاب قد تخلف حينما عزم العلاء على الغزو من البحر ، ذلكم هو طاعة القائد ، وقد كان أمير المؤمنين عمر هو القائد الأعلى للجهاد آنذاك ، وكان قد نهى ابن الحـضرمي عن الغـزو من البحـر ، فلم يلتزم بذلك وأقـدم على ماأقدم عليه، فكانت النتـيجة مصيبة كـبرى على المسلمين لولا ماقدره الله تعالى من عملية الإنقاذ المذكورة .

هذا إضافة إلى ما نتج عن ذلك من عزل العلاء بن الحضرمي عن البحرين وتعرضه لغضب أمير المؤمنين ووعيده .

ولم يشفع للعـلاء أنه هو الذي قضى على المرتدين في البـحرين وأنه أميـرها الذي استـقرت به أمـورها . ولا أنه صاحب الـكرامات المشهورة، فهو الذي بدعائه والصالحين معه نبع الماء من الرمال ، وهو الذي بدعائه والصالحين معه سار بجـيشه على البحر بدون مراكب .

كل ذلك لم يشفع له ، لأن منهج عـمر رضي الله عنه - وهو المنهج الإسلامي- أن المحسن يكافأ على إحسانه ويحاسب على إساءته ، فإذا أحسـن المسئـول كان مـوضع التقـدير والثناء ، وإذا أخطأ فلا يـجوز السكوت على خطئـه مـجاملة له ، لأن ذلك قـد يجـرِّئه على تكرار الخطأ ، وقد يجريء غيره على ارتكاب مثل ذلك .

ومن موقف عمر هذا يتبين لنا أن الكرامـات لم يكن لها كبير أثر في حياة الصـحابة رضي الله عنهم ، وأنه لم يكن يتم بموجبهـا تقييم الرجال ، وإنما كانوا يقيِّـمون بأعمالهم الصالحة ، وكـانوا يفهمون أن تلك الكرامـات إنما هي مدد من الله تعـالى لأوليائه عند احـتيـاجهم لذلك، أو سبب من الأسباب الـظاهرة لانتصار الإسلام ، ولاشك أن من جرت على يديه يوصف بالصلاح ، ولكن المعـول عليه في تقدير كفاءته والثقة به وإسناد المهمات إليه هو مايقدم من عمل صالح .

هذا وينبغي أن نشير إلى موقـف من مواقف الزهد في الجاه، فقد جاء في الخبر المذكور أن عتبة بن غزوان لما أحرز الأهواز وأوطأ فارس اسـتأذن أمـير المؤمنـين عمـر في الحج فأذن له ، فـلما قـضى حجـه استعفاه، فأبى أن يعفيـه وعزم عليه ليرجعنَّ إلى عمله ، فدعا الله ثم انصرف ، فـمات في بطن نـخلة ، فدفن ، وبلغ عـمرَ فمـرَّ به زائرًا لقبره وقال : أنا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم، وأثنى عليه بفضله (١) .

هذا وإن الزهد في الجاه دليل على أن الزاهد فـيه يفكر في هدف

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٨٢ .

هو أعلى من المتعة بحصوله ، ويخشى أن يؤثر طلبه على ذلك الهدف الأعلى، وإنما هذا الهدف الأعلى هو الرفعة في الحياة الآخرة ، ولكن إذا كان الإنســان مطمئنًا من كفاءتــه في العمل ومقدرته على الحــفاظ على رضوان الله تعالى وإن غضب عليه الناس ، فإنه بعمله في خدمة المسلمين يقدم لنـفسه عمــلا صالحًا يرفع ذكــره ومنزلته يوم القيــامة ، فالمؤمن الحق هو الذي يجعل رضــوان الله تعالى والدار الآخرة نصب عينيــه دائمًا، ثم يوازن بين بقــائه في العمل أو طلب الإعــفاء منه من منطلق الحصول على القدر الأعلى من هذا الهدف السامي .

* * *

٣ - فتح رامهرمز

كان الفرس قد بدؤوا بالتجمع مرة أخرى بتحريض من ملكهم يَزْدجرد ، فاجتمعوا في رامهرمز بقيادة الهرمزان .

وقد كان سعد بن أبي وقاص أخبر أمير المؤمنين بخبر اجتماعهم فأمره بأن يجهز إليهم جيشًا من أهل الكوفة بقيادة النعمان بن مقرن ، وأمر أبا موسى الأشعري بأن يجهز جيشًا من البصرة بقيادة سهل بن عدي، وإذا اجتمع الجيشان فعليهم جميعًا أبو سبرة بن أبي رهم ، وكل من أتاه فهو مدد له .

وخرج النعمان بن مقرن في أهل الكوفة ، ثم سار نحو "الهرمزان" - والهرمزان يومئذ برامهرمز - ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره الشدَّة ورجا أن يقتطعه ، وقد طمع الهرمزان في نصر أهل فارس ، وقد أقبلوا نحوه ، ونزلت أوائل أمدادهم بتستر ، فالتقى النعمان والهرمزان بأربُك ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم إن الله عز وجل هزم الهرمزان للنعمان ، وأخلى رامهرمز ولحق بتستر .

أما سهل بن عدي فإنه سار بأهل البصرة يريد رامهرمز ، فأتتهم المعركة وهم بسوق الأهواز ، وأتاهم الخبر بأن الهرمزان قد لحق بتستر، فمالوا إلى تستر ، ومال إليها النعمان بأهل الكوفة (١) .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤/٨٣ - ٨٤ .

٤ - فتح تَسْتَر -

وصل جيش النعمان بن مقرن وجيش سهل بن عدي إلى تستر، واجتمعا تحت قيادة أبي سبْرة بن أبي رُهْم ، وقد استمد أبو سبرة أمير المؤمنين فأمدهم بأبي موسى الأشعري فأصبح قائد جيش البصرة ، وظل أبو سبرة قائد الجيش كله .

وقد بقي المسلمون في حصار تستر عدة شهور قابلوا فيها جيش الأعداء في ثمانين معركة .

وظهرت بطولة الأبطال بالمبارزة فاشتهر منهم عدد بقتل مائة مبارز سوى من قتلوا في أثناء المعارك ، وقد ذُكر منهم : البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وكعب بن سور وأبو تميمة وهم من أهل البصرة ، وفي الكوفيين مثل ذلك ذُكر منهم حبيب بن قرة وربْعي بن عامر ، وعامر بن عبد الله الأسود .

هذا وإن إقدام الأعداء على الدفع بهذا العدد الكبير من المبارزين دليل واضح على استماتتهم في تلك المعارك واعتبارها مُقرِّرَة لمصير دولتهم ، ولكنهم قابلوا بحماسهم وتفانيهم جبالاً راسيات تتحطم أمامها جميع التيارات الجارفة .

وإنه لشرف عظيم ينصُر به هؤلاء الأبطال دينهم ، ويتوجون به أمتهم، ويرهبون به أعداءهم .

لقد حاول الأعداء بهذه السلسلة من المبارزات أن يستعيدوا شيئًا من معنويتهم المحطمة وكرامتهم التي مُرِّغت في التراب ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل أمام قوة المسلمين العظيمة ومعنويتهم العالية .

وإن استمرار هؤلاء الأبطال في المبارزة مع انتصاراتهم المتكررة دليل على أنهم لم يكونوا يقاتلون ولايغامرون من أجل الدنيا ، فإن شرف الدنيا يكفي في نيله قليل من هذه التضحيات ، ثم يُبقي طالب ذلك على نفسه ليتمتع بذلك الشرف ، أما أن يستمر في المغامرات والتضحيات فإنه إنما يريد شرف الآخرة ، لأنه كلما ازداد إقدامًا وبذلا تضاعف حصوله على ذلك الشرف .

فلما كان آخر لقاء بين المسلمين وأعدائهم ، واشتد القتال نادى المسلمون البراء بن مالك وقالوا : يابراء ، أقْسم على ربك ليهزمنَّهم لنا، فقال : اللهم اهزمهم لنا ، واستَشْهدْني .

ونقف قليلا مع هذا البطل المغوار ، المتواري عن الأنظار ، ونرجع قليلا إلى الوراء حيث علَّق النبي ﷺ على صدره وسامًا عظيمًا من أوسمة الشرف وذلك بقوله « كَمْ من أشعث أغبر ذي طِمْرين لايُؤْبَه له ، لو أقسم على الله لأبرَّه ، منهم البراء بن مالك » أخرجه الإمام الترمذي وحسنه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه [1] .

وقد كان البراء مستجاب الدعوة ، وعرف الناس عنه ذلك بموجب هذا الحديث ولذلك طلبوا منه في هذه المعركة أن يدعو الله ليهزم عدوهم.

ومع هذا الثناء العظيم من رسول الله ﷺ على البراء فإنه لم يَبْطَر ولم يتكبر ، بل ظل الرجل المتواضع الذي يقتحم الأهوال ، ويأتي بأعظم النتائج ، من غير أن تكون له إمرة أو قيادة .

(١) سنن الترمذي ، كتاب المناقب ١٠/٣٥٦ .

وإذا كان قد سأل الله تعالى النصر للمسلمين وهو عِزٌّ لهم وللإسلام فإنه لم يُغفل نفسه أن يسأل الله تعالى أغلى مايتمناه المؤمن القوي الإيمان، حيث سأل الله تعالى الشهادة .

وقد استجاب الله تعالى دعاءه فهزم الأعداء ، ورزقه الشهادة في ذلك اليوم .

وإنه لموطن كريم يتجلى فيه قرب الله جل وعلا من أوليائه المتقين حيث يجيب سؤلهم ، ويحقق لهم أمانيهم العُليا ، لأنه اصطفاهم فمنحهم القوة العالية التي بها خدموا دينه وأقاموا دولته في الأرض ، حتى إذا أحبوا لقاءه مَنَّ عليهم بأشرف نهاية ليصلوا إلى أسعد غاية .

جاء في الرواية المذكورة أن المسلمين هزموا أعداءهم حتى أدخلوهم خنادقهم ثم اقتحموها عليهم وأنه لما ضاق الأمر على الفرس واشتد عليهم الحصار اتصل اثنان منهم في جهتين مختلفتين بالمسلمين وأخبراهم بأن فتح المدينة يكون من مخرج الماء ، وقد وصل الخبر إلى النعمان بن مقرن، فندب أصحابه إلى ذلك المكان ، ووصل الخبر إلى أبي موسى الأشعري فندب أصحابه كذلك ، فالتقى الأبطال من أهل الكوفة والبصرة في ذلك المكان ليلا ، ودخلوا منه سباحة إلى المدينة ، فكبَّروا وكبر من وقفوا في الخارج ، وفتحوا الأبواب فأبادوا من حولها بعد شيء من المقاومة (١) .

لقد انتدب الأبطال لمغامرة الدخول من مخرج الماء وهم يتسابقون إلى الموت ، فإما الظفر وإما الشهادة .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٨٤ - ٨٥ .

وإن دخول هؤلاء الأبطال وهم يسبحون في الماء يعرضهم لنار العدو، ولكنهم قوم ألفوا حياة الأهوال ، وأصبحت الشهادة أمنية غالية لهم ، فهم يتعرضون لمواطنها .

والظاهر أن الأعداء لم يتوقعوا من المسلمين الجرأة على اقتحام مدينتهم من ذلك المدخل الخطير ، لأن الإقدام على ذلك أشبه بالانتحار، فكان دخول المسلمين منه مفاجأة مذهلة لهم أطارت صوابهم ومزقتهم شر ممزق .

ولقد كان في هذه المغامرة العظيمة نهاية بطلين من أعظم أبطال المسلمين، وهما البراء بن مالك ومجزأة بن ثور حيث رماهما الهرمزان، ولكن هذه النهاية جاءت بعد انتصار المسلمين ، وبعد أن قدَّم كل و احد منهما سجلاً حافلاً من التضحيات والنكاية بالأعداء ، حيث قَتل كل واحد منهما في تلك الأيام مائة من الأعداء مبارزة مع من قتلا أثناء الالتحام كما سبق .

وهكذا قدم أولئك الأبطال تضحيات ضخمة في تلك المعارك التي استمرت عدة شهور ، وقدموا في غيرها الكثير ، وأصبح المسلمون يتفيئون ظلالها ويعيشون ثمراتها قرونا عديدة ، وهم ملوك الدنيا وقادة الأمم .

وإن هذا المُلك العريض الضخم الذي لم يتكون إلا بالتضحيات والدماء ، لايجوز أبدا أن يفرِّط فيه الوارثون ، فيَضعُفوا عن حمايته، ويستسلموا لأعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر .

أما هرمزان قائد الفرس فإنه لجأ إلى القلعة ، وأطاف به المسلمون

الذين دخلوا من مـخرج الماء ، فلما عـاينوه وأقبلوا قـبَله قال لهم : ماشـئتم، قد ترون ضـيق ما أنا فـيه وأنتم ، ومعي في جُـعبـتي مائة نُشَّابه، ووالله مـاتصلون إليَّ مادام مـعي نشابة ، ومـايقع لي سهم ، وماخير إساري إذا أصبت منكم مائة بين قتيل وجريح ! قالوا : فتريد مـاذا؟ قـال: أن أضع يدي فـي أيديكم على حكم عـمـــر يصنع بي ماشاء، قالوا : فلك ذلك ، فرمى بقوسه وأمكنهم من نفسه .

خبر أمير المؤمنين عمر مع الهرمزان :

وأوفد أبو سَبرة بن أبي رُهم قـائد المسلمين في تلك المعارك وفدًا إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وأرسل معهم الهرمزان ، حتى إذا دخلوا المدينة هيـئوا الهرمـزان في هيئـته ، فألبـسوه كـسوته من الديباج الذي فـيه الذهب ، ووضـعوا على رأسه تـاجًا يُدعَى الآذين مكَلَّلاً بالياقوت وعليه حليته ، كيـما يراه عمر والمسلمون في هيئته ، ثم خرجوا به على الناس يريدون عمـر في منزله فلم يجدوه ، فسألوا عنه فقـيل لهم : جلس في المسجـد لوَفْد قـدموا عليـه من الكوفة ، فانطلقوا يطلبونه في المسجد، فـلم يروه ، فلما انصرفوا مَرُّوا بغلمان من أهل المدينة يلعبون، فقالوا لهـم: ماتلدُّدكم ؟ [يعني لماذا تلتفتون يمينًا وشمالا] ؟ أتريدون أمـير المؤمنين؟ فإنه نائم في ميـمنة المسجد ، متوسدًا برنسه – وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في برنس فلما فرغ من كـلامهم وارتفـعوا عنه وأخلوه نزع برنسه ثـم توسده فنام – فانطلقوا ومـعهم النظارة حتى إذا رأوه جلسوا دونه ولـيس في المسجد نائم ولايقظان غيره ، والدِّرة في يده معلقة .

فقـال الهرمـزان : أين عمـر ؟ فقـالوا : هُوَ ذَا ، وجعل الـوفد

يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه ، وأصغى الهرمزان إلى الوفد فقال: أين حرسه وحُجَّابه عنه ؟ قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان، قال: فينبغي له أن يكون نبيا ، فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء ، وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسًا ثم نظر إلى الهرمزان، فقال: الهرمزان ؟ قالوا : نعم ، فتأمله وتأمل ماعليه وقال : أعوذ بالله من النار، واستعين الله، وقال : الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، يامعشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين، و اهتدوا بهدي نبيكم ﷺ ، ولاتُبطرنكم الدنيا فإنها غرارة .

فقال الوفد : هذا ملك الأهواز فكلِّمه ، فقال: لا ، حتى لايبقى عليه من حليته شيء فرُمي عنه بكل شيء عليه إلا شيئًا يستره، وألبسوه ثوبا صفيقا ، فقال عمر : هيه ياهرمزان ! كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ؟ فقال : ياعمر إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلَّى بيننا وبينكم ، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولامعكم ، فلما كان معكم غلبتمونا ، فقال عمر : إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا، ثم قال عمر : ماعذرك وماحجتك في انتقاضك مرة بعد مرة؟ فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك ، قال: لاتخف ذلك ، واستسقى ماء، فأُتيَ به في قدح غليظ ، فقال : لو متُّ عطشا لم أستطع أن أشرب في مثل هذا، فأُتي به في إناء يرضاه ، فجعلت يده ترجف، وقال : إني أخاف أن أُقتل وأنا أشرب الماء ، فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه ، فأكفأه فقال عمر : أعيدوا عليه ولاتجمعوا عليه القتل والعطش ، فقال : لاحاجة لي في الماء ، إنما أردت أن أستأمن به ، فقال له عمر : إني قاتلك، قال: قد آمنتني، فقال :

كـذبت ، فقـال أنس : صدق يا أمـير المؤمنين ، قـد آمنته، قـال : ويحك يا أنس أنا أؤمِّن قـاتل مَجْـزأة والبـراء ، والله لتأتينَّ بمخـرج أولأعاقبنك ، قالَ : قلتَ له : لابأس عليك حتى تخبرني ، وقلتَ: لا بأس عليك حـتى تشربه ، وقال له من حـوله مثل ذلك ، فـأقبل على الهرمزان وقال : خدعتني ، والله لا أنخدع إلا لمسلم ، فأسلم، ففرض له على ألفين ، وأنزله المدينة [1] .

وإننا لنتخلص من هذا الخـبر بمواقف عظيمـة نلاحظ منها تواضع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حيث نام وحده في المسجد بلا فراش وهو أمير المؤمنين وحاكم أعظم دولة في العالم آنذاك ، وإن هذا دليل على منتهى التواضع والتجرد من حظ النفس .

إن تصور هذا المشهد لَيوحِي لنـا بتفوق أخلاقي لانظير له إلا في حياة الأنـبياء عليهم السـلام والصديقين ، فما الذي حـمله على كبح جماح نفسه نحو الترفع والعلو وهو يملك جميع مقومات ذلك ؟

وما الذي حـمله على حيـاة الزهد حتى أصبح يقـوى على النوم على الأرض وهو يملك استخدام الفرش الوثيرة والأثاث الفاخر ؟

وما الذي حـمله على أن يرضى لنفـسه أن ينام في المسـجد وهو الذي يملك بناء أفـخم القصـور ، واختـيار أبعـد الأماكن عن الجلـبة والضجيج ؟

إنه الإيمان الراسخ واليـقين القوي بأن مـاعند الله خير مـن الدنيا ومافيـها، وأن حياة الزهد والتواضع هي الـتي تقرِّب من رضوان الله

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٨٥ – ٨٨ .

تعـالى،وهو الهدف الإسـلامي الواضح الذي أثنى الله به جل وعـلا على أولئك الصحب الكرام ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح: ٢٩]

ثم ما الذي أعطاه الأمـان والسلامة حـتى ينام وحده في المسـجد وهو الذي دوّخ أمم الأرض وانتـزع ملكهم ، ومـرّغ سـمعـتـهم في التراب، وأذلّ المنافـقين ، وحملهم على منتـهى التسـتر والاختـفاء ، وأخذ الحق من الظالمين، وأوطأهم على الاستقامة حتى أصبح لايطمع قويّ في باطل، ولايهاب محقّ من نيل حقه غير متعتع ولامستضعف؟

إن الذي أعطاه الأمـان والطمـأنينة هو إيمانه الكامل بقـضـاء الله وقدره، ثم عدله الذي أصبح مضـرب الأمثال على مدار التاريخ،وإن كـون العدل في الحكم مـحطّ الأمان والسلامـة أمر مـتفق عليـه بين العقلاء، ولذلك قـال الهرمزان لما رأى عمر نائما في المسـجد: عدلْتَ فأمنتَ فنمتَ، وذلك أن الحاكم العادل لايخشى من أمته أن يخونوه ، لأن جميع الذين ينشدون العدل من رعيته يصبحون حراسا أوفياء له ، وكذلك الذين تُستـخلص حقوقهم على يديه فإنهم قـد يُفنون أنفسهم من أجله، ويفـدونه بكل مـا يملكون ، أمـا الذين يُلزمـهم بالحق من أصحاب الهوى والجنوح نحو الظلم فـإن الله سبحانه يُنزل في قلوبهم مهابة من يحملهم على الحق والرهبة منه ، ثم لايلبث من أراد الله له الهداية منهم حتى يحبه من قلبه ويتمنى أن يفديه بنفسه وماله .

ولذلك نص الهـرمزان على العـدل وحده كـسبب في أمن عـمر الذي حمله على النوم في المسـجد ، لأن الهرمزان وأمثـاله من الكفار لايعرفون قضاء الله وقدره ولايؤمنون به .

ومع أن الهرمـزان قد نسب ذلك الأمن القوي إلى العـدل ، فإنه عبَّر بما يفيد بأنه حـتى مع العدل لايصل الأفراد العاديون إلى مثل هذا الأمن، ولذلك قـال عن عمـر : ينبـغي له أن يكون نبيـا ، وذلك لما تواتر في عرف الأمم أن الأنبياء عليهم السلام مـعصومون بحماية الله تعالى .

ومن المواقف العـالية في هذا الخبـر إعزاز الإسـلام وإذلال الكفر وأهله، وذلك يتمثل في المشاهد التالية :

١- قول عمـر حينما رأى الهرمزان وسـأله عنه : أعوذ بالله من النار وأستعين بالله ، فقد ذكـر النار حالاً لَمَّا رأى الهرمزان وهو بلباس الجبارين، وعمر يعلم أن الله تعالى أعد النار لمثل هؤلاء .كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ : « تحاجَّت الجنة والنار ، فقـالت النار : أُوثرت بالمتكبرين والمتـجـبرين ، وقـالت الجنة : مـالي لايدخلني إلا ضعـفـاء الناس وسقَطهم ، قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عـبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعـذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منهما ملؤها » (١) .

فأهل النار كما جاء في هذا الحديث المتكبرون وهم الذين يتعالون بأنفسهم عن قبول الحق ، ويحـتقرون من هم دونهم في مظاهر الدنيا

---

(١) صحيح البخاري ، التفسير رقم ٤٨٥٠ (٨/ ٥٩٥) ، صحيح مسلم ، كتاب الجنة رقم ٢٨٤٦ ، (ص ٢١٨٦) .

كمـا جاء في قول النبي ﷺ « الكبـر بطر الحق وغمط الناس »[1] ، والمتـجبـرون هم الطغـاة الذين تجاوزوا حـدودهم فـبغـوا في الأرض وظلموا .

أما أهل الجنة فـهم ضعفاء الناس وسـقطهم ، يعني في نظر أهل الدنيا لتواضعهم وزهدهم في مظاهر الدنيا التي يتنافس الناس عليها ، فتـسقط منزلتـهم عند أهل الكبـرياء والسرف ولكنهم عند الله تـعالى وعند المتقين منزلتهم عالية .

وفي قول عمر « وأستعين بالله » طلبُ العون من الله تعالى على مواجهة هذا الموقف والصبر في مخـاطبة المتصفين بصفات أهل النار ، وهذا إدراك إيماني رفـيع ، فالإنســان مهـما كان من الـعقل والرفـعة ضعيف محدود الطاقة من غير عـون من الله تعالى ، فتذكُّر الاستعانة بالله جل وعلا في جـميع الأمور - وخاصـة المهم منها - يعتـبر من الفقه في الدين والرسوخ في الإيمان .

وفي ذكـر النار والاستـعاذة بالله منهـا إذلال للكفر وأهله حـيث يستـقر في الأذهان أن الكفـار مهمـا بلغوا من الرفـعة في الدنيـا فإن مصيرهم في الآخـرة إلى النار ، وماقيمة الدنيا المحـدودة الفانية بكل مافيها من رفعة وجبروت إذا كان مصير أهلها في دار الخلود إلى النار، كمـا أن في ذلك إعزازاً للإسلام وأهلـه حيث يستـقر في الأذهان أن المسلم وإن كان فقيراً مستضعفًا في الدنيا فإن مصيره في دار الخلود إلى الجنة ، وإنما العبرة في ميزان العقلاء بدار الخلود لا بدار الفناء .

---

(١) صحيح مسلم ، الإيمان رقم ٩١(٩٢) .

٢ - قول عمر : « الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشباهه» الخ فهذا صريح في بيان عزة الإسلام وأهله وأن الإسلام يُعز الله به المسلمين، ويذل به الكفر وأهله .

فالإسلام يمنح المسلم قوة عظمى يتفوق بها على جميع البشر حتى لو كان في مقام الضعف المادي،ولكن ضعف إيمان بعض المسلمين يجعلهم يشعرون بالذلة أمام الكفار ، فيكونون بواقعهم السيء المنافي للإسلام سببًا في اعتزاز الكفار وإيغالهم في الطغيان والجبروت .

وقد ركز عمر على الوصية بالتمسك بهذا الدين وعدم الاغترار بالدنيا ، وذلك لأن الاغترار بالدنيا والابتعاد عن هدي الله تعالى هو الذي جر الأمم إلى حياة السرف والترف ثم إلى الانهيار في الدنيا ، والهلاك في الآخرة .

٣ - قول عمر حينما طلب منه الوفد أن يكلم الهرمزان « لا، حتى لايبقى عليه من حليته شيء » وهو بيان صريح في إذلال أبَّهة الدنيا ومظاهرها الكاذبة التي تكونت وتراكمت بسبب الكفر والبعد عن الصراط المستقيم ، ومادام الكفار يعتزون بهذه المظاهر ويعتبرون أنها مثبتة لوجودهم وملازمة لعزهم فليرفضها المؤمنون وليُظهروا عزة الإسلام الذي كرمهم الله به ، وليُلزموا الكفار برفض مظاهرهم التي يعتزون بها ما داموا يريدون المفاوضة والحوار مع المسلمين .

إن بقاء الكفار في مظاهر الأبهة من الملابس والمراكب والمساكن قد يجرُّ المسلمين إلى محاكاتهم في ذلك لئلا يكونوا أقل في أنظار الكفار وعامة المسلمين منهم ، وفي هذا انحراف خطير عن خط الاستقامة

الذي سار عليه الصحابة رضي الله عنهم بتوجيه النبي ﷺ وتربيته لهم، وإن بقاء المسلمين في مظهر أدنى من الكفار قد يضعف المسلمين أمامهم في حال الحوار والتفاوض على أمر من أمورهم المشتركة .

ولهذا وغيره من المعاني السامية رفض عمر رضي الله عنه أن يخاطب الهرمزان وهو في لباس الأبهة والكبرياء .

٤ – قوله « أنا أُؤَمِّن قاتل مَجْزأة والبراء ! » يعني مجزأة بن ثور والبراء بن مالك ،وهما بطلان من أبطال المسلمين مر ذكر شيء من مآثرهما فيما مضى ، ويكفي لمعرفة أثرهما في نصر الإسلام والنكاية بالأعداء أن كل واحد منهما قتل في معارك تُستَر مائةً من الأعداء مبارزة، وقد قتلهما الهرمزان لمّا غامرا بالدخول من مخرج الماء مع مجموعة من الأبطال ، وكان الهرمزان ماهراً في الرماية فأصابهما .

وفي ذكر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لهما إعزاز للمسلمين وتقدير لأهل التقدم والبلاء في الإسلام حيث اعتبر قتل الهرمزان لهما مانعا من العفو عنه .

٥ – قول عمر « خدعتني والله لا أنخدع إلا لمسلم » فيه إظهار لعزة الإسلام ، فالمسلم إذا خُدع من مسلم فانخدع له فليس في ذلك خفض لمنزلته ولا إهانة لكرامته كمسلم ، لأنه قد انخدع لأخيه في الإسلام، وهو وإياه يشكّلان جزأين من جسم واحد ، فكرامته الإسلامية لم تُجرح، لأن من خدعه مسلم وكلاهما يعتز بالإسلام .

فأما حينما تكون الخديعة من كافر أو منافق فإن المقصود الأول بذلك هو إهانة الإسلام ، فلا يجوز لمسلم أن ينخدع لكافر حتى لو

خالف ماوعده فيه وما اتفق عليه معـه ، لأن الكافر سيعتز عليه بنصر مبدئه الكفري في مقابل هزيمة إسلامه .

وإنه لإلهام عظيم من الله تعالى لعمر ، وفقه دقيق في فهم الولاء والبراء، والعلاقات بين المسلمين والكفار .

ولما رأى ذلك الهرمزان أسلم فـقـبل عمر إسلامه وفرض له ألفين من العطاء ، وهكذا يظهر الفرق العظيم بين الكفر والإسلام ، فحينما كان كافرًا كان محكومًا عليه بالقتل لسيئاته التي ارتكبها ضد المسلمين، ولما أسلم كـان مـوضع التكـريم ، وفُـرض له من العطاء مـايفـرض للمسلمين .

عمر يستشير الهرمزان :

أخرج الإمام الطبري بإسناده عن زياد بن حُدَيْر قال : حدثني أبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للهرمزان حين آمنه : لابأس ، انصح لي، قال : نعم ، إن فارس اليوم رأس وجناحان ، قال : وأين الرأس؟ قال : بنهاوند مع بندار فإن معه أساورة كسرى وأهل أصبهان قال: وأين الجناحان؟ فذكر مكانا نسـيته ، قال : فاقطع الجناحين يَهُن الرأس ، فـقال عـمـر : كذبـت ياعدو الله ، بل أعـمـد إلى الرأس فأقطعه، فإذا قطعه الله لم يعص عليَّ الجناحان (١) .

فهذا مـثال مهم لليـقظة والنباهة وأخذ الحيطة والحـذر من أعداء الإسلام وإن أسلمـوا ظاهراً ، فالإسـلام يعصم دمـاءهم وأموالهم ، ويكفل لهم سـائر حقوقـهم ، ولكن لايترتب على ذلك وضع الثـقة

---

(١) تاريخ الطبري ١١٧/٤ .

بهم، حـتى يتـبين بجـلاء ويقين صـدق إيمانهم ، لأن صـدق الإيمان يقتضي البراءة التامة من الكفار ، والولاء التام للمسلمين ، ومن كانت هذه حاله لايُنتظر منه أن يغش المؤمنين ، أمـا عند الشك في ذلك فإن أخـذ الحيطـة والحذر واجب حـتى لا يُؤتَى المسلمـون على غـرَّة من أعدائهم .

* * *

٥ - فتح مدينة جُنْدَيْ سابور -

أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: لما فرغ أبو سبرة - يعني ابن أبي رهم - من السوس - يعني من فتح بلاد السوس -خرج في جنده حتى نزل على « جُنْدَيْ سابور » وَزِرٌ بن عبد الله بن كليب محاصرهم ، وأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال، فمازالوا مقيمين عليها حتى رُمي إليهم بالأمان من المسلمين ، وكان فتحها وفتح نهاوند في مقدار شهرين ، فلم يفجأ المسلمين إلا وأبوابها تُفتح ، ثم خرج السرح ، وخرجت الأسواق ، وانبثَّ أهلها، فأرسل المسلمون أن مالكم ؟ قالوا : رمَيْتم إلينا بالأمان فقبلناه ، وأقررنا لكم بالجزاء على أن تمنعونا ، فقالوا : مافعلنا ، فقالوا : ماكذبنا فسأل المسلمون فيما بينهم ، فإذا عبد يُدعَى مكنَفًا كان أصله منها ، هو الذي كتب لهم ، فقالوا : إنما هو عبد ، فقالوا: لا نعرف حُرَّكم من عبدكم، قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدّل فإن شئتم فاغدروا ، فأمسكوا عنهم ، وكتبوا بذلك إلى عمر ، فكتب إليهم : إنَّ الله تعالى عظَّم الوفاء، فلا تكونوا أوفياء حتى تفوا، مادمتم في شك أجيزوهم وَفُوا لهم، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم(١) .

أقول : وإن هذا مثل عظيم من أمثلة تحري المسلمين ودقتهم في إبراء الذمة ، واجتناب الظلم ، والظهور أمام العالَم في صفحة بيضاء ليس في ثناياها ما يسوِّدها ويشوِّه بهاءها .

ولقد كان المسلمون مترددين بين أن يُمضوا ذلك الأمان الذي قام

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٩٣ - ٩٤ .

به رجل واحد منهم كان أصله من أهل تلك البلدة ، وقد صنع شيئًا أراد به نفع قومه ، وبين أن يعتبروا أن ذلك الأمان لم يكن عن مشورة منهم ولا قرار من أميرهم فليلغوه ، ولكن قطع ذلك التردد أمر عمر رضي الله عنه القاطع بإمضاء ذلك الأمان ، وهذا يدل على شدة ورعه ودقة نظره وتقديره لعواقب الأمور ، وخوفه الشديد من أن يقع المسلمون في شيء من ظلم أعدائهم فيكون سببا في إدالتهم عليهم عقوبة لهم على الظلم.

وهذا وأمثاله يبين لنا تفوق المسلمين الشاسع في مجال مكارم الأخلاق على جميع أعدائهم من الكفار .

ولاشك أن هذا التفوق الأخلاقي كان من الدوافع الأساسية لدخول الكفار في الإسلام بتلك الكثافة والسرعة المذهلة .

ولاننسى التنويه بتثبت المسلمين وأناتهم حيث لم يغتنموا فرصة فتح الأبواب في هجوم مباغت على أعدائهم لأنهم يدرؤون الناس عن القتال ما أمكنهم ذلك ، فهم هداة للبشرية ، وليسوا توّاقين لسفك الدماء ، وإنما يلجئون إلى ذلك اضطراراً ، حينما يتحكم الطغاة في مصائر الشعوب ويحولون بينهم وبين إبصار نور الهداية ، فلابد والحالة هذه من إزاحة تلك العراقيل التي تحجب الرؤية وتهيمن على عقول الناس المغلوبين على أمرهم ليبصروا الأمور على حقيقتها حينما يكونون أحراراً في تفكيرهم .

- النعمان ومدينة « كسكر » -

أخرج الإمام الطبري رحمه الله من حديث أبي وائل رحمه الله قال: كان النعمان بن مُقرِّن رضي الله عنه على «كسكر» - يعني واليا عليها- فكتب إلى عمر رضي الله عنه: مَثَلي ومَثَل كسكر كمثل رجل شابٍّ وإلى جنبه مُومِسة تَلَوَّن له وتعطَّر، فأَنشُدك الله لما عزلتني عن كسكر، وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين، قال: فكتب إليه عمر: أن ائت الناس بنهاوند، فأنت عليهم (١).

وهذه همة عالية وتطلُّع كبير، فالنعمان لايريد إدارة منصب يكتسب منه الجاه في الدنيا، وهو وإن كان سيحصل على الأجر الأخروي بمشيئة الله تعالى، لأنه ممن يريدون بعملهم وجهه جل وعلا، إلا أنه يريد عملاً أكثر مشقة وأعظم تضحية، وبالتالي يكون أكثر أجراً في الآخرة.

إن الآخرة هي ميزان أعمالهم، فلا يستريحون إلا في العمل الذي يضمن لهم أكبر قدر من رضوان الله تعالى، وثوابه العظيم في الآخرة.

ولذلك نجدهم يتسابقون إلى الجهاد، لما فيه من الأجر العظيم، ولما ينطوي عليه من احتمال الحصول على الشهادة التي هي غاية أماني المؤمنين الصادقين.

* * *

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٢٦.

٦ – مشكلة وحلها –
(شكوى أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص)

اجـتمع نفـر من أهل الكوفـة بزعامـة الجراح بن سنان الأسـدي فشكوا أميرهم سعـد بـن أبي وقاص رضي الله عنه إلى أمير المؤمنين عمر، وذلك في حال اجتماع المجوس في نهاوند لغزو المسلمين ،فلم يَشْغلهم مادَهَم المسلمين من ذلك .

ولقد كـان سعد عادلاً رحـيما بالرعـية قويّـاً حـازماً على أهل الباطل والشقاق ، عطوفـاً على أهل الحق والطاعة ، ومع ذلك شغب عليه هؤلاء القوم ، ممن لايطيقون حكم الحق ويريدون أن يحققوا شيئاً من أهوائهم .

وقد وقَّتوا لشكواهم وقتـاً رأوا أنه أَدْعَى لسماع أمير المؤمنين منهم حيث كان المسلمون مـقبلين على معركة مصيرية تسـتدعي اتفاق كلمة المسلمين وتظافر جهودهم في مواجهتها ، وحيث كانوا يعلمون اهتمام عمـر الشديد باجتـماع كلمة المسلـمين دائماً ، وخاصـةً في مثل تلك الظروف، فرجَوا أن يفوزوا ببغيتهم .

وقد استجـاب أمير المؤمنين لطلبهم في التحـقيق في أمر شكواهم مع علمه بـأنهم أهل هوى وشر ، ولم يكتـمهم اعتـقاده فـيهم ، بل صرّح لهم بـذلك، وبين لهم أن اعتقـاده بظلمهم لواليـهم وتزويرهم الحقائق لايمنعه من التحقيق في أمـرهم ، واستدل على سوء مقصدهم بتوقيتهم السيء حـيث قال لهم : « إن الدليل على ماعندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمـر وقـد استـعدَّ لكم من استـعدوا ،وايم الله لا

يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم » .

فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للأعاجم ، والأعاجم في الاجتماع ، - وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذي يقتص آثار من شُكي زمان عمر - فقدم محمد على سعد ليطوف به في أهل الكوفة ، والبعوث تُضرب على أهل الأمصار إلى نهاوند ، فطوّف به على مساجد أهل الكوفة ، لايتعرض للمسألة عنه في السر، وليست المسألة في السر من شأنهم إذ ذاك » .

وفي هذا بيان لمنهج الصحابة رضي الله عنهم في التحقيق في قضايا الخلاف التي تجرى بين المسئولين ومن تحت ولايتهم ، فالتحقيق يتم في العلن ، وذلك بحضور المسئول والذين هو مسئول عنهم .

وكان لايقف على مسجد فيسألهم عن سعد إلا قالوا : لانعلم إلا خيرا ولانشتهي به بدلا ، ولانقول فيه ولانعين عليه ، إلا من مالأ الجراح بن سنان وأصحابه فإنهم كانوا يسكتون لايقولون سوءا ، ولايسوغ لهم، ويتعمدّون ترك الثناء ، حتى انتهوا إلى بني عبس . فقال محمد : أنشد بالله رجلا يعلم حقا إلا قال ، قال أسامة بن قتادة : اللهم إن نشدتنا فإنه لايَقْسم بالسّوية ، ولايعدل في الرعية ، ولايغزو في السرية ، فقال سعد : اللهم إن كان قالها كذبًا ورئاء وسمعة فأَعْم بصره ، وأكْثر عياله، وعرِّضه لِمُضلاَّت الفتن ، فعمي ، واجتمع عنده عَشْر بنات ، وكان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يجسَّها، فإذا عُثر عليه قال : دعوة سعد الرجل المبارك .

قال : ثم أقبل - يعني سعد - على الدعاء على النفر ، فقال:

اللهم إن كانوا خرجوا أشَراً وبطرا وكذبا فاجهد بلاءهم ، فجُهد بلاؤهم، فقطِّع الجراح بالسيوف يوم ثاور الحسن بن علي ليغتاله بساباط ، وشُدخ قبيصة بالحجارة ، وقتل أُرْبَدُ بالوَجْء - يعني الضرب- بنعال السيوف - يعني بأعقابها - .

هذا وإن في هذا الخبر نموذجًا من معية الله تعالى لأوليائه المتقين حيث استجاب الله تعالى دعوة سعد على من ظلموه فأصيبوا جميعًا بما دعا عليهم به .

وإن في استجابة الله تعالى دعاء سعد وأمثاله لونًا من العناية الإلهية بأولياء الله المتقين ، فكم خاف المبطلون من هذا السلاح الخفي الذي لايملكون بكل وسائلهم المادية مقاومته ولا الحدَّ منه .

وكون هؤلاء الذين دعا عليهم سعد خُتم لهمْ بالخاتمة السيئة دليل على تمكن الهوى والشر من نفوسهم حتى أدى بهم ذلك إلى المصير السيء .

ودافع عن نفسه سعد فقال : إني لأول رجل أهرق دمًا من المشركين، ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه ، وماجمعهما لأحد قبلي- يعني حينما قال له يوم أحد : إرم فداك أبي وأمي - ولقد رأيتني خُمُس الإسلام ، وبنو أسد تزعم أني لا أحسن أن أصلي وأن الصيد يلهيني .

قال: وخرج محمد به وبهم إلى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر، فقال : ياسعد ويحك كيف تصلي ؟ قال : أطيل الأُولَيَيْن وأحذف الأخريين ، فقال هكذا الظن بك .

ثم قـال : لولا الاحـتيـاط لكان سـبـيلهم بيِّنا ، ثم قـال : من خليفتك ياسعد على الكوفة ؟ فقـال : عبد الله بن عبد الله بن عِتبان فأقره واستعمله» (١) .

وقول عـمر رضي الله عنه « لولا الاحتـياط لكان سبـيلهم بينا » يعني قد اتضح أمرهم ، وأنهم ظالمون جـاهلون ، وظهرت براءة سعد مما نسبوه إليه ، ولكن الاحتياط لأمـر الأمة يقتضي درء الفتن وإماتتها وهي في مهدها قبل أن تستفحل فتسبِّب الشقاق والفرقة وربما القتال .

وإذا كان من أسباب القضاء على الفتنـة تغيير المسئول فليتمَّ ذلك وإن كان المسئول المدَّعى عليه بريئـا مما نُسب إليه ، فإن ذلك لا يضيره بشيء وقد برئت ساحته مما نُسب إليه من التهـمة ، وقد كانوا يفهمون الولاية مغرما لامغنما ، وتكليفا يرجون به ثواب الله تعالى ، فالولاية على أمـر من أمور المسلمين نوع مـن الأعمـال الصالحـة لمن اتقى الله تعالى وأراد رضوانه والدار الآخرة ، فإذا تحـول هذا العمل إلى مصدر للفتنة فإن الحكمة تقتضي عدم الاستمرار فيه ، كما هو الحال في هذه الواقعة ، ولكل حـادث حديث ، وهذا هو ما أقدم عليه عمـر حينما أعفى سـعداً من العمل ، وكلَّف نائبـه الذي هو موضع ثقة سـعد ، حـيث أدرك عمـر أن الذين تقدمـوا لشكاية سعـد أصحـاب هوى ، وليسوا طلاب حق، ومن كانوا كذلك فإنهم سيستمرون في المشاغبة، وسيؤلِّبون معهم من هم على شاكلتهم ، فيحدثوا فرقة في الجماعة ، وذلك يؤثر عـلى وجـود المسلمين وتماسكـهم سـواء فـي السلم أو الحرب.

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٢٠ - ١٢٢ .

أما إذا كانوا مجتهدين في طلب الحق فمن السهل إقناعهم بما يتفق مع كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ حيث إنهما المرجع عند التنازع، ثم لن تحصل بعد ذلك فتنة ببقاء المسئول المدَّعى عليه .

* * *


الخلفاء الراشدون

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢
الترقيم الدولى
977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع
حى السلامة - شارع عبد الرحمن السديرى - مركز الزومان التجارى
ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية





الجزء الرابع

تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

٧ - معركة نهاوند (فتح الفتوح) -

معاهدة بين الفرس :

ذكر الإمام الطبري خبر اجتماع الفرس بنهاوند وذلك فيما ما أخرجه عن شيوخه أنهم قالوا : وكان من حديثهم أنهم نفروا لكتاب يَزْدجرد الملك - وقد ذكر في رواية سابقة أن الملك كاتب أهل فارس يحرضهم على المسلمين - فتوافوا إلى نهاوند ، وذكروا أنه اجتمع بها خمسون ومائة ألف مقاتل ثم ذكر ابن جرير رواية أبي طعمة الثقفي - وكان قد أدرك ذلك - قال : ثم إنهم قالوا : إن محمداً الذي جاء العرب بالدين لم يَغْرض غَرَضَنا ، ثم ملكهم أبو بكر من بعده فلم يغرض غرض فارس إلا في غارة تعرض لهم فيها ، وإلا فيما يلي بلادهم من السواد ، ثم ملك عمر من بعده فطال ملكه وعرض ، حتى تناولكم وانتقصكم السواد والأهواز ، وأوطأها ، ثم لم يرض حتى أتى أهل فارس والمملكة في عقر دارهم ، وهو آتيكم إن لم تأتوه، فقد أخرب بيت مملكتكم ، واقتحم بلاد ملككم ، وليس بمُنتَه حتى تُخرجوا من في بلادكم من جنوده وتقلعوا هذين المصرين - يعني البصرة والكوفة - ثم تُشغلوه في بلاده وقراره .

قال : وتعاهدوا وتعاقدوا ، وكتبوا بينهم على ذلك كتابا وتمالئوا عليه .

وبلغ الخبر سعدا وقد استخلف عبد الله بن عبد الله بن عتبان، ولما شخص لقي عمر بالخبر مشافهة ، وقد كان كتب إلى عمر بذلك، وقال : إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح - يعني لقتال الأعداء-

قبل أن يبادروهم الشّدَّة ،وقد كان عمر منعهم من الانسياح في الجبل.

وكتب إليه أيضًا عبد الله - يعني ابن عتبان - وغيره بأنه قد تجمَّع منهم خمسون ومائة ألف مقاتل فإن جاؤونا قبل أن نبادرهم الشّدَّة ازدادوا جرأة وقوة ، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلكم .

وكان الرسول بذلك قَريب بن ظفر العبدي .

قال فقال - يعني عمر : مااسمك ؟ قال : قريب ، قال: ابن من؟ قال: ابن ظفر ، فتفاءل إلى ذلك وقال : ظفر قريب إن شاء الله ولاقوة إلا بالله .

مشورة أمير المؤمنين عمر لأهل الرأي :

ونُودي في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ووافاه سعد، فتفاءل إلى سعد بن مالك - يعني قدم سعد بن أبي وقاص المدينة فتفاءل عمر بقدومه - وقام - يعني عمر - على المنبر خطيبا ، فأخبر الناس الخبر واستشارهم .

وقال : هذا يوم له مابعده من الأيام،ألا وإني قد هممت بأمر وإني عارضه عليكم فاسمعوه،ثم أخبروني وأوجزوا ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم،ولاتُكثروا ولاتطيلوا فتُفْشَغ بكم الأمور- يعني تتسع- ويلتوي عليكم الرأي،أفَمن الرأي أن أسير فيمن قِبَلي ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلا واسطا بين هذين المصرين فأستنفرهم،ثم أكون لهم ردءًا حتى يفتح الله عليهم ويقضي ما أحب، فإن فتح الله عليهم أن أضَرِّيهم عليهم في بلادهم،وليتنازعوا ملكهم.

فقام عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد

الرحمن بن عوف في رجال من أهل الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ فتكلموا كلاما ، فقالوا : لانرى ذلك - يعني سير أمير المؤمنين بنفسه- ولكن لايغيبنَّ عنهم رأيك وأثرك ، وقالوا : بإزائك وجوه العرب وفرسانهم وأعلامهم ، ومن قد فضَّ جموعهم وقَتَل ملوكهم ، وباشر من حروبهم ما هو أعظم من هذه ، وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك ، فأذَنْ لهم واندب إليهم وادْع لهم .

وكان الذي ينتقد له الرأي إذا عرض عليه العباس رضي الله عنه - يعني يعرض عليه الآراء ويأخذ رأيه فيها - .

قال : فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : أصاب القوم ياأمير المؤمنين الرأي ، وفهموا ما كُتب به إليك ، وأن هذا الأمر لم يكن نصره ولاخذلانه بكثرة ولا قلة ، هو دينه الذين أظهر وجنده الذي أعزَّ ، وأيَّده بالملائكة حتى بلغ مابلغ ، فنحن على موعود مع الله والله منجز وعده وناصر جنده ،ومكانُك منهم مكانُ النظام من الخرز ، يجمعه ويمسكه ، فإن انحل تفرق مافيسه وذهب ، ثم لم يجتمع بحذا فيره أبدا، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثير عزيز بالإسلام ، فأقم واكتب إلى أهل الكوفة فهم أعلام العرب ورؤساؤهم، ومن لم يحفل بمن هو أجمع وأحدّ و أجدّ من هؤلاء ، فليأتهم الثلثان وليقم الثلث ، واكتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم .

فسُرَّ عمر بحسن رأيهم ، وأعجبه ذلك منهم .

وقام سعد فقال : يا أمير المؤمنين خفِّض عليك فإنهم إنما اجتمعوا لنقمة - يعني من الله عليهم - [1] .

وفي هذا الخبر بيان اهتمام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأمور المسلمين حتى بلغ به كثرة التفكير فيهم والخوف عليهم حداً حمله على التفكير في السير نحو العراق ليكون قريبًا منهم ، وهذا دليل على مقدار ما يعاني من الهمِّ من أجلهم ، ولكنه كان مطبِّقًا تمام التطبيق لأمور الإسلام في السلم والحرب،فلم يكن يبُتُّ في شيء مهم إلا بعد جمع أهل الحل والعقد والتشاور معهم .

وهذا مثل مهم لقيام الشورى بين الخليفة وأهل الحل والعقد فلقد كان رأي الخليفة أن يخرج بنفسه فيكون بين البصرة والكوفة فيستحث الناس، ويمد الجيش بالجنود ، وبعد مداولة الرأي عدل عمر عن رأيه إلى الرأي الذي عرضه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير ابن العوام وغيرهم من أهل الرأي ، وأيده على بن أبي طالب وشرحه بجلاء، مما جعل أمير المؤمنين يطمئن لهذا الرأي رضي الله عنهم أجمعين.

وهكذا تظهر قيمة الشورى ، حيث تَتَفَتَّق أذهان أهل الرأي بعد توفيق الله تعالى عن الآراء السديدة التي تستريح لها نفوس المؤمنين الصادقين .

هذا وفي كلام علي بن أبي طالب دليل على رسوخ اليقين في قلوب الصحابة رضي الله عنهم بأن الله تعالى منجز وعده بالتمكين

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٢٢ - ١٢٤ .

لهذا الدين في الأرض ، وهذه العـقيدة تُعطي النفوس طمأنـينة عالية وإقدامًا عظيمًا في قتال الأعداء ، وإنما الذي يخالج النفوس هو الخوف من وقوع المجاهدين بشـيء من معصية الله تعـالى ، فتُنْزَع منهم هذه الكرامة العظيمة، وتُكتَب على يد غيرهم ، وهذا هو الذي كان يخشاه عمر رضي الله عنه كثيراً ويذكرٌ به جنده وقادته .

كتاب من أمير المؤمنين إلى النعمان :

هذا وقد بعـث أمير المؤمنين كـتابًا جـاء فيه :بسم اللـه الرحمن الرحيم، من عـبد الله أمـير المؤمنين إلى النعـمان بن مقـرن ، سلام عليك، فـإني أحمـد إليك الله الذي لا إله إلا هو،أما بـعد فإنـه قد بلغني أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند،فإذا أتاك كتـابي هذا فسر بأمـر الله وبعون الله وبنصـر الله بمن معك من المسلمين ولاتوطئهم وعـراً فتؤذيهم،ولاتمنعـهم حقهم فـتكفُّرهم،ولا تدخلنَّهم غيضة،فـإن رجلا من المسلمين أحب إليَّ من مائة ألف دينار والسلام عليك(١).

ومع هذه الوصايا الغـالية لابد أن نقف وقفـات سريعة لنسـتشف مغزاها وعمق أثرها في تقويم السلوك ونجاح العمل .

فنجـد عـمر رضي اللـه عنه يقول لـقائده « ولا توطئـهم وعـرا فتؤذيهم» يعني فليس المهم في مسيـر الجيوش أن تصل إلى أهدافها في وقت قـياسي وإن أضـر بأفرادها ، إنما المهم أن تصل وهي مـحتـفظة بقوتهـا وحيويـتها وهذا يرجع إلى سـياسة القـائد وحزمـه في اغتنام الفرص والجدِّ في الأمر من غير إيذاء ولا إنهاك .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١١٤ – ١١٥ من روايته عن محمد بن إسحاق .

ونجده يقـول « ولاتمنعهم حقـهم فتكفّـرهم » وذلك أن من أقوى العـلاقات بين القـائد والجنود أن يشـعروا بأن قـائدهم حـريص على مصلحتهم ، وأنه يسيـر بهم بالعدل والرحمة ، وأنه حريص على أداء الحـقوق إلى أصـحـابها في وقـتـها المحـدد ، مما يجـعلهم يشكرون فيضاعفون من جهدهم في العمل ، أما منعهم حقوقهم فإنه قد يؤدي إلى كفر النعمة ، فينسيهم اهتمامهم بحقهم الممنوع ما كان من معروف سابق، وذلك يؤدي إلى اختلال العمل .

إن مـن أهـم عـوامـل النجاح في الـعمل أن يكون فكر العـاملين منصـرفا إلى محـاولة النجاح والـتفوق في عـملهم ، فـإذا تأخر أداء حقـوقهم المالية أو مُنعـوا منها فإن جزءاً مـن فكرهم ينصرف إلى هذا الهمّ الحاضر، وذلك يؤدي إلى الفشل في أداء العـمل ، واهتزاز الثقة والولاء بينهم وبين المسئول عنهم ، الذي كان سببا في منع حقوقهم أو تأخيـرها ، وذلك من أميـر المؤمنين عـمر رضـي الله عنه من باب الاحـتـياط للـعمل والـرأفة بالمسـلمين ، وإلا فـمن المعلوم أن الدافع الأساسي للمجاهدين هو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة .

ونجد أمير المؤمنين يقول في وصيته « ولاتدخلنّهم غيضة فإن رجلا من المسلمين أحب إلي من مـائة ألف دينار » والغـيضـة هي الشجـر الملتف ، وإنما نهاهم عـمر عن نزول الغياض لأنهم إذا نزلوهـا تفرقوا فيها فتمكن منهم العدو .

فهي وصيـة بأخذ الحيطة والحذر للمسلـمين حتى لايُؤخذوا على غرة، ومادامـوا في وسط بلاد الكفار فهم مُعرَّضـون لغدر الأعداء في

كل لحظة ، فمن الاحتراس والحفاظ على أرواح المسلمين أن يبعدهم القائد عن مواطن الخطر في حال أمنهم وراحتهم .

إن تسيير الجيوش الإسلامية وتعريضها للأهوال ليس من أجل جباية الأموال ، ولا من أجل توسيع الملك ، فإن بقاء المسلمين في راحة وطمأنينة أحب إلى عمر من أموال الدنيا ، وإنما بُعِثَتْ تلك الجيوش لتحقيق الهدف الأعلى من وجود الإنسان في الأرض وهو أن يُعْبَد الله وحده ، وأن لاترفع فوق الأرض غير راية التوحيد ، وأن لاتقوم في الأرض غير دولة الإسلام ، ومن أجل هذا الهدف السامي تهون النفوس وتعلو الهمم .

فأما حين تذهب النفوس بسبب تفريط من القائد دون أن تحقق شيئًا من أهدافها فهو خسارة في ميزان الدول والمبادئ وإن كان بالنسبة لأفراد الجيش الإسلامي لايعتبر كذلك لأنهم شهداء .

هذا وقد كتب عمر رضي الله عنه إلى والي الكوفة عبد الله بن عتبان مع رِبعيِّ بن عامر : أن استنفر من أهل الكوفة مع النعمان كذا وكذا[1]، فإني قد كتبت إليه بالتوجه من «الأهواز» إلى «ماه» فليوافوه بها وليَسِرْ بهم إلى «نهاوند» وقد أمَّرت عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهي إلى النعمان بن مقرن ، وقد كتبت إلى النعمان : إنْ حدث بك حدث فَعَلَى الناس حذيفة بن اليمان ، فإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نُعَيم بن مقرن [2] .

---

(١) يعني الثلثين كما قال علي رضي الله عنه واستقر عليه أمر الشورى .

(٢) تاريخ الطبري ١٢٧/٤ من روايته عن سيف بن عمر .

هذا ومن خطة الحرب التي وضعـها عمر ونفّذها النعـمان وقادته رضي الله عنهم وَضْع حاميـات من جيش المسلمين على منافذ الطرق المؤدية إلى نهاوند لمنع أمداد الفرس ، ولحـماية جيش المسلمين إذا سار إلى نهاوند ، وقـد نجحت الخطة حـيث وقف إمداد الفرس بالجـيوش وسار النعمان بجيشه وهو آمن من خلفه .

مغامرة من طليحة الأسدي :

وذكر الطبري في روايته عن سيف بن عمـر أن النعمان قد استقر بجيشه في مكان يقـال له « الطِّزَر » لتجتمع إليه الجيـوش الإسلامية، وأنه حينما عزم على المسـير بعث طَليعةً استكشافـيه مكونة من طليحة ابن خويلد الأسدي وعمرو بن مـعد يكرب الزبيدي ، وعمرو بن أبي سلمى ، ليَخبُروا له الطريق إلى نهاوند ، فلما ساروا يومًا وليلة رجع عـمرو بن أبي سلمـى فقـالوا : مارجّـعك ؟ قـال : كنت في أرض العجم، وقتَلتْ أرض جـاهلَها ، وقتل أرضًا عالُمها ، ومـضى طليحة وعـمرو بن مـعدي كـرب حتى إذا كـان من آخـر الليل رجع عمـرو فقـالوا:مارجّعك ؟ قـال :سرنا يومًا وليـلة ولم نر شيئًـا ،وخفت أن يُؤخَذ علينا الطرِيق،ونفذ طليحة ولم يحفل بهما ، ومضى حتى انتهى إلى نهاوند ،ولما اسـتبطأه الناس ظن بعضهم أنه قـد ارتد مرةً ثانية ، فلما أقبل عليهم كبَّروا،ولما علم بظنهم أنكر عليهم ذلك ثم دخلَ على النعمان فأخبره أنه ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه ولا أحد (١) .

وهذا موقف عظيم مـن مواقف الجسـارة والإقدام يُذكَر لطليـحة إضافة إلى مـوقف مماثل قام به في القادسيـة ، ولئن كان وقع في أيام

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٢٧ - ١٢٨ .

الردة في الفتنة وارتكب ذنبًا عظيمًا ، فإنه قد تاب إلى الله تعالى، وقدَّم لأمته الإسلامية ولدينه تضحيات لم يقم بها أحد مثله فيما يتعلق بمهمة استشكاف أرض العدو .

ولئن كان عمر رضي الله عنه قد أوصى قادة المسلمين بعدم الاعتماد عليه وعلى أمثاله من قادة المرتدين في مهمات قيادية، فإن ذلك لايعني اتهامهم في دينهم ولكنه من باب الاحتياط للمسلمين، وهذه سنة يجب أن يتنبه لها المسئولون عن الأمة، وذلك بأن لايسندوا المناصب القيادية لمن سبق لهم أن شاركوا في مذاهب هدامة يُقصَد بها القضاءعلى وجود الإسلام، وإن ظهرت توبة هؤلاء وحسنت أعمالهم.

وصول المسلمين إلى نهاوند :

وذكر الطبري في سياق روايته أنه بعد أن تأكد النعمان من سلامة الطريق إلى نهاوند نادى بالرحيل وأمر المسلمين بالتعبية وسار نحو نهاوند، فوافى جيش الفرس قرب نهاوند وهم على تعبيتهم وأميرهم الفيرزان، فلما رآهم النعمان كبَّر، وكبر الناس معه فتزلزت الأعاجم(1) .

فـ « الله أكبر » سلاح عظيم من أسلحة الرعب التي يزلزل الله بها قلوب الكفار ، فهي سلاح معنوي يسبق السلاح المادي ويمهد له بخلع قلوب الأعداء وإرهابهم .

وهو سلاح ماضي المفعول إذا صدر من قلوب مؤمنة تعتقد بما تقول، وتستحضر عظمة الله سبحانه الذي بيده كل شيء فإذا كان الكفار قد اعتزوا بكثرة عددهم وقوة عُددهم فالله جل وعلا أكبر منهم ومن كل مخلوق .

---

(1) تاريخ الطبري ١٢٨/٤ - ١٢٩ .

إن استصحاب الشعور بعظمة الله تعالى وأن كل مافي هذا الكون في قبضته جل وعلا يجعل المؤمنين المتقين يحتقرون جمع الأعداء وقوتهم مهما بلغوا في ذلك، وهذا الشعور يجعلهم يقدمون على قتالهم بقلوب مليئة بالإيمان ونفوس مفعمة بالثقة واليقين بنصر الله تعالى.

أما الكفار فإنهم لتجاربهم السابقة مع المسلمين أصبحوا يفزعون من تكبير المؤمنين، لمَا كان يَعقُب ذلك من هجوم صاعق لايقبل التراجع، وإقدام على الموت لايقبل التردد، فأصبح ذلك الهجوم المرعب مقترنًا برفع شعار التكبير، فصار له مفعول الهجوم الساحق، ولذلك تزلزل الفرس لما سمعوا التكبير من المسلمين مع أن المعركةلم تبدأ بعد.

قال : فأمر النعمان وهو واقف بحط الأثقال وبضرب الفسطاط ، فَضُرب وهو واقف ، فابتدره أشراف أهل الكوفة وأعيانهم ، فسبق إليه يومئذ عدة من أشراف أهل الكوفة ، وقد ذكر الإمام الطبري في روايته أسماء أربعة عشر منهم (١) .

وهذا الخبر قد يبدو صغيرًا لايستحق أن ينوه به ، ولكنه في الحقيقة يكشف عن جانب من طبيعة ذلك المجتمع العالي ، فالجيوش الإسلامية آنذاك ليس فيها مقاتلون وخدم أتباع ، كما هو الحال في جيوش الكفار، وقد سبق لنا مثال لذلك في القادسية حيث كان مع جيش الفرس مثلهم من الأتباع الخدم ، أما جيش المسلمين فإنهم كلهم مقاتلون ، ويتنافسون في أعمال الخدمة لأنهم يعتبرونها أعمالا صالحة يثابون عليها عند الله تعالى .

---

(١) تاريخ الطبري ١٢٩/٤ .

فهؤلاء أشراف أهل الكوفة يتنافسون في بناء فسطاط القيادة وهذا كما يدل على مستوًى عالٍ من خلق التواضع ، وعلى رغبة عالية في فعل الخير والعمل الصالح ، فإنه يدل بمضمونه على علو مكانة قائدهم في نفوسهم ، فللّه درُّهم ، ما أعظمهم قادةً وما أعظمهم جنودا !

مناوشات ومشورة بين النعمان وأهل الرأي :

قال : وأنشب النعمان بعد ما حط الأثقال القتال ، فاقتتلوا يوم الإربعاء والخميس وذلك لسبع سنين من إمارة عمر في سنة تسع عشرة وأنهم انحجزوا في خنادقهم يوم الجمعة ، وحصرهم المسلمون فأقاموا عليهم ما شاء الله ، والأعاجم بالخيار لايخرجون إلا إذا أرادوا الخروج، فاشتد ذلك على المسلمين ، وخافوا أن يطول أمرهم وسرَّهم أن يناجزهم عدوهم ، حتى إذا كان ذات يوم في جمعة من الجُمع تجمع أهل الرأي من المسلمين ، فتكلموا وقالوا : نراهم علينا بالخيار، وأتوا النعمان في ذلك فأخبروه فوافقوه وهو يُروِّي في الذي روّوا فيه ، فقال: على رسلكم لاتبرحوا ، وبعث إلى من بقي من أهل النجدات والرأي في الحروب، فتوافوا إليه فتكلم النعمان فقال : قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن ، وأنهم لايخرجون إلا إذا شاؤوا ، ولايقدر المسلمون على إنغاضهم - يعني تحريكهم - وانبعاثهم قبل مشيئتهم ، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق من الذي هم فيه وعليه من الخيار عليهم في الخروج فما الرأي الذي به نُحْمشُهم ونستخرجهم إلى المنابذة وترك التطويل ؟ فتكلم عمر ابن ثُبَي - وكان أكبر الناس يومئذ سنًا ، وكانوا إنما يتكلمون على

الأسنان – فقال: التحصن عليهم أشد من المطاولة ، فدعهم ولاتحرجهم وطاولهم ، وقاتل من أتاك منهم ، فردوا عليه جميعًا رأيه، وقالوا : إنا على يقين من إنجاز ربنا موعده لنا .

وتكلم عمرو بن معد يكرب فقال: ناهدهم وكاثرهم ولا تَخَفْهم، فردوا عليه جميعًا رأيه وقالوا : إنما تناطح بنا الجدران ، والجدران أعوان لهم علينا .

وتكلم طليحة فقال : قد قالا ولم يصيبا ما أرادا ، وأما أنا فأرى أن تبعث خيلا مؤدِّية ، فيحدقوا بهم ، ثم يرموا لينشبوا القتال ويُحْمشوهم، فإذا استَحْمَشُوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطرادا ، فإنا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم ، وإنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكُّوا فيها فخرجوا فجادُّونا وجاددناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب .

هذا وقد أمر النعمان بتنفيذ هذه الخطة من تلك الساعة مما يدل على أنها حازت على استحسانهم وموافقتهم كما سيأتي (١) .

وهذه خطة من النعمان يُحمد عليها أن جمع أهل الرأي والنجدة واستشارهم في الخروج من تلك المشكله ، وهذه الطريقة التي تقوم على الالتزام بمبدإ الشورى من أعظم الأسباب التي أدت إلى نجاح المسلمين في حروبهم وإداراتهم .

وقد أدلى بعضهم برأيه ، وتم نقده ورده ، إلى أن استقر الرأي على ما طرحه طليحة بن خويلد الأسدي ، وكان موفقًا فيما رأى .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٢٩ – ١٣٠ .

وسيتبين لنا من أحداث المعركة كيف أن هذا الرأي كان مفتاح الالتحام الحاسم مع الأعداء ، وهو رأي سيظل حبيسًا في فكر صاحبه لو أن القائد استبدَّ برأيه ، أو قصره المشورة على أناس محدودين .

ومن خلال دراسة هذه المشورة يتبين لنا أنهم كانوا يُخَطِّئون الرأي المجانب للصواب ، ولايرون في ذلك غضاضة ، ولاتحملهم المجاملة والمداراة على السكوت عن الخطأ أو البحث عن الحلول الوسط، بل كانوا صرحاء في نقد الآراء ، ولم يكن من انتُقد رأيه ورُدّ يحمل على من انتقده، ولايدفعه الغيظ منه على أن يخطئ رأيه وإن كان صوابًا ، ذلك أن رائدهم جميعًا هو طلب مرضاة الله تعالى ونصرةُ الإسلام ، فهم يفرحون بالعثور على الرأي الصائب وإن كان ممن انتقدهم وخطأ رأيهم .

وبهذا السلوك القويم نجحوا في حياتهم السلمية والحربية .

قال : فأمر النعمان القعقاع بن عمرو - وكان على المجرَّدة[1] ففعل ، وأنشب القتال بعد احتجاز العجم ، فأنغضهم - يعني حركهم للقتال- فلما خرجوا نكص ، ثم نكص ثم نكص ، واغتنمها الأعاجم ففعلوا كما ظن طليحة وقالوا : هي هي ، فخرجوا فلم يبق أحد إلا من يقوم لهم على الأبواب ، وجعلوا يركبونهم حتى أرز القعقاع إلى الناس ، وانقطع القوم عن حصنهم بعض الانقطاع والنعمان بن مقرن والمسلمون على تعبيتهم في يوم جمعة في صدر

(١) يعني الخيل التي جُرِّدَتْ وانتخبت لتكون في المقدمة .

النهار وقد عهد النعمان إلى الناس عهده، وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوهم حتى يأذن لهم ، ففعلوا واستتروا بالحَجَف من الرمي ، وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراحات ، وشكا بعض الناس ذلك إلى بعض ، ثم قالوا للنعمان : ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى إلى ما لقي الناس فما تنتظر بهم؟ ائذن لنا في قتالهم ، فقال لهم النعمان : رويدا رويدا ، قالوا ذلك مرارا فأجابهم بمثل ذلك مرارا ، رويدا رويدا ، فقال المغيرة : لو أن هذا الأمر إليّ علمت ما أصنع ، فقال : رويدا ترى أمرك ، وقد كنت تلي الأمر فتحسن فلا يخذلنا الله ولا إياك ، ونحن نرجو في المكث مثل الذي ترجو في الحث ، وجعل النعمان ينتظر بالقتال إكمال ساعات كانت أحب إلى رسول الله ﷺ في القتال أن يلقى فيها العدو ، وذلك عند الزوال وتفيؤ الأفياء ومهب الرياح ، وجاء في رواية حدير: إنه والله ما منعني أن أناجزهم إلا شيء شهدته من رسول الله ﷺ ، إن رسول الله ﷺ كان إذا غزا فلم يقاتل أول النهار لم يعجل حتى تحضر الصلاة وتهب الأرواح ويطيب القتال (١) .

وعملُ النعمان هذا يعتبر مثلا لما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الاهتمام بسنة رسول الله ﷺ ومنهجه ، وتيمنهم باتباع ذلك، وقد كان مَثَلَهم الأعلى في ذلك أبو بكر رضي الله عنه حيث كان أحرص المسلمين على التقيد بالسنة ، وظهر للصحابة بركة ذلك وعواقبه المحمودة ، ثم كان عمر رضي الله عنه كذلك من بعده .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١١٩ .

فالنعمان لايزال على ذكر من ذلك، فكان يتربص بالمسلمين حلول الساعة التي كان رسول الله ﷺ يحب أن يبدأ القتال بها ، وهي ساعة الزوال ، وذلك إذا لم يبدأ القتال في الصباح .

وإن في إجابة النعمان للمغيرة بن شعبة مثلا للأدب الإسلامي الرفيع فهو مع كونه قائد الجيش لم يعنِّفه حين اعترض على رأيه ، وهذا يدل على تواضعه وسماحته ، بل إنه أثنى عليه بالإحسان في ولايته ، وبين له أن ما يرجوه في الإسراع من النكاية بالأعداء ، وتلمُّس أسباب النصر يرجوه هو بالتأنِّي ، وأنه إنما لاحظ بالتأني أمراً هو فوق رأيه ورأي المغيرة وغيره ، وهو الاقتداء بالنبي ﷺ .

خطبة للنعمان :

قال : فلما كان قريبًا من تلك الساعة - يعني ساعة الزوال - تحشحش النعمان - أي تحرك - وسار في الناس على برذون أحوى - يعني قصير - قريب من الأرض ، فجعل يقف على كل راية ويحمد الله ويثني عليه ، ويقول : قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين وماوعدكم من الظهور ، وقد انجز لكم هوادي ماوعدكم وصدوره[(١)]، وإنما بقيت أعجازه وأكارعه ، والله منجز وعده ، ومتْبع آخر ذلك أوله، واذكروا ما مضى إذ كنتم أذلة ، وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزة ، فأنتم اليوم عباد الله حقا وأولياؤه ، وقد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة ، والذي لهم في ظفركم وعزكم والذي عليهم في هزيمتكم وذُلِّكُم ، وقد ترون من أنتم بإزائه

(١) يعني أوائله ومقدماته .

من عدوكم ، ومـا أخطرتم وما أخطروا لكم ، فأمـا ما أخطروا لكم فهـذه الرِّثَّة - يعني المتاع - وماترون من هذا السـواد - يعني البلاد - وأما ما أخطرتم فدينكم وبيضتكم- يعني دولتكم وقوتكم - ولا سواء ما أخطرتم ومـا أخطروا ، فلا يكونُنَّ على دنياهـم أحمى منكم على دينكم ، واتَّقى اللَّه عـبدٌ صدق الله ، وأبلى نفـسه فأحـسن البلاء ،

فإنكم بين خيرين منتظَرَين ، إحدى الحسنيين ، من بين شهيد حيٍّ مرزوق ، أو فتح قريب وظفر يسـير ، فكفى كل رجل ما يليه ، ولم يكلْ قرنه إلى أخـيه ، فيـجتمع عليـه قرنه وقرن نفـسه ، وذلك من المَلاَمَة ، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه ، فكل رجل منكم مسلَّط على ما يليه ، فـإذا قضيت أمري فاستعدوا فإني مكبر ثلاثا ، فـإذا كبرت التكبيرة الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ ، فإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه ، وليتـأهب للنهوض ، فإذا كبرت الثالثـة فإني حامل إن شاء الله فاحملوا مـعًا ، اللهم أعز دينك وانصر عبادك ، واجـعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك (١) .

هذا وإن خطبة النعمان هذه تعتبر من عيون الخطب الحربية ، وقد اشتملت على مواعظ وتوجـيهات عالية ، نوجز التـعليق على بعضها فيما يلي :

١ - ذكَّر النعـمان ذلك الجيش بوعـد الله إياهم بالنصر ، وذلك يجعلهم متفائلين بأن المعركة ستكون لصالحهم ، ولاشك أن من دخل المعركـة وهو واثق من النصر سيكون حـماسه وقوته أعظمَ بكثـير ممن دخلها وهو متردد خائف .

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٣٠ - ١٣٢ .

٢ - ذكَّرهم بما سيفقده الأعداء إذا انهزموا ، وما سيفقده المسلمون إذا انهزموا .

فالأعداء سيفقدون مظاهر الدنيا ومتاعها الزائل ، أما المسلمون فإنهم يخاطرون بدينهم الذي هو المصدر الوحيد للنور الإلهي في الأرض، ودولتهم التي لايوجد على ظهر الأرض من يمثل الحق غيرها، ولاسواء بين النتيجتين .

وفي هذا تذكير لهم بهدفهم الأسمى من وراء حروبهم المتواصلة ليبذلوا كل طاقتهم في الدفاع عن هذا الهدف .

٣- ذكَّرهم بإحدى الحسنيين : إما النصر على الأعداء ، أو الاستشهاد في سبيل الله تعالى ، وذلك إشارة إلى قول الله تعالى **﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾** [**التوبة** : ٥٢] يعني هل تنتظرون بنا أيها الأعداء في جهادنا من النتائج إلا أن نظفر بإحدى النتيجتين اللتين كل واحدة منهما هي حُسْنَى النتائج في مجالي الحياة والموت ؟ فإما حياة عزيزة بالنصر على الأعداء، وإما موت كريم بالظفر بالشهادة وكلاهما خير وسعادة .

٤ - ذكَّرهم بلزوم بذل الطاقة في الجهاد ، وذلك بأن يشعر المجاهد بأنه مسئول عن قتال من أمامه من الأعداء ، وأن لاتنازعه نفسه إلى الاتكال على أخيه المجاور له فيجمع عليه صد العدو المقابل لهما فتضعف قُوَّته بذلك .

ابتداء المعركة الفاصلة :

قال الطبري في سياق الرواية المذكورة : فلما فرغ النعمان من التقدم إلى أهل الموقف ، وقضى إليهم أمره رجع إلى موقفه ، فكبَّر الأولى والثانية والثالثة والناس سامعون مطيعون مستعدون للمناهضة ، يُنَحِّي بعضهم بعضا عن سَنَنهم - يعني يحاول كل واحد أن يوسع مجاله الذي يقاتل فيه فداء لأخيه - وحمل النعمان وحمل الناس ، وراية النعمان تنقضُّ نحوهم انقضاض العُقاب والنعمان مُعْلَم ببياض القباء والقلنسوة، فاقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً ، لم يسمع السامعون بوقعة يوم قط كان أشد قتالاً منها ، فقتَلوا فيها من أهل فارس فيما بين الزوال والإعتام ما طبق أرض المعركة ومايزلق الناس والدواب فيه، وأصيب فُرسان من فرسان المسلمين في الزلق في الدماء ، فزلق فرس النعمان في الدماء فصرعه ، وأصيب النعمان حين زلق به فرسه وصُرِع ، وتناول الراية نُعَيم بن مقرن قبل أن تقع ، وسجَّى النعمان بثوب ، وأتى حذيفةَ بالراية فدفعها إليه ، وكان اللواء مع حذيفة ، فجعل حذيفة نعيم بن مقرن مكانه وأتى المكان الذي فيه النعمان ، فأقام اللواء ، وقال له المغيرة : اكتموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفيهم لكَيْلا يَهِنَ الناس .

واقتتلوا حتى إذا أظلهم الليل انكشف المشركون وذهبوا والمسلمون مُلظُّون بهم متلبِّسون ، فَعُمِّي عليهم قصدهم ، فتركوه وأخذوا نحو اللِّهب (١) الذي كانوا نزلوا دونه بإسبيذهان فوقعوا فيه ، وجعلوا لايهوِي منهم أحد إلا قال « وايه خُرْد » فسمِّي بذلك « وايه خرد »

(١) اللهب المكان العميق .

إلى اليوم ، فمات فيـه منهم مائة ألف أو يزيدون ، سوى من قُتل في المعركة أعدادهم ولم يفلت إلا الشريد [١] .

وهكذا جـاء في هذه الرواية أن النعمـان رضي الله عنه زلقت به فرسه فصُرع ، وجاء في رواية ابن إسحاق وحدير أنه أصابته نَشَّابة من سهام العدو فـقتلته [٢] ويمكن الجـمع بين هذه الـروايات بأنه أصـابه السهم وزلقت فرسه فصرع على الأرض .

وهكذا استجاب الله تعالى دعاءه فتقبله شهيداً ذلك اليوم والمعركة على أشدّها .

ولقد ألهم الله تعالى أمير المؤمنين عمر حينما عيَّن خليفة النعمان من بعده ، وكأنه كان يتوقع استشهاده ، ولم يكن يفعل ذلك في أكثر المشاهد، بل كان يعين قائدا واحدا ، وقـد يعين القائد من يخلفه وقد لايفعل .

وهكذا انتهت هذه المعـركة المثيرة التي اسـتمر المسلمون فـيها في الضـرب والطعـان من زوال الشـمس إلى أن أظـلم الليل ، وكـانت بضراوتها وكثافة قتلاها من المشركين تعادل معركة دامت عدة أيام .

وهذا يدل على أن المـسلمين قـد بذلوا طاقـة عـظيـمـة ، وذلك لإخلاصهم ورغبتهم الأكيدة في إعزاز دينهم وحماية دولتهم .

وإن مما يثير العجب في نهاية المعـركة أن الفرس حينما هُزموا عند ظلام الليل لم يلجـئـوا إلى بلادهم وحصـونهم ، وهي ليـست منهم

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٣٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١١٥ - ١١٩ .

ببعـيد، والمسلمون لم يطوقـوهم من الخلف ، ولم يكن ذلك متيـسراً للمـسلمين وهم خُمس عـدد الأعـداء ، فلماذا تركـوا طريق بلادهم واتجهوا نحو اللّهب، وهو حسب سيـاق الرواية منخفض عميق مهلك لمن وقع فيه، فلماذا اتجهوا نحو هذا المكان المهلك ليموت فيه مائة ألف أو يزيدون ؟

هل كان باسـتطاعة المسلمين وهم بذلك العدد المحـدود أن يتولوا قتال من يليهم من الأعداء وأن يسوقوا بقـيتهم قسرا ليتردَّوا في ذلك المكان المهلك؟

ثم ما الذي ألجأ الصف الثـاني ومابعده إلى السقوط وقد سـمعوا صراخ الـصف الأول ورأوا مصـارعهم ؟ ألم يكن بإمكانهم التـراجع وتحذير من بعدهم من المصير المشئوم ؟

ثم ما الفارق بين هذا اللقاء وماسبقه من لقاءات حربية حيث كان الأعـداء يخرجـون لقتـال المسلمين مـتى أرادوا فإذا أحـسوا بالهـزيمة تراجعـوا ولجئوا إلى خنادقهم وحـصونهم ؟ فمـا بالهم ذلك اليوم لم يفعلوا ذلك؟

الحقيقـة أن المتأمل في واقع هذه المعركة ومعركة اليـرموك المشابهة لهـا يترجح لديه أن هنـاك قوةً عظيـمة غـيـر منظورة تولت دفع تلك الكتلة الهـائلة من البـشر بقـوة وعنف حتى أوقـعـتهم في المنخـفض السحيق .

إن الله سبـحانه يمد المؤمنين عند اشـتداد الموقف بالملائكة عـليهم السلام ، وقد تقدم لنا في عرض مـواقف اليرموك أن أبا عبيدة رضي

الله عنه ورجلاً آخر رأيا في النوم ليلة المعـركة أن الملائكة يقاتلون مع المؤمنين.

وفي كـلام علي بن أبي طالب السابق مـا يدل على أن الصحـابة رضي الله عنهم كانوا يعـتقدون بأن الملائكة تقـاتل مع المسلمين حيث يقول «وأيده - يعني أيد الله جند الإسلام - بالملائكة حتى بلغ مابلغ» أما في عـهد النبي ﷺ فإن أمر مـشاركة الملائكة واضح وصريح كـما جاء في الآيات التي نزلت في معركة بدر والأحزاب وحنين .

وبهـذا يتبين لنـا أن من المرجح أن الله سبـحـانه أيَّد المؤمنين في نهاوند بالملائكة عليهم السلام فقـضوا في الليل على بقية الكفار الذين لم تصل إليهم سـيوف المسلمين بالنهار ، بعـد مابذل المسلمون جـهدا عظيما في قتال الأعداء لم يسبق له مثيل .

ومما يؤيد ذلك أيضًا أن الرواة لم يذكروا أن المسلمين ألجئوا الكفار إلى ذلك المنحدر ، بل ذكـروا أنهم عَمُوا عن قصدهم ، فـلم يهتدوا إلى طريق مدينتهم وهذا إذا كـان متصوراً وقوعـه من أفراد منهم فإنه لايتصور مما يزيد على مائة ألف .

مواقف لبعض المجاهدين في نهاوند :

من المواقف التي تستحق أن يشار إليها ماجرى من سماك بن عبيد العبسي ، وقد أخرج خبره الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيـوخه عـمَّن حدثهم من قومـهم قال : بينمـا نحن محـاصرو أهل نهاوند خـرجوا علينا ذات يوم فقـاتلونا فلم نُلْبِثـهم أن هزمهم الله ، فتبع سـماك بن عبيد العبـسي رجلا منهم معه ثمانيـة نفر على أفراس

لهم ، فبارزهم فلم يبرز له أحد إلا قتله حتى أتى عليهم ، ثم حمل على الذي كانوا معه، فأسره وأخذ سلاحه ، ودعا له رجلا اسمه «عبد » فوكله به ، فقال: اذهبوا بي إلى أميركم حتى أصالحه على هذه الأرض وأؤدِّي إليه الجزية ، وسلني أنت عن إسارك ماشئت ، وقد مننتَ عليَّ إذ لم تقتلني ، وإنما أنا عبدك الآن ، وإن أدخلتني على المَلِك وأصلحت مابيني وبينه وجدتَ لي شكرا ، وكنتَ لي أخا، فخلَّى سبيله وآمنه ، وقال من أنت ؟ قال : أنا دينار – والبيت منهم يومئذ في آل قارن – فأتى به حذيفة ، فحدثه دينار عن نجدة سماك وماقتل ونَظَره للمسلمين ، فصالحه على الخراج (١) .

هذا وإن ما يتضمن هذا الخبر من شجاعة سماك العبسي ليعتبر مثلا على جرأة المسلمين في الحروب ، فإن إقدام سماك على مطاردة تسعة من الفرسان قد يعرِّض حياته للخطر فيما لو اجتمعوا جميعًا لمقاومته ، وهو أمر محتمل ، ولكن هذا البطل وأمثاله لا يضعون في حسابهم هذا الاحتمال ، لأن الواحد منهم إنما خرج يريد الشهادة ، فإما حصلت له على أيدي هؤلاء ففاز فوزاً عظيمًا ، وإما قتلهم أو هزمهم فقد ظفر بإحدى الحسنيين فهو موقن بالربح العظيم سواء ظفر بالشهادة أو بالنصر.

ولقد كان من نتائج هذه المطاردة المباركة قتل ثمانية من الأعداء واستسلام قائدهم ، وماتم بعد ذلك من المصالحة بينه وبين المسلمين على الإقليم الذي كان تحت ولايته .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٣٥ .

ومن المواقف المذكورة ما قام به القعقاع بن عمرو من قتل قائد الفرس «الفيرُزان» ، وكان القعقاع على مقدمة نعيم بن مقرن الذي تولَّى مهمة مطاردة من فرَّ من المعركة وقدَّم أمامه القعقاع بن عمرو فأدرك القعقاع الفيرُزان في ثنية همذان ، وكانت مشحونة من بغال وحمير موقرة عسلا ، فلم يستطع اجتيازها بدابَّته فنزل منها ، وهرب في الجبل فنزل القعقاع وتبعه حتى قتله ، وقال المسلمون إن لله جنودًا من عسل[1] .

وهكذا قضى القعقاع على أحد كبار قادة الفرس فكفى المسلمين شره بعد ذلك ، وهو عمل جليل يضاف إلى بطولاته الكثيرة التي مر ذكر بعضها.

وصول خبر الفتح إلى المدينة ومواقف لعمر :

هذا ما كان من شأن المسلمين في نهاوند ، أما أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقد كان يستنصر للمسلمين ويدعو لهم كما جاء في رواية زياد بن حدير عن أبيه أن أمير المؤمنين في المدينة يستنصر لهم ويدعو لهم مثل الحُبْلَى[2] .

وهذا التشبيه يدل على ما كان يعاني منه أمير المؤمنين من الهمِّ الشديد والتخوف على المسلمين

وإذا كان عمر رضي الله عنه كذلك فإن عموم الصحابة رضي الله

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٣٢ من رواية سيف بن عمر .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٢٠ .

عنهم فـي المدينة قلوبهـم مع إخـوانهم في نـهـاوند ودعــاؤهم لهم متـواصل، ولا شك أن لذلك الدعـاء المبارك أثراً في نزول نصـر الله تعالى على عباده المؤمنين .

إنهم يؤمنون إيمانًـا راسخًـا بأن الأمـر بيـد الله تعـالى وحـده . والدعاء الخالص إذا صدر من قلوب مؤمنة مخلصـة مستحضرة عظمة الله تعـالى وضَعْفَ خلْقـه فإنه سـبب مهم من أسـباب النصـر على الأعداء.

ولهذا فإن المسلمين الذين حضروا ميدان المعركة كانوا ثلاثين ألفا، ولكن الذين شاركوا في المعركة بدعائهم الصالح كانوا عشرات الألوف من المسلمين في المدينة وسائر أمصار الإسلام .

وإن شـعور المسلـم وهو يتوجـه إلى مـيدان المعـركـة بأن الذين سيشـاركونه بقلوبهم وابتهالهم إلى الله تعـالى هم عموم المسلمين في كل أقطار الأرض . . إن شعوره هذا يجـعله يدخل المعركة وهو واثق من نصر الله تعالى ، إذا تجرد المجاهدون من عوائق النصر .

أما وقع خبـر المعركة على أمير المؤمنين عمـر رضي الله عنه فقد كان مزيجًا من الفرح بالنصر ، والبكاء على فراق الأحبة من الشهداء.

وقد أخذ به الهمُّ مـأخذه في تلك الليالي حتى بلغه خبـر انتصار المسلمين ، يصوِّر ذلك ماجاء في إحدى الروايات التي أخرجها الإمام الطبري وفيها « وتململ عـمر تلك الليلة التي كان قدِّرَ لقائهم - يعني لقاء المسلمين مع أعدائهم - وجعل يخرج ويلتـمس الخبر فبينما رجل من المسلمين قد خـرج في بعض حوائجه ، فـرجع إلى المدينة ليلا ،

فمر به راكب في الليلة الثالثة من يوم نهاوند يريد المدينة فقال : ياعبد الله من أين أقبلت ؟ قال : من نهاوند ، قال : ما الخبر ؟ قال : الخبر خير فَتَح الله على النعمان واستشهد ، واقتسم المسلمون فيء نهاوند فأصاب الفارس ستة آلاف ، وطواه الراكب حتى انغمس في المدينة ، فدخل الرجل فبات فأصبح فحدث بحديثه ونمى الخبر حتى بلغ عمر وهو فيما هو فيه ، فأرسل إليه فسأله فأخبره ، فقال : صدق وصدقت ، هذا عُثَيم بريد الجن وقد رأى بريد الإنس ، فقدم عليه «طريف» بالفتح بعد ذلك فقال : ما الخبر ؟ قال : ماعندي أكثر من الفتح خرجت والمسلمون في الطلب وهم على رِجْل - يعني أنهم جادون في مطاردة أعدائهم - وكتمه إلا ما سرَّه - يعني أنه أخبر بما يسرُّه من الفتح وكتم خبر استشهاد النعمان لتوقعه بأنه سيتأثر من ذلك- (١) .

وفي هذا الخبر تصوير لما كان يعاني منه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من الهمِّ المتواصل حول نتائج تلك المعركة الحاسمة إشفاقًا منه على المسلمين ، حتى وافق ليلة المعركة قمةُ اشتداد الهمِّ عنده .

وفي هذا الخبر مثل من تسخير الله سبحانه ماشاء من خلقه ليكونوا في خدمة أوليائه ، فلما كان الجن أسرع من الإنس في قطع المسافات حمل بريد الجن الخبر مع بريد الإنس فسبقه بعدة أيام ، وكان في تلك الأيام راحة وطمأنينة للمؤمنين ، خاصة أمير المؤمنين عمر الذي كان أبلغهم همّـًا وأكثرهم تفكيراً في ذلك الأمر .

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٣٤ .

لقد كان مسلمو الجن في خدمة إخوانهم من مسلمي الإنس من غير أن يسعى لذلك المسلمون تكريمًا من الله تعالى لأوليائه المؤمنين .

وهكذا بلغ خبر الفتح أمير المؤمنين عمر ،ولم يبلغه خبر استشهاد النعمان بن مقرن لأن طريفًا المرسل بذلك أخبر أمير المؤمنين بما يسره من الفتح وطوى عنه ما يؤلمه من خبر الشهداء ، ولكن خبر الشهداء بلغ أمير المؤمنين مع السائب بن الأقرع الذي كان موكَّلاً بقسمة الغنائم، وقد ذكر الإمام الطبري خبر ذلك من رواية السائب قال : قدمت على عمر بن الخطاب فقال : ماوراءك ياسائب ؟ فقلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح الله عليك بأعظم الفتح واستشهد النعمان ابن مقرّن رحمه الله – فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون ، قال : ثم بكى فنشج حتى إني لأنظر إلى فروع منكبيه من فوق كتده – يعني مجتمع الكتفين – قال : فلما رأيت مالقي قلت : والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجل يُعرف وجهه، فقال : ألمستضعفون من المسلمين ! لكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم ، وما يصنعون بمعرفة عمر ابن أم عمر ! (١) .

وفي هذا الخبر موقفان جليلان ؟ أحدهما شفقة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على رعيته وحزنُه على مصابهم ، خاصة من كانوا مؤهلين للقيادة ، فقد بكى بكاء شديدًا على النعمان بن مقرن رضي الله عنه حين علم باستشهاده ، مع علمه بفضل الشهادة ، وأنها أمل المؤمنين الصادقين، لكنه يعلم أن أمور الأمة إنما تنتظم بالقادة الأكفاء ،

---

(١) تاريخ الطبري ١١٦/٤ .

فلذلك حزن هذا الحزن الشديد على فقد النعـمان كما حزن قبل ذلك على فقد أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم أجمعين .

ومن هذا البـاب ماجـاء في رواية ابن أبي نجيح : قـال عمـر بن الخطاب لجلسائـه : تمنَّوا ، فتمنَّوا ، فـقال عمـر بن الخطاب : لكني أتمنى بيتا ممتلئًا رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح (١) .

واختيار عمـر للولاة والقادة الأكفاء كان سببًا مـهمّـًا من أسباب نجاحه في الحكم واستقرار الأمور في عهده .

أما الموقف الثاني فهو في تأثره لمـا قال له السائب : والله يا أمير المؤمنين مـا أصيب بـعـده من رجلٍ يعـرف وجـهـه ، حـيث قـال المستضـعـفون من المسلمين ! لـكنَّ الذي أكرمـهم بالشـهادة يعـرف وجوههم وأنسابهم ، وما يصنعون بمعرفة عمر ابن أم عمر ! فقد أدرك حـالاً خطورة هذه الفهم الذي فـهمـه السـائب ، وهو أن الذين يُنظر لهم، ويُهتمّ بأمر وجودهم أو فقـدهم هم وجوه الناس المعروفون لدى الخليفة وولاته وقادته .

ولما كـان في ذلك الخـوفُ من الرجـوع إلى عرف الجـاهليـة في التـمـيـز بين الناس في الحـقوق مع تسـاويهم في الأداء ، وربط هذه الحقوق بمدى قربهم من القادة والولاة . . لما كان في كلام السائب نوع من التلميح لذلك غيـر المتعمد أنكره عمر بشـدة وحزم ، وربط الأمر كله بعلم الله تـعالى، فـهـو الذي خلق عبـاده هؤلاء ، ومنَّ عليـهم بالهدايـة ثم أكرمهم بالـشهادة ، وهو الذي يتـولى مكافأتهـم على ما قدموا من عمل في الآخرة.

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٤١٣ .

ثم أكد هذا المعنى بالتقليل من شأن معرفة عمر بهم ، وأن معرفته ببعض المسلمين لاتغني عنهم من الله شيئا،وجهله ببعضهم لا يضرهم عند الله تعالى .

وفي التعبير بقوله « ابن أم عمر » تواضع جليل من رجل كبير فإن الانتساب إلى الأم يدل على التواضع حيث إن من عادة العرب أن يفتخروا بآبائهم .

وإنه له أسوة حسنة برسول الله ﷺ حيث قال للرجل الذي ارتعد خوفًا لما جاء يكلمه « هوِّن عليك فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » (١) .

ولقد كان درسًا عاليًا في مكارم الأخلاق وعاه عمر وغيره من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

* * *

---

(١) دلائل النبوة ٥/ ٦٩ .

٨ - فتح أصبهان -

جرت بين المسلمين والفرس حروب بعد معركة نهاوند وذلك فيما جرى في فتح أصبهان ، وقد كان ذلك بقيادة عبد الله بن عبد الله بن عتبان، وقد التقى المسلمون بأعدائهم وكانوا تحت قيادة « الأستَنْدار» فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم خرج قائد مقدمة الفرس للبراز وهو شهربراز جاذويه فبرز له عبد الله بن ورقاء الأسدي ، فقتله عبد الله وانهزم أهل أصبهان ، ودعا قائدهم الأستَنْدار إلى الصلح فصالحهم المسلمون.

ثم سار عبد الله بن عتبان بجيشه نحو مدينة « جَيّ » بأصبهان ومَلِكُ أصبهان يومئذ « الفاذوسفان » فحاصرهم المسلمون واقتتلوا معهم في عدة لقاءات ، فقال الفاذوسفان لعبد الله : لا تقتل أصحابي ولاأقتل أصحابك ، ولكن ابرز لي فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتني سالمك أصحابي ، فبرز له عبد الله وقال : إما أن تحمل عليَّ وإما أن أحمل عليك، فقال : أحمل عليك ، فوقف له عبد الله ، وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فأصاب سرج فرسه ، فوقع عبد الله قائمًا ، ثم استوى على الفرس عُرُيًا وقال له : اثبت ، فحاجزه وقال : ما أحب أن أقاتلك فإني قد رأيتك رجلاً كاملاً ، ولكن أرجع معك إلى عسكرك فأصالحك[1].

وهكذا رأينا كيف أن براعة المسلمين في مجال المبارزة أكسبتهم هاتين المعركتين وفتحوا بذلك هذا الإقليم المهم ، وفي الخبر الأخير

---

(١) تاريخ الطبري ١٣٩/٤ - ١٤٠ من خبر سيف بن عمر عن شيوخه، بتصرف .

بيان أهمية اختيـار القادة حيث إن من الصفات اللازمة لذلك أن يكون القائد شجاعًا ذا مقدرة فائقة في فنون الحرب ، فقد رأينا كيف أن عبد الله بن عتبان وقع من فرسه قـائمًا ولم يسقط لما سقط سرج الفرس ، وقد أذهلت هذه الحـركة الرياضيـة الممتازة قـائد الفرس فاسـتسلم له واعتـرف برجوليـته الكاملة، وهذا يدل على أن المسلمـين آنذاك كانوا يهتمون كثيرًا بالتدريبات العسكرية المتوفرة في مجتمعهم ، إلى جانب ماتفوقوا به في مجال الأخلاق والمعاملة ، فكانوا محط إعجاب العالم في ذلك الزمن.

ولقد وفر قادتهم وأبطالهم المقدَّمون كثيرًا من الجهد على جنودهم بما قدمـوا من تضحيات في مـجالات المبارزة واقتـحام المناطق الخطرة والتخطيط الحربي المحكم ، بينما كـان قادة أعدائهم يَزُجُّون بجنودهم في مواقع الخطر بأعدادهم الكثيفة ، وأحيانًا يقرنونهم بالسلاسل حتى لايفروا ، ولايبذل القادة شيئًا يُذكر في المجال الحربي ، فتكون النتيجة أنهم يُعرِّضون جندهم لمجازر هائلة يكون بعدها الفشل والهزيمة .

* * *

٩ - معركة « واج الرّوذ » -

ذكر الإمام الطبري من حديث سيف بن عمر عن شيوخه أن الأعداء تكاتبوا من ثلاث جهات : الديلم وأهل الري ، وأهل أذربيجان، فخرج أهل الديلم بقيادة « موتا » حتى نزل بـ« واج روذ»، وأقبل الزينبي أبو الفَرُّخَان في أهل الري حتى انضم إليه ، وأقبل إسفَنْدياذ أخورستم في أهل أَذْرَبيجان حتى انضم إليه ، وتحصن المسلمون في « دَسْتَبَى » وبعثوا إلى نُعَيم بن مقرّن بالخبر ، وكان في همذان في اثنى عشر ألفا من الجند .

وكتبوا إلى عمر باجتماعهم ففزع منها عمر واهتم بحربها.

وهكذا اجتمعت هذه الجيوش لحرب المسلمين بعدما رجع منهم من رجع بعد نهاوند ، ولم يبق مع نعيم بن مقرن رضي الله عنه إلا هذا العدد القليل بالنسبة لكثرة أعدائهم .

فهل من الرأي أن يُقْدم المسلمون على معركة غير متكافئة ؟ أو ينسحبوا ويطلبوا المدد من أمير المؤمنين ؟

فالإقدام على المعركة مغامرة ، خاصة وأن أحد الجيوش الثلاثة وهم الديلم يقاتلون المسلمين لأول مرة ، ولاشك أن الذين خبروا قوة المسلمين ، وجربوا الهزائم على أيديهم سيكونون أضعف أمامهم من الذين يقاتلونهم لأول مرة .

ولكن نُعيمًا البطل المقدام لم يجعل في الأمر خياراً ، بل أقدم على المسير إليهم ، لا إقدام المتهور ، بل إقدام من حَسُنَ ظنه بالله تعالى ، وعظمت ثقته بنصر أوليائه ، وإقدام من عظمت ثقته بإيمان

جنده واندفاعهم نحو التضحية بكل طاقتهم .

وقد استخلف نعيم بن مقرن يزيد بن قيس على ولايته ، وخرج إلى الأعداء بالجيش ، حتى نزل عليهم بـ « واج الروذ » فاقتتلوا بها قتالا شديداً ، وكانت وقعة عظيمة تعدل « نهاوند» ولم تكن دونها ، وقُتل من الأعداء أعداد كبيرة لايُحصون ، ولاتقصر ملحمتهم من الملاحم الكبار.

وقد كان أمير المؤمنين عمر مُهتَمّاً بحربهم ، ويتوقع ما يأتيه منهم، فلم يفجأه إلا البريد بالبشارة ، فقال : أبشير ؟ فقال : بل عروة، فلما ثنَّى عليه ، أبشير ؟ فطِن فقال : بشير ، فقال عمر : رسول نعيم؟ قال: رسول نعيم ، قال : الخبر ؟ قال : البشرى بالفتح والنصر ، وأخبره الخبر ، فحمد الله وأمر بالكتاب فقُرِئ على الناس، فحمدوا الله .

ثم قدم سماك بن مخرمة وسماك بن عبيد وسماك بن خَرَشَة في وفود من وفود الكوفة بالأخماس على عمر ، فنسبَهم، فانتسب له سماك وسماك وسماك ، فقال : بارك الله فيكم ، اللهم اسمك بهم الإسلام، وأيدهم بالإسلام (١) .

* * *

(١) تاريخ الطبري ١٤٨/٤ ، بتصرف .

١٠ - فتح الري -

أخرج الإمام أبو جعفر الطبري عن شيوخه قالوا : وخرج نُعَيم ابن مقرّن من و اج رُوذ في الناس - وقد أخربها - إلى دَستَبَى ، ففصل منها إلى الري ، وقد جمعوا له ، وخرج الزينبيّ أبو الفَرُّخان، فلقيه الزينبي بمكان يقال له قَهَا مسالمًا ومخالفًا لملك الريّ ، وقد رأى من المسلمين ما رأى مع حسد سياوَخْش وأهل بيته ، فأقبل مع نُعيم والملك يومئذ بالريّ سياوَخْش بن مهران بن بهرام شوبين ، فاستمدّ أهلَ دُنْباوَند وَطبرستان وقُومس وجُرْجان . وقال : قد علمتم أن هؤلاء قد حلُّوا بالريّ ، إنه لامقام لكم ، فاحتشدوا له ، فناهده سياوَخْش ، فالتقوْا في سَفْح جبل الريّ إلى جنب مدينتها ، فاقتتلوا به ، وقد كان الزينبي قال لنُعيم : إنّ القوم كثير ، وأنت في قلّة ، فابعث معي خيلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لايشعرون به ، وناهدْهم أنت ، فإنهم إذا خرجوا عليهم لم يثبتُوا لك . فبعث معه نُعيم خيلاً من الليل ، عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو، فأدخلهم الزينبي المدينة ، ولايشعر القوم ، وبيَّتهم نُعيم بياتًا فشغلهم عن مدينتهم ، فاقتتلوا وصبروا له حتى سمعُوا التكبير من ورائهم . ثمّ إنهم انهزموا فقُتلوا مقتلةً عُدّوا بالقَصب فيها [١]، وأفاء الله على المسلمين بالرّي نحواً من فئ المدائن ، وصالحه الزينبي على أهل الريّ ومَرْزَبه[٢] عليهم نُعيم ، فلم يزل شرف الريّ في أهل الزينبي الأكبر ، ومنهم شَهْرام وفَرُّخان ، وسقط آل بهرام ، وأخرب نُعيم مدينتهم ،

(١) يعني لكثرة قتلاهم لم يمكن عدُّهم إلا بقياس مكانهم بالقصب .

(٢) مرزبه عليهم ، أي ولاه مرزبانًا عليهم . والمرزبان : رئيس الفرس .

وهي التي يقال لهـا العتيـقة - يعني مدينة الرّي - وأمـر الزينبي فبنى مدينة الرّي الُحدثَى . وكتب نُعيم إلى عمر بالذي فـتح الله عليه مع المضارب العجليّ ، ووفّد بالأخماس مع عُـتيبة بن النّهاس وأبي مفزّر في وجوه من وجوه أهل الكوفة (١) .

وهذا الذي قرره نعيم بن مـقرن من قبول معونة الفَـرُّخان وضمّه وجنوده إلى الجيش الإسـلامي رأي سديد ، لأنه قوة تضـاف إلى قوة المسلمين ، إضافة إلى كونه من أهل البـلاد ، فهو بهذا ينفع المسلمين برأيه، كما جرى في هذا الخبر .

ولكن هذا الأمر ليس مـشروعًا علـى إطلاقه ، بل لابد أن تكون القيـادة للمسلمين ، وأن تكون قوتهم أعظم من قـوة حلفائهم ، وأن يتأكـد لهم صدق مُحَـالفيهم .. إلى غـير ذلك من الضـمانات التي تضمن خضـوع هؤلاء الأعداء للمسلمين سواء في حـال انتصارهم أو هزيمتهم .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٥٠ .

١١ – فتح الباب –

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري عن شيوخه قالوا : ردّ عمرُ أبا موسى إلى البصرة ، وردّ سراُقة بن عمرو – وكان يُدعَى ذا النور – إلى الباب ، وجعل على مقدّمته عبد الرحمن بن ربيعة – وكان أيضًا يُدعَى ذا النور – وجعل على إحدى المجنّبتين حُذَيفة بن أسيد الغفاريّ، وسَمَّى للأخرى بكير بن عبد الله الليثيّ – وكان بإزاء الباب قبل قدوم سُراقة بن عمرو عليه ، وكتب إليه أن يلحق به – وجعل على المقاسم سَلْمان بن ربيعة .

فقدّم سُراقة عبد الرحمن بن ربيعة ، وخرج في الأثر ، ولما أطلّ عبد الرحمن بن ربيعة على الملك بالباب – والملك بها يومئذ شهربراز، رجل من أهل فارس ، – كاتبه شهربراز ، واستأمنه على أن يأتيه ، ففعل فأتاه، فقال إنّي بإزاء عدوّ كَلِب وأمم مختلفة ، لاينْسَبون إلى أحساب، وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يُعين أمثال هؤلاء ، ولايستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول،وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان،ولست من القبْح في شيء،ولا من الأرمن، وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي ، فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم،صَغْوِي (١) معكم ، وبارك الله لنا ولكم ، وجزيتنا إليكم النصر لكم ، والقيام بما تحبّون ، فلا تذلّونا بالجزية فتوهنونا لعدوّكم.

فقال عبد الرحمن : فَوْقي رجلٌ قد أظلك فسرْ إليه ، فجوّزه ، فسار إلى سُراقة فلقيَه بمثل ذلك ، فقال سراقة : قد قبلت ذلك فيمن

(١) يعني ميلي .

كان معك على هذا ما دام عليه ، ولابدّ من الجزاء ممّن يقيم ولاينهض. فقبل ذلك ، وصار سنّة فيمن كان يحارب العدوّ من المشركين ، وفيمن لم يكن عنده الجزاء ، إلا أن يستنفروا فتُوضع عنهم جزاء تلك السنة . وكتب سُراقة إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فأجازه وحسَّنه .

وقد وجه سراقة بن عمرو عددا من السرايا لفتح تلك البلاد ، ثم مات رحمه الله تعالى واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة .

هذا وقد ذكر الإمام الطبري من رواية سيف بن عمر عن شيوخه أن عبد الرحمن بن ربيعة أقره أمير المؤمنين على قيادة الجيش الذي وجهه لفتح الباب بعد موت سراقة بن عمرو فخرج عبد الرحمن بالناس حتى قطع الباب - وولاية الباب هي آخر حامية لدولة الفرس من ناحية الشمال- فقال له شهربراز - وهو ملك ولاية الباب الذي صالح المسلمين- قال له : ما تريد أن تصنع ؟ قال : أريد « بلَنْجر » قال : إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب ، قال : لكنا لانرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم ، وتالله إن معنا لأقوامًا لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغتُ بهم الرَّدْم - يعني سد يأجوج ومأجوج - قال وماهم؟ قال : أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ، ودخلوا في هذا الأمر بنيَّة ، كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية فازداد حياؤهم وتكرمهم ، فلا يزال هذا الأمر دائمًا لهم ، ولايزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم ، وحتى يُلفَتوا عن حالهم بمن غيَّرهم (١) .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٥٥ - ١٥٨ ، بتصرف .

وهذا وصف دقيق من عبد الرحمن بن ربيعة لحال الصحابة رضي الله عنهم ، وبيان لبعض عوامل النصر ، فمن ذلك دخول الجهاد بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله تعالى وإعزاز دينه ، فإذا تغيرت النية لإرادة الدنيا أو الجاه فإن النصر غير مضمون ، بل ربما أنزل الله عقوبته على هؤلاء الذين بدَّلوا نياتهم ، وخادعوا المسلمين .

ومن ذلك صلاح الولاة وعدلهم ، فإذا كانت نية الولاة صادقة في إعزاز الإسلام وتقوية دولته ، وأصبحت سيرتهم عادلة فإن أصحاب العناصر الزكية ممن تحت ولايتهم تكون لهم الكلمة والقيادة ، فبذلك تبرز طاقاتهم الكبيرة ، ويكون التنافس في الأعمال الصالحة ، ويستمر الجهاد قائمًا وحيًّا في النفوس .

ومن كانت هذه صفاتهم وصفات ولاتهم فإنهم لايُغلبون بإذن الله تعالى ، ولايحول دون طموحاتهم حائل حتى تتحقق دولة الإسلام الكبرى، وتكون كلمة الله هي العليا في الأرض .

قال : فغزا – يعني عبد الرحمن بن ربيعة – بَلَنجَر غزاة في زمن عمر لم تَئِمْ فيها امرأة ، ولم يَيْتَم فيها صبي ، وبلغ خيله في غزاتها «البيضاء» على رأس مائتي فرسخ من بلنجر ، ثم غزا فسَلم ، ثم غزا غزوات في زمان عثمان ، وأصيب عبد الرحمن حين تبدَّل أهل الكوفة في زمان إمارة عثمان ، لاستعماله من كان ارتد استصلاحًا لهم ، فلم يصلحهم ذلك ، وزادهم فسادًا أنْ سَادَهم من طلب الدنيا ، وعضَّلوا بعثمان حتى جعل يتمثل :

وكنت وعمرًا كالمُسَمِّن كَلْبَه فخَدَّشَه أنيابُه وأظافره

وفي رواية أخرى عن سلمان بن ربيعة قال : لما دخل عليهم عبد الرحمن بن ربيعة حال الله تعالى بين الترك والخروج عليه ، وقالوا: ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت ، فتحصنوا منه وهربوا فرجع بالغُنْم والظفر ، وذلك في زمان إمارة عمر ، ثم إنه غزاهم غزوات في زمان عثمان ، ظفر كما كان يظفر ، حتى إذا تبدَّل أهل الكوفة لاستعمال عثمان من كان ارتد فغزاهم بعد ذلك، تذامرت الترك وقال بعضهم لبعض : إنهم لايموتون ، قال : انظروا وفعلوا ، فاختفوا لهم في الغياض ، فرمى رجل منهم رجلا من المسلمين غِرَّةً فقتله ، وهرب عنه أصحابه ، فخرجوا عليه عند ذلك ، فاقتتلوا فاشتد قتالهم ، ونادى منادٍ من الجو :صبراً آل عبد الرحمن وموعدكم الجنة ،فقاتل عبد الرحمن حتى قُتل ، وانكشف الناس ، وأخذ الراية سلمان بن ربيعة، فقاتل بها، ونادى المنادي من الجو : صبراً آل سلمان بن ربيعة ، فقال سلمان :أوَتَرَى جزعًا ! ثم خرج بالناس ، وخرج سلمان وأبو هريرة الدوسي على جيلان فقطعوها إلى جُرجان، واجترأ الترك بعدها ، ولم يمنعهم ذلك من اتخاذ جسد عبد الرحمن ، فَهُمْ يستسقون به حتى الآن (١) .

وهكذا تبين لنا أن فساد الولاة يؤثر على مستوى الجهاد، فبالرغم من كون عبد الرحمن بن ربيعة مايزال هو القائد فإن تَبَدُّل الأمراء في الأمصار المشرفة على الجهاد ، وتَوَلِّي من سبقت منهم ردَّة ، ثم لم يُعْرَف منهم بعد الولاية استقامة يُخَذِّل المجاهدين ويهبط من

(١) تاريخ الطبري ٤/١٥٥ - ١٥٩ .

معنوياتهم، ويتيح الفرصة لمن كان منهم له ميل إلى الدنيا إلى استعجال الفرصة، لينال نصيبه من ذلك بالوساطات الهَرَمِيَّة المعروفة عند أهل الدنيا .

وبهذا نعرف شيئًا من الحكمة في السُّنَّة التي مضى عليها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في منع تولية من سبقت ردتهم وإن حسن إسلامهم على أكثر من مائة كما سبق، وهما مجتهدان في ذلك، وعثمان رضي الله عنه مجتهد في محاولة استصلاح هؤلاء ، ولكن الحق فيما ذهب إليه أبو بكر وعمر من ذلك، وقد تبين لعثمان الآثار السيئة التي ترتبت على إسناد الأمر لمن سبقت ردتهم، كما هو ظاهر في الرواية .

وفي هذه الرواية بيان لعمق إدراك الرواة آنذاك وقوة توحيدهم، فإن السبب الظاهر في تحليل هذه الوقائع أن الترك قد انخدعوا بالمسلمين حيث ظنوا أنهم لايموتون ، ثم إنهم قاموا بتجربة تَبَيَّن لهم منها أنهم يموتون فتجرؤوا على قتالهم ، ولكن السبب الخفي هو معية الله جل وعلا لأوليائه بالنصر والتأييد ، وتسخير قلوب الأعداء لهيبة المسلمين والرعب منهم ، حينما كان وُلاتهم من أهل الصلاح والتقوى، فحينما تغيَّر هؤلاء الولاة فأصبحوا من أهل الدنيا ، وتغير بعض الجند بتغيُّرهم تخلَّى الله تعالى عن نُصرتهم ، فانتُزعت الهيبة من قلوب أعدائهم وتجرؤوا عليهم .

أما الدلائل الظاهرة لتغير بعض الجند فمنها كما جاء في هذه الرواية هربهم من العدو حينما قتلوا رجلاً منهم ، وهربهم لما قُتل

قائدهم أثناء المعركة ، والمسلمون في ذلك العهد لم يكونوا يهربون أبدًا من عدوهم، بل كان الواحد منهم يقابل رهطًا من الأعداء ، فيثبت لهم ، فكان الهرب أول علامات الانهزام التي جَرَّأتْ أعداءهم عليهم .

وقول الترك « ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت» باعثه انتصارات المسلمين المتوالية وقضاؤهم على أعظم امبراطورية في نصف الأرض الشرقي ، واقتطاعهم أهم ممالك الامبراطورية الأخرى في الغرب ، ثم أهم من ذلك انتصاراتهم الخارقة للعادة كما في معركة اليرموك ونهاوند ، حيث يغلب على ظن المتأمل فيها أن الملائكة عليهم السلام كانت تقاتل مع المؤمنين .

ولقد كان لهذا الاعتقاد أثر فعال في توهين الأعداء كما هو الحال في هذه الموقعة مع الترك .

ومن هذه المواقف المثيرة في هذا الخبر ما كان من نداء الملائكة عليهم السلام حيث قالوا : « صبراً آل عبد الرحمن فإن موعدكم الجنة» .

وفي هذا دلالة على أن الله تعالى قد كتب لهم الشهادة في تلك المعركة ولم يكتب لهم النصر ، وذلك لتخلُّف بعض عوامل النصر المعروفة حيث مال بعض الجند إلى الدنيا ، ولم يتجردوا للآخرة فضعُف صبرهم وثباتهم ، وأصبحت رَحَى الحرب تدور على أهل الثبات والبلاء، فاستُشهد من استشهد في تلك المعركة رضي الله عنهم.

ومـوقف آخر يـدلنا على عظمـة المسلمين في قلوب أعـدائهم ، حـيث كان أولئك القـوم يقـدّسون جسـد عبـد الرحـمن بن ربيعـة فيستمطرون به الغمـام ، حيث لم تأكل الأرض جسده ، ولـم يتعرض للتعفُّـن ، وهذا دليل على صدقه وصلاحه رحـمه الله ، ولاشك أن ذلك كان من دوافع إقبالهم على الإسلام بعد ذلك .

* * *

١٢ – شهادتان لصالح المسلمين –

في أثناء هذه الفتوح صدرت شهادتان من الأعداء على عدل المسلمين ووفائهم وبيان سر عظمتهم وقوتهم .

فأولى الشهادتين صدرت من شهربراز ملك ولاية الباب الفارسية، وقد أخرج خبر ذلك الإمام الطبري من رواية مطر بن ثلج التميمي، وذكر قصة حضور الرجل الذي بعثه شهربراز لاستكشاف سد يأجوج ومأجوج وماذكر من صفته وأنه أعطى شهربراز ياقوتة أهداها إليه ملك تلك البلاد وأن شهربراز ناولها عبد الرحمن بن ربيعة قائد المسلمين في تلك الولاية وماحولها ، وأن عبد الرحمن نظر إليها ثم ردها إليه فقال شهربراز : لَهذه خير من هذا البلد – يعني الباب – وايْمُ الله لأنتم أحب إليَّ مِلْكَةً من آل كسرى ، ولو كنت في سلطانهم ثم بلغهم خبرها لانتزعوها مني ، وايْمُ الله لايقوم لكم شيء ماوفيتم ووفَى مَلككم الأكبر(١).

هذا وإن قول شهربراز هذا شهادة حق للمسلمين من غيرهم ، فالمسلمون قد ملكوا قلوب العالم آنذاك بالعدل والوفاء وسائر مكارم الأخلاق ، بعدما أزالوا أصحاب الطغيان والهوى بالكفاح والجهاد المتواصل، فاشرأبَّت إليهم أعناق أهل الشهامة والوفاء ممن يقدِّرون مكارم الأخلاق ، وينفرون من البغي والعدوان ، فوجدوا في المسلمين ضالَّتهم المنشودة ، حيث وجدوا وُلاتَهم يُشكِّلون هرمًا متناسبًا في تمثيل هذه المكارم ، من إمامهم الأكبر إلى أصغر والٍ فيهم ،

(١) تاريخ الطبري ١٥٩/٤ – ١٦٠ ، بتصرف .

وأصبحت مكارم الأخلاق هي السِّمَة البارزة في أفراد المسلمين في أي بقعة حلُّوها، وتضاءل وجود أصحاب الهوى والبغي ، واضطروا إلى الاستخفاء بميولهم المنحرفة حتى لايُكشَفوا فتقع عليهم العقوبة الرادعة.

فَببُرُوز أصحاب الشهامة والعدل والوفاء والتواضع، واختفاء أصحاب الأثرة والبغي والكبرياء ظهر المجتمع الإسلامي وكأن كلاً أفراده ممن يمثلون الرقي الأخلاقي في جميع أبعاده .

وهذه ظاهرة خلاَّبة بهرت الأمم، فسارع كل من مَلَكَ حريته إلى الدخول في الإسلام، أو على الأقل إلى إبرام الصلح مع المسلمين والرضى بالدخول تحت حمايتهم .

أما الشهادة الثانية فقد صدرت من ملك الصين، وذلك حينما أرسل له كسرى يطلب منه المدد والنصرة ، فجرت بينه وبين رسول كسرى محاورة جاء فيها قول ملك الصين : قد عرفتُ أن حقّاً على الملوك إنجاد الملوك على من غلبهم فَصفْ لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم ، فإني أراك تذكر قلةً منهم وكثرةً منكم ، ولايَبلُغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشرٍّ فيكم ، فقلت : سلني عما أحببت ، فقال : أيوفون بالعهد ؟ قلت: نعم، قال: ومايقولون قبل أن يقاتلوكم ؟ قلت : يدعوننا إلى واحدة من ثلاث ، إما دينهم فإن أجبناهم أجرونا مجراهم ، أو الجزية والمنعة أوالمنابذة ، قال : فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قلت: أطوع قوم لمرشدهم، قال فما يحلُّون وما يحرِّمون؟

فأخبرته ، فقال: أيحرمون ماحُلّل لهم أو يحلُّون ماحُرِّم عليهم ؟ قلت :لا ، قال : فإن هؤلاء القوم لايهلكون أبداً حتى يُحلُّوا حرامهم ويُحرِّموا حلالهم ، ثم قال : أخبرني عن لباسهم، فأخبرته ، وعن مطاياهم ، فقلت : الخيل العراب - ووصفتها- فقال: نعْمَت الحصون هذه ، ووصفت له الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها، فقال: هذه صفة دوابٍّ طوال الأعناق .

وكتب معه كتابًا إلى يزدجرد : إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوَّله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق عليّ ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدُّوها، ولو خُلِّي سربَهُم أزالوني ماداموا على ماوصف فسالمْهُم،وارْضَ منهم بالمساكنة ولاتَهِجهم مالم يَهِجُوك . ذكره الإمام الطبري من رواية سيف بن عمر بإسناده عن الوازع بن زيد بن خُلَيدة [١] .

وهكذا شهد ملك الصين للمسلمين بالقوة والعظمة وامتلاك أسباب التمكين في الأرض ، وماجاء في هذه الاستفسارات والنتائج المرتبة عليها يدل على سعة عقل ملك الصين وخبرته الدقيقة بعوامل انتصار الأمم وعوامل انهزامها .

وقد أشار إلى بعض العوامل التي كانت سببا في انتصار المسلمين وتمكينهم في الأرض ، فمن ذلك :

١ - وفاؤهم بالعهد ، وذلك أن الوفاء بالعهد دليل على الالتزام بمبدإ قوي مهيمن ، لاتتلاعب به الأهواء ، وهذا المبدأ يفرض احترام

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٧٢ - ١٧٣ .

أصحابه على الناس ، ويبعث على هيبتهم ، فأما لو نقض المسلمون العهود فإنهم يصبحون كغيرهم ممن تُسيِّرهم أهواؤهم أو أهواء من يعملون لهم ، وبالتالي تزول هيبتهم عند الأمم ويطمعون في الاستيلاء على بلادهم .

٢ - أن أول خصلة يدعو إليها المسلمون هي دخول أعدائهم في الإسلام ، وأنهم إذا دخلوا فيه كانوا كالمسلمين تماما، وأصبحت لهم بلادهم وسائر حقوقهم ، بل أصبحوا جديرين بأن يُفرض لهم العطاء كبقية المسلمين ، بدلاً من أن تؤخذ منهم الجزية ، وإن هذا وحده ليدل على أن المسلمين لم يخرجوا من بلادهم لطلب ملك أو للإفساد في الأرض، وهذا يجعل جنود الأعداء يقاومون المسلمين بضعف لعلمهم بأنهم دعاة إصلاح ، وقد يتأكد لديهم أن إنقاذهم من ظالميهم سيكون على يد هؤلاء الذين وُجِّهوا لقتالهم ، ولهذا العامل وغيره كان الكفار دائمًا ضعفاء أمام المسلمين في ذلك الزمن .

ولقد كان أكثر أفراد الأمم سعادة آنذاك هم الذين دخلوا في الإسلام، ثم يليهم في ذلك الذين دفعوا الجزية ودخلوا في حماية المسلمين ، لأنهم لمسوا عدل المسلمين ورحمتهم بالمقارنة بما كانوا عليه من ظلم ولاتهم السابقين .

٣- طاعة الجنود لقادتهم ، والمسلمون الأوائل في هذه الخصلة لانظير لهم في الأمم ، ذلك أنهم يعتبرون طاعة القائد من طاعة الله تعالى ما لم يأمر بمعصية ، وهذا لا يوجد في غير الإسلام ، ولذلك قال رسول كسرى في وصفهم « هم أطوع قوم لمرشدهم » .

٤ - الالتزام الكامل بالدين الذي من أجله قاتل المسلمون ، فإن المسلمين إذا التزموا بأوامر الدين فأحلُّوا ما أحل الله وحرموا ماحرم الله تعالى فإنه جل وعلا يكون معهم ، ومن كان الله معه فإنه لايُغلب أبداً، وبعد هذا فإن قوة المسلم في جهاده إنما تنبع من كونه يدافع عن عقيدة صحيحة مهيمنة على مشاعره ، وهُوَلَها في غاية الاحترام والتعظيم ، فإذا أخلَّ بهذه العقيدة فإن قوته تضعف كثيراً لأنه يشبه والحال هذه من يقاتل بلا عقيدة ، وإنما يقاتل من أجل الوطن أو المال وغير ذلك من المنافع الدنيويه .

ولقد أدرك ملك الصين خطر مخالفة الدين الذي من أجله كان القتال والانسياح في الأرض ، حيث قال : « فإن هؤلاء القوم لايهلكون أبداً حتى يُحلُّوا حرامهم ويحرموا حلالهم » .

ومن الذي يستطيع من الأعداء أن يحمل المسلمين على هذه المخالفة؟

إنه لايمكن أن يتم شيء من ذلك إلا بإرادة المسلمين أنفسهم، ولذلك كان مما يشبه المستحيل أن يستطيع الأعداء التغلب على المسلمين ما لم يكونوا هم بأنفسهم عونا على أعدائهم ، وذلك بالتفريط في أمور دينهم الذي هو مصدر عزهم ومكْمَنُ قوتهم .

وبعد هذه المساءلة قال ملك الصين في رسالته إلى كسرى : ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدُّوها، ولو خُلِّي سَرِبُهم أزالوني ماداموا على ماوصف - يعني لو خلِّي طريقهم إلى ملك الصين لأزالوه رغم قوته الذي ذكر .

وهذه العوامل التي ذكرها ملك الصين هي بعض عوامل قوة المسلمين ، وقد اكتسب معرفتها بالخبرة بأحوال الأمم .

هذا وإنَّ صدْق رسول كسرى في خبره عن المسلمين دليل على أن عامة الفرس كانوا معجبين بالمسلمين ، ولذلك سارع كثير منهم إلى الدخول في الإسلام منذ أن زالت دولة الطغاة عنهم وأصبحوا أحراراً في تفكيرهم .

وصية من أمير المؤمنين عمر :

وماذكره ملك الصين من أن سر انتصار المسلمين المتكرر يكْمُن في التزامهم بدينهم قد أوصى به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كثيراً ، فمن ذلك قوله - كما جاء في سياق هذه الرواية - في خطبة له بعد ورود خبر انتصار المسلمين على الترك وعلى آخر جمع ليزدجرد ملك الفرس: إن الله تبارك وتعالى ذَكَر رسوله ﷺ وما بعثه به من الهدى، ووعد على اتباعه منْ عاجل الثواب وآجله خير الدنيا و الآخرة فقال له ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (١) فالحمد لله الذي أنجز وعده ونصر جنده ، ألا إن الله قد أهلك مُلْكَ المجوسية وفرّق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبرا يضر بمسلم ، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون ، ألا وإن المصرَين - يعني البصرة والكوفة - من مسالحها اليومَ كأنتم والمصرَين من البُعْد - يعني أن فتوحات أهل البصرة والكوفة من البُعْد كبُعد المدينتين عن المدينة المنورة - وقد وغلوا في البلاد، والله بالغ أمره ومنجز وعده

(١) سورة الصف / ٩ .

ومتّبع آخر ذلك أوَّله ، فقوموا في أمره علـى رِجْلٍ يُوفِ لكم بعهده ويؤتكم وعده ، ولاتُبدِّلوا ولاتغيروا فيستبدل الله بكم غيركم فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تُؤتَى إلا من قِبَلكم [(١)] .

فإن قول عمر رضي الله عنه « لينظر كيف تعملون » يشير إلى أن مامنَّ الله به على الأمة الإسلامية من الفتوح الواسعة ليس من أجل أن يتمتعوا بفيئها وخيراتها ، وإنما من أجل أن يعمروها بعبادة الله تعالى، وفيه إشارة إلى أن بقاء مُلك المسلمين وهيمنتهم مرهون بتنفيذهم شريعة الله تعالى ، فإذا فرطوا وتهاونوا في أمر الدين فإن الله سبحانه قد ينتزعها منهم ولو على يد الكفار عقوبة لهم،فلا يَغْتَرَّنَّ المسلمون بمملكتهم الواسعة ، فإنها ليست بيدهم وإنما هي بيد الله تعالى أدالهم فيها على من سبقهم من الأمم ، والمسلمون أحق بها وأجدر ماداموا على الوفاء بالعهد والالتزام بأمانة الدين ، فإذا خانوا العهد وضيعوا الأمانة فليسوا أهلا لقيادة الأمم وعمران الأرض .

من أمثلة أمانة جنود الإسلام :

ولقد كان المسلمون آنذاك موضع الأمانة وأكفاء المسئولية ولقد كانت عفتهم عن الدنيا مع قدرتهم على أخذ المال من غير وجهه الحلال دليلا على قوة إيمانهم وجدارتهم بما أفاء الله جل وعلا عليهم من فتوح وانتصارات .

وإن من أمثلة أمانتهم ماذكره الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن عاصم بن كُلَيب عن أبيه قال :خرجنا مع مجاشع بن مسعود

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٧٣ .

غازين «تَوَّج» فحاصرناها وقاتلناهم ما شـاء الله فلما افتتحناها وحوينا نَهَبَـها نهبًا كثـيرًا - يعني غنائمهـا - وقتلنا قتلَى عظيمـة،وكان عليَّ قميص قد تخرق فأخذت إبرة وسلكا وجـعلت أخيط قميصي بها، ثم إني نظرت إلى رجل في القـتلى عليه قـميص فنزعـته،فـأتيت به الماء فجعلت أضربه بين حـجرين حتى ذهب مافيه ،فلبستـه،فلما جُمعت الرِّثَة -يعني الغنائم -قام مجاشع خطيبا فحمد الله وأثنى عليه، فقال: ياأيهـا الناس لاتغلُّوا فإن مـن غل جاء بما غل يوم القـيامـة،ردُّوا ولَو المخيط،فلما سمعت ذلك نزعت القميص فألقيته في الأخماس (١).

وهذا مثل شـاهد على أمانة جنـود الفتح الأوائل ، فبـالرغم من حقارة ذلك الثوب الذي أخـذه وحاجته إليه وماقام به مـن تنظيفه فإنه قد رده إلى الغنائـم ، وبهذه الأمانة بلغـوا ذلك المستـوى الرفيع الذي أهَّلهم للنصر على الأعداء والسيادة على العالم .

ولقد كـانت توصيات قادتهم تدور حـول هذا المعنى ، فمن ذلك قول عـثمان بـن أبي العاص بمناسبـة فتح « إصطخـر » إن هذا الأمر لايزال مقبلا ولايزال أهله معافَيْن مما يكرهون مالم يَغُلُّوا فإذا غلُّوا رأَوْا ما يكرهون، ولـم يَسُدَّ الكثير مَسَدَّ القليل اليوم .

وقال أيضًـا : إن الله إذا أراد بقوم خيـرًا كفَّهم ووفَّر أمـانتهم ، فاحفظوها فإن أول ماتفقـدون من دينكم الأمانة ، فإذا فقدتموها جُدِّد لكم في كل يوم فُقْدان شيء من أموركم (٢) .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٧٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٧٥ - ١٧٦ من خبر سيف بن عمر عن شيوخه .

وإذا كان قــادة المسلمين على هذا النهج الســديد فليس غريــبا أن يستقيم جندهم وأن يعلو أمرهم .

*   *   *

١٣ – مواقف لبعض قادة المسلمين –

تبين لنا من الأخبار الماضية أمثلة عالية تظهر تفوق قادة المسلمين الأوائل وذلك فيما يتعلق بالرأي السديد والقوة والشجاعة ، مما يدل على أن الولاة كانوا يبذلون جهدا في اختيارهم للمهمات الحربية .

ونجد من أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن الحكم ابن أبي العاص وكان قائدًا في إحدى معارك فارس قال: قصد إليَّ «شهرك» – يعني قائد الفرس – قال : فصعد إليَّ في الجنود فهبطوا من عقبة عليهم الحديد ، فخشيت أن تَعْشُوَ أبصار الناس فأمرت مناديا فنادى : أنَّ من كان عليه عمامة فليلفَّها على عينيه ، ومن لم يكن عليه عمامة فليغمض بصره (١) .

وهذا نوع من السداد في الرأي والحزم في العمل ، فإن انبهار الجنود بمنظر عدوهم المروِّع قد يكسر بعض ما في نفوسهم من الإقدام، وقد لفت انتباه القائد لمنظرهم وهم في دروع الحديد والسلاح كونهم نازلين من منحدر فهم مكشوفون بأجمعهم لجيش المسلمين بخلاف ما إذا كانوا وإياهم في أرض مستوية فإنما يرون مقدَّميهم فقط.

وقد يقول قائل : وهل يضمن القائد من جيشه أن يلتزموا بهذا الأمر فيغطوا أعينهم ؟

والجواب على ذلك أن طاعة أوامر القائد واجبة شرعًا عند المسلمين مادامت في حدود طاعة الله تعالى ، ولذلك فإن القائد يضمن تنفيذ أوامره بدون تكليف رقباء من الجنود يحافظون على

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٧٧ .

الالتزام ، وهذه ميزة كبرى يختص بها المسلمون الملتزمون بأوامر دينهم.

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام الطبري أيضًا بإسناده أن عبيدالله ابن معمر وكان قائدًا في فتوح فارس خشي من أحد قادة الفرس الذين صالحوهم وهو « آذربيان » أن يغدر بالمسلمين فقال له : إني أحب أن تتّخذ لأصحابي طعاما ، وتذبح لهم بقرة وتجعل عظامها في الجفنة التي تليني فإني أحب أن أتمشش العظام ، ففعل ، فجعل يأخذ العظم الذي لايكسر إلا بالفئوس فيكسره بيده فَيَتَمخَّخه [1] - وكان من أشد الناس - فقام الملك فأخذ برجله ، وقال : هذا مقام العائذ فأعطاه عهدا [2] .

وهكذا كفى عبيد الله بن معمر جيشه حربًا قد تضر بالمسلمين ، باستخدامه ماوهب الله تعالى من قوة بدنية ، فقد أرعب ذلك الأمير الفارسي بما رآه من قوته ، وتصور أن الذي كسر العظام الصلبة بيده قادر على تحطيم جماجمهم بسلاحه ، كما أن في هذا التصرف الذي قام به عبيد الله إشعارًا لهم بأنه مصمم على تحطيمهم لو نقضوا العهد كما حطم تلك العظام .

ومن الأمثلة الرائعة في الجمع بين سداد الرأي والشجاعة ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن الوازع بن خُلَيدة قال: لما بلغ عمرَ غلبةُ الأحنف على المروَيْن وبلخ [3] قال : وهو

(١) أي يخرج مخه .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٧٧ .

(٣) قوله المرْوَين يعني مرو الروذ ومرو الشاهجان .

الأحنف وهو سيد أهل المشرق المسمًّى بغير اسمه (١) وكتب عمر إلى الأحنف : أما بعـد فلا تجـوزنَّ النهر ، واقتـصر على مـادونه ، وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خـراسان ،فداوموا على الذي دخلتم به خراسان يدُمْ لكم النصر وإياكم أن تغيِّروا فتُفَضُّوا .

ثم ذكر استنجاد ملك الفرس بمـلك الترك خاقان وأن ملك الترك أنجده وخرج بجـيشه حتى عبر نهـر بلخ إلى أن قال : وكان الأحنف حين بلغه عبور خاقان والصُّغد نهر بلخ غازيًا له خرج في عسكره ليلا يتسمع هل يسمع برأي ينتفع به ، فمـر برجلين يُنَقِّيان علفًا ، إما تبنا وإما شعيـرا، وأحدهما يقول لصاحبـه : لو أن الأمير أسندنا إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقا ، وكان الجبل في ظهورنا من أن نؤتى من خلفنا وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا الله، فرجع واجتـزأ بها، وكان في ليلة مظلمة فلمـا أصبح جمع الناس ثم قال : إنكم قليل وإن عدوكم كـثير فلا يَهُولَنّكم ، فـكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، ارتحلوا من مكانكم هذا فـأسنـدوا إلى الجبل فاجعلوه في ظهـوركم واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم وقاتلوهـم من وجه واحد ، ففـعلوا وقد أعدوا ما يصلحهم ، وهو في عشرة آلاف من أهل البصرة ، وأهلُ الكوفة نحوٌ منهم .

وأقـبلت الترك ومن أجلبت حـتى نزلوا بهم ، فكانوا يغـادونهم

---

(١) الأحنف هو ابن قيس التميمي وكان من سادة العرب وقد أُعجب أمير المؤمنين برأيه ومنطقه ثم أعجب بشـجاعته ، وقد سـمِّي الأحنف لحنف في رجله ولذلك قال عنه عمر« المسمى بغير اسمه » لأن الحنف الميل .

ويراوحونهم ، ويتنحَّون عنهم بالليل ما شاء الله ، وطلب الأحنف علمْ مكانهم بالليل ، فخرج ليلةً بعدما علم علمَهم طليعةً لأصحابه حتى كان قريبًا من عسكر خاقان فوقف ، فلما كان في وجه الصبح خرج فارس من الترك بطَوْقه وضرب بطبله ، ثم وقف من العسكر موقفا يقفه مثله ، فحمل عليه الأحنف فاختلفا طعنتين فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز ويقول:

إن على كل رئيس حقَّا أن يخضب الصَّعْدة أو تندقَّا
إن لنا شيخا بها مُلَقىً سيف أبي حفص الذي تبَقَّى

ثم وقف موقف التركي وأخذ طوقه ، وخرج آخر من الترك ففعل فعل صاحبه الأول ، ثم وقف دونه وحمل عليه الأحنف ، فاختلفا طعنتين فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز :

إن الرئيس يَرْتَبي ويطلعُ ويمنع الخلاَّء إمَّا أربعُوا

ثم وقف موقف التركي الثاني وأخذ طوقه ، ثم خرج ثالث من الترك ففعل فعل الرجلين ووقف دون الثاني منهما ، فحمل عليه الأحنف فاختلفا طعنتين ، فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز :

جَرْيَ الشَّموس ناجزاً بناجز محتفلا في جَرْيه مشارز

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره ، ولم يعلم بذلك أحد منهم حتى دخله واستعدً ، وكان من شيمة الترك أنهم لايخرجون حتى يخرج ثلاثة، فخرجت الترك لَيْلَتئذ بعد الثالث ، فأتوا على فرسانهم مُقَتَّلين ، فتشاءم خاقان وتطير فقال : قد طال مقامنا ، وقد أصيب

هؤلاء القوم بمكان لم يُصَبْ بمثله قط ، مالنا في قتال هؤلاء القوم من خير فانصرِفوا بنا، فكان وجوههم راجعين [1] ، وارتفع النهار للمسلمين ولايرون شيئًا وأتاهم الخبر بانصراف خاقان إلى بلخ [2] .

وهكذا تبين لنا أن من النتائج الطيبة لحسن اختيار القادة أن المسلمين قد تجنبوا كثيراً من المواجهات مع الأعداء ، وكفاهم قادتهم ذلك إما بالرأي السديد في إدارة المعركة أو في اختيار مكانها الملائم وإما بمواقف الشجاعة التي كسروا بها قلوب الأعداء ووفروا طاقة جنود المسلمين للمواجهات التي لابد منها .

ومن هؤلاء القادة العظماء هذا القائد الفذ الأحنف بن قيس الذي جمع بين سداد الرأي والشجاعة النادرة ، وهو مع ذلك لايَعْتَدُّ برأيه وإنما يلتمس الآراء حتى من عامة الجند الذين قد لايوصلون آراءهم لقادتهم ، فقد نزل هذا القائد إلى ميدانهم فصار يتسمَّع في الليل وهو يدور في مضارب الجيش علَّه يسمع رأيًا سديداً يصير إليه في قتال الأعداء ، وحصل له ما أراد كما هو واضح في الخبر .

ثم هو بعد ذلك يُعمل فكره ويَسْهر الليل ليعرف واقع الأعداء وأحوالهم الدقيقة فلعل معرفته بذلك تدلُّه على مواطن ضعفهم ، وحيث إنه دقيق التفكير عظيم الهم لأمر جيشه وأمته فقد فضَّل أن يقوم هو بمهمة استكشاف أمر العدو ليلا ليعرف سر انسحابهم بعيداً عن أرض المعركة .

---

(١) أي وجهوا وجوههم نحو الخلف راجعين .

(٢) تاريخ الطبري ١٦٨/٤ - ١٧٠ .

وقام بذلك وحده وهي مهمة شاقة خطيرة لايتصدى لها إلا عظماء الرجالُ ، واكتشف سر ذلك بخروج طليعتهم من الفرسان الثلاثة وقيامهم بدق الطبول على انفراد وتباعد ، الأمر الذي لايتم لهم لو بقوا في ميدان المعركة ، وقام بالقضاء عليهم الواحد تلو الآخر بشجاعة نادرة وجسارة عظيمة ، وقد ساعده على القيام بهذه المهمة بُعْدُ هؤلاء الفرسان عن قومهم بحيث لايرونهم ولايسمعون صوتهم ، وانفراد كل واحد منهم عن الآخر .

وبهذا نعلم أن قادة المسلمين كانوا أقرب إلى الأهوال والتضحيات من جنودهم ، وقد يكلِّفون بمثل هذه المهمة واحداً أو أكثر من أصحاب الكفاءات الذين يثقون بإدراكهم وشجاعتهم ، ولكن قد يكون في ذهن القائد تخطيط معين مبني على إدراك أمور العدو ، ويرى أن غيره لايشفيه في هذه المهمة فيذهب لتحقيقها بنفسه كما هو الحال في هذه الواقعة .

ولاشك أن الإقدام على السير إلى أرض العدو نوع فريد من الشجاعة مبني على قدر عظيم من الإيمان بالله تعالى .

ولقد تحقق لهذا القائد البطل ما أراد من هذه المغامرة الجريئة حيث وُفِّق إلى قتل الثلاثة الذين خرجوا طليعةً للعدو ثم كان قتلهم سبباً في تشاؤم الأعداء ورحيلهم عن أرض المعركة .

وهكذا جنَّب الأحنف جيشه معركة شرسة يخوضونها مع عدو يتصف بالغلظة والشجاعة ، وتحقق فيه قول عمر رضي الله عنه الذي تقدم في أول هذا الخبر حيث اعتبره سيد أهل المشرق ، وإن من أبرز

علامات السيادة أن يجعل القائد من نفسه حاميا لجنده يقيهم بنفسه المهالك ويوفر عليهم المتاعب .

ولاننسى أن من أسباب خذلان الكفار ما وقر في قلوبهم من عقيدة التطيُّر ، فقد تشاءموا مما حدث لفرسانهم الثلاثة ، فكان ذلك من أهم العوامل التي هزمتهم وقرروا بها الانسحاب من أرض المعركة، وقد كانت هذه العقيدة الجاهلية عاملا مُضعفًا للأعداء ومقويًّا للمسلمين في كثير من حروبهم كما مر علينا في القادسية .

وإن من مزايا عقيدة الإسلام الناصعة أن الله تعالى طهر قلوب المسلمين من عقيدة التشاؤم فأصبحوا يمضون في جهادهم مُقْدمين لايلوون على شيء من الأمور التي تعوق الأعداء وتوهن قوتهم .

خبر سارية بن زنيم وموقف لعمر :

هذا وقد حدث في أحيان نادرة أن فات التوفيق إلى الرأي السديد بعض القادة فيقيِّض الله تعالى للمسلمين مايخرجهم من المآزق التي وقعوا فيها .

ومن الأمثلة على ذلك ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف ابن عمر عن شيوخه قالوا : وقصد سارية بن زنيم « فَسَا » و «دارابَجْرد» - يعني حينما أمر أمير البصرة قادته بالتفرق في بلاد الفرس - حتى انتهى إلى عسكرهم ، فنزل عليهم وحاصرهم ماشاء الله ، ثم إنهم استمدوا فتجمَّعوا وتجمعت إليهم أكراد فارس ، فدهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير ، فرأى عمر رضي الله عنه في تلك الليلة فيما يرى النائم معركتهم وعددهم في ساعة من النهار ، فنادى

من الغد : الصلاة جامعة ، حتى إذا كانت الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم ، وكان أُريَهم والمسلمون بصحراء إن أقاموا فيها أحيط بهم ، وإن أرَزوا إلى جبل من خلفهم لم يُؤتَوا إلا من وجه واحد ، ثم قام فقال : يا أيها الناس إني رأيت هذين الجمعين - وأخبر بحالهما - ثم قال : ياسارية الجبل، الجبل، ثم أقبل عليهم ، وقال : إن لله جنوداً ولعل بعضها أن يبلِّغهم ، ولما كان تلك الساعة من ذلك اليوم أجمع سارية والمسلمون على الإسناد إلى الجبل ففعلوا وقاتلوا القوم من وجه واحد فهزمهم الله لهم ، وكتبوا بذلك إلى عمر واستيلائهم على البلد ودعاء أهله وتسكينهم (١) .

وجاء في رواية أخرى ذكرها الإمام الطبري أن المسلمين في المدينة سألوا رسول ذلك الجيش عن الفتح وهل سمعوا شيئًا يوم الوقعة ؟ فقال: نعم سمعنا : ياسارية الجبل ، وقد كدنا نهلك فلجأنا إليه ففتح الله علينا(٢).

وذكر الحافظ ابن كثير رواية مختصرة لهذه الوقعة وقال : هذا إسناد جيد حسن (٣) ، وذكرها العلامة على المتقي الهندي من رواية ابن الأعرابي والدَّيْرَعاقولي وأبي عبد الرحمن السلمي وأبي نعيم والبيهقي واللالكائي وابن عساكر، ثم ذكر أن الحافظ ابن حجر حسَّن إسنادها (٤) .

(١) تاريخ الطبري ١٧٨/٤ .

(٢) تاريخ الطبري ١٧٩/٤ .

(٣) البداية والنهاية ١٣١/٧ .

(٤) منتخب كنز العمال ٣٨٦/٤ .

هذا وقد تبين لنا من هذه الروايات أن سارية بن زنيم لم يوفق في اختيار المكان المناسب لتلك المعركة فكشفهم الله تعالى لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في المنام وأدرك خطورة مكانهم والمكان المناسب لحمايتهم، فجمع المسلمين من الغد وذكر لهم ما رأى ، ثم نادى سارية أمامهم وأمره بلزوم الجبل ، وإنما جمع الناس وأعلن اجتماعهم ليحضره من يحضر مجالس الذكر من الملائكة عليهم السلام ومسلمي الجن، فأراد بذلك الخطاب أن يسمعه جنود الله تعالى فلعل بعضهم يُبَلِّغ رسالته كما صرح بذلك .

ونخلص من هذا إلى أن لله تعالى جنودًا لانراهم ينصر بهم المسلمين ويبلغون رسائلهم ، فقد نصر الله تعالى المؤمنين بالملائكة ، عليهم السلام في أكثر من موطن ، ويبلغ رسائلهم بواسطة إخوانهم مسلمي الجن كما مر علينا ذلك .

ولما كان عهد المسلمين الأوائل ليس عهد الاتصالات السريعة سخر الله تعالى من عباده من نقل رسالة عمر إلى سارية فنفعه الله بها، وسمعوا يوم المعركة صوتًا ينادي : ياسارية الجبل فلجئوا إليه ونصرهم الله تعالى .

وإذا كان ذلك من امتنان الله تعالى على المسلمين عامة فهو كرامة منه جل وعلا لأمير المؤمنين عمر الذي وهب نفسه لله سبحانه ولعباده المؤمنين .

* * *

١٤ - فتح سجستان -

ذكر الإمام محمد بن جرير الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أنه قالوا : وقصد عاصم بن عمرو لسجستان ولحقه عبد الله ابن عمير فاستقبلوهم فالتقوا هم وأهل سجستان في أدنى أرضهم، فهزموهم ثم اتبعوهم حتى حصروهم بزَرَنْج ، ومخروا أرض سجستان ماشاؤوا، ثم إنهم طلبوا الصلح على زرنج وما احتازوا من الأرضين، فأعطُوه ، وكانوا قد اشترطوا في صلحهم أن فَدَافدَها حمًى ، فكان المسلمون إذا خرجوا تناذروا خشية أن يصيبوا منها شيئًا (١) .

فهذا مثل من أمثلة حفظ المسلمين للعهود ، حيث يُنذر بعضهم بعضا إذا خرجوا حتى لاتَرعَى دوابهم من ذلك الحمَى فَيُخلُّوا بالعهد، ولقد كانت لهم الهيمنة وبيدهم القوة لو أرادوا أن يُخفروا ، ولكنهم يخشون الله تعالى حيث يعلمون أن نقض العهد أو الإخلال بشروطه أمر محرم.

وهكذا حمى المسلمينَ دينُهم من المخالفات التي يترتب عليها سوء المصير في الآخرة ، والعاقبة السيئة في الدنيا ، حيث قد يسلَّط أعداؤهم عليهم فتكون الدولة لهم .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٨٠ .

١٥ - معركة بيروز من الأهواز -

كان أمير المؤمنين عمر قد عهد إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما حينما فرَّق الجند على الأمصار البعيدة أن يسير إلى نهاية حدود قطاع البصرة كي لايُؤتى المسلمون من خلفهم ، ولإنقاذ من يحاط به من الجيوش أو من ينقطع عن جيشه .

ولقد وقع ماحذِر منه عمر حيث اجتمع في « بيروز » جمع عظيم من الأكراد وغيرهم ليكيدوا المسلمين ويصيبوا منهم عورة ،وقد أبطأ أبو موسى حتى تجمعوا ، فخرج إليهم حتى نزل عليهم في رمضان ، فالتقوا بين نهر تيري ومناذر .

وهذا الحذر من عمر إلهام من الله تعالى له ، وهو مع أمثلة سبق بعضها مصداق قول النبي ﷺ « لقد كان فيمن قبلكم ناس محدَّثون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » أخرجه الشيخان[١] .

فقد أدرك عمر مما يتوقع من الفرس وهو بعيد عنهم مالم يدركه القريبون من قادة العراق ، وكم لهذا الإمام الملهم من مواقف عظيمة كانت إنقاذًا من الله تعالى للمؤمنين آنذاك من مهالك ، ومآزق خطيرة .

ولما التقى الصفان قام المهاجر بن زياد وقد تحنَّط واستقتل فقال لأبي موسى : أَقْسِمْ على كل صائم لَمَا رجع وأفطر ، فرجع أخوه

(١) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، باب ٦ ، صحيح مسلم، فضائل الصحابة/ ٢٣ .

لإبرار القسم، وإنما أراد بذلك توجيه أخيه عنه لئلا يمنعه من الاستقتال، وتقدم فقاتل حتى قُتل ، ووهَّن الله المشركين حتى تحصنوا في قلة وذلة(١) .

هذا وإن ما قام به المهاجر بن زياد من الاستعداد للشهادة مثل من أمثلة رائعة لجماعة من أقوياء الإيمان جعلوا من أنفسهم مِشعلاً لحماس المسلمين ودَفْعهم لبذل طاقتهم الكاملة في المعارك ، ولقد كانوا مقدمة للنصر الذي أحرزه المسلمون آنذاك .

وهو مثل يدلنا على ما يفعله القلب المشحون بالإيمان من دفع النفس إلى ركوب المخاطر وخوض الأهوال من أجل تحقيق العلو والسيادة لكلمة الله تعالى في الأرض . . هذا المبدأ السامي الذي كان ماثلا على الدوام في أعين أولئك المجاهدين ، والذي استهانوا من أجله بالدنيا ومافيها من متاع زائل .

* * *

(١) تاريخ الطبري ١٨٣/٤ من طريق سيف بن عمر عن شيوخه .

١٦ - شكوى ضد أبي موسى الأشعري -

وهي الشكوى التي تقدم بها ضبّة بن محصن العنزي ضد أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حين كان واليًا على البصرة ، وقد ذكرها الإمام الطبري مطولة وخلاصتها أن هذا العَنَزي طلب من أبي موسى أن يرسله في الوفد إلى أمير المؤمنين فأبى وقال : قد كتبنا من هو أحق منك ، وكتب أبو موسى بخَبَره إلى عمر ، فقدم على أمير المؤمنين عمر فاشتكى أبا موسى الأشعري في أنه أخذ ستين من أبناء أمراء فارس الذين تم سبيهم، وأن له جارية تُدعى عقيلة تُغدَّى جفنة وتُعشَّى جفنة ، وأن له قفيزين ، وأنه فوَّض أمر الإمارة إلى زياد بن أبيه ، وأنه أجاز الحطيئة بألف.

وجاء في الرواية أن عمر بعث إلى أبي موسى فقدم عليه وجمع بينه وبين ضبّة العنزي ، وساءل أبا موسى عن تلك الموضوعات فقال أبو موسى عن أبناء أمراء فارس : دُللت عليهم ، وكان لهم فداء ففديتهم وأخذته فقسمته بين المسلمين ، فقال ضبة : والله ماكذَب ولاكذبْت، وقال عن القفيزين : قفيز لأهلي أقوتهم وقفيز للمسلمين في أيديهم يأخذون به أرزاقهم ، فقال ضبة : والله ماكذب ولاكذبت، فلما ذكر عقيلة سكت أبو موسى فلم يعتذر ، وعلم أن ضبة قد صدقه .

وقال عن زياد : وجدت له نُبْلاً ورأيا فأسندت إليه عملي، وقال عن الحطيئة : سددت فمه بمالي أن يشتمني .

فقال عمر : قد فعلتَ مافعلت فارجع إلى عملك ، وقال له: إذا قدمْتَ فأرسل إليَّ زيادًا وعقيلة .

وجاء في الرواية أنه اختبر زياداً فوجده فقيهًا فرده وأمر أمراء البصرة أن يشربوا برأيه ، وحبس عقيلة بالمدينة ، وقال : ألا إن ضبَّة العنزي غضب على أبي موسى في الحق أن أصابه ، وفارقه مراغما أن فاته أمر من أمور الدنيا ، فصدَق عليه وكذب فأفسد كذبه صدقه فإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى النار(١) .

هذا وإن ما قام به هذا الرجل يعتبر مثلا للتعجل والتهور في شكوى المسئولين في أمور عرف المدَّعون ظاهرها وخفي عليهم باطنها، فأوَّلوها على حسب أهوائهم ، وقد كان الطريق القويم أن يُبدي هذا الرجل اعتراضه على أميره ليعرف منه جليَّة الأمر ، ولكن الهوى أحيانًا يقود صاحبه إلى سوء التفكير ، والخطأ في التدبير .

وقد استمع أمير المؤمنين لشكواه مع علمه بخبره ،وهو تجاوب من عمر رضي الله عنه حمله على استقدام الوالي واستجوابه في المسائل التي رُفعت ضده ، وهذا هو المنهج السليم في الحفاظ على حقوق الرعية، وإخماد الفتن في المراحل الأولى من اشتعالها .

هذا وإن في سكوت أبي موسى رضي الله عنه في موضوع الجارية مَثَلٌ من التزام المؤمنين الصادقين بالصدق ، وعدم تزوير الحقائق ، بينما نجد من هم أقل درجة في الإيمان يلتمسون لأنفسهم المعاذير للخروج من الموقف ولو بتغيير الحقائق .

والفرق بين هؤلاء وهؤلاء أن المؤمنين الصادقين يراقبون الله عز وجل في سلوكهم ، بينما أولئك يراقبون من يخاطبهم من المسئولين،

(١) تاريخ الطبري ١٨٤/٤ من خبر سيف بن عمر عن شيوخه .

والله تعالى لاتخفى عليه مكنونات الضمائر، بينما يستطيع الذكي اللَّبِق أن يزوِّر الحقائق ، ويتكلم بلسانه عن غيرما يعتقد بقلبه ، وأقوياء الإيمان يلاحظون التخلص من وقوفهم بين يدي الله تعالى يوم القيامة ، والذين هم دون ذلك يراقبون التخلص من المآزق التي وقعوا فيها في الدنيا .

فالمسئولون دائمًا في راحة من أقوياء الإيمان لأن صفحتهم بيضاء، وألسنتهم مرآة لقلوبهم ، بينما هم في عَنَت وهمٍّ من ضعفاء الإيمان حيث لايثقون بالمعلومات التي يحصلون عليها منهم ، ويضطرون لبذل جهد كبير في التحري عن قضيتهم .

وأخيراً يُوَجِّه عمر رضي الله عنه المسلمين إلى المسلك الأمثل في انتقاد الناس ورفع القضايا ضد المسئولين ، وذلك بالتجرد من الهوى الذي يحمل صاحبه على الكذب، إما باختلاق قضايا لا أصل لها، أو بتضخيم القضايا ، أو بتفسير الأحداث على غير وجهها ، فإذا حدث هذا فإن صاحب القضية لايُسمع له وإن صدق في بعض أقواله لأن كذبه يفسد عليه صدقه .

* * *

مواقف وعبر
فى
فتـــوح مصـــر

لما تَمَّ فتح الشـام أشار عمرو بن الـعاص على أمير المؤمنين عـمر رضي الله عنهما بفـتح مصر ، وذلك حينما قدم عمـر إلى الشام كما ذكر أبو القـاسم عبد الرحمن بن عـبد الحكم قال : لما قدم عـمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابية قام إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه فخلا به وقال : يا أمير المؤمين ائذن لي أن أسير إلى مصر ، وحرَّضَه عليها وقال : إنك إن فتحتـها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم ، وهي أكثر الأرض أموالا و أعـجزها عن القتال والحرب، فتـخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكـره ذلك فلم يزل عـمرو يعظم أمـرها عنده ويخبره بحالها ويـهوِّن عليه فتحها حتى ركن إليه عـمر وعقد له على أربعة آلاف رجل (١) .

وإنما لم يقبل عمر في أول الأمر إشفاقًا منه على المسلمين، وكان دائمًـا حريصًـا على أن لاتُسفك دمـاء المسلمين إلا في سـبيل إعـزاز الإسلام، وبناءً على خـطط مدروسة مـحكمة تكون نتـائجها التـقدم بدولة الإسـلام خطوات بعيـدة مع بذل أقل التضـحيات فكان لذلك يخـتار القـادة الحكماء وينهى قـادته عن أن يَقـدِّموا على جـيوشـهم الشجعان المستميتين الذين يندفعون بدافع الفداء والشجاعة المطلقة التي لاتتقـيد بالرأي السديـد والتفكير المحكم حـتى لايورِّطوا المسلمين في هلكة، وذلك أن الشـجاع الفـدائي قد ينجـو من المغامـرة لأن الناس

---

(١) النجوم الزاهرة ١/٥، فتوح مصر ٤٧ .

لايقفـون أمام المستمـيت ولكن قد لايكون مَنْ وراءه بمثل مسـتواه من الاندفاع والقوة فيأكلهم الأعداء بسبب تهورٍ من تقدمهم .

وإن المحافظة على سلامة الجنود مع الحـصول على أكبر المكاسب الحربية هو الهدف الذي يسعى له الـقادة المسلمون ، بدافع من خوفهم من الله عز وجل ورجائه قبل كل شيء ، ولأنهم مـسئولون ثانيًا أمام أمتهم التي ترقب هذه الـنتائج وتعيش على الأمل السعيـد في حصول الانتصارات الكبـيرة مع بذل أقل التضحيات، وإذا كـان الدافع الأخير يشترك فـيه مع المسلمين بعض الأمم التي يترتب بقاء القادة فـيها على السمـعة الحسنة لدى أفرادها ، فـإن الدافع الأول وهو الخوف من الله عز وجل ورجـاؤه ينفرد فيه المسـلمون ، وهو الدافع الأهم الذي ظل ملازمًا للمسلمين في فتوحهم الأولى .

وإذا كان الكفـار يدفعون بجنودهم للتوسع في الأرض رغـبة في تأمين الضروريات للمعيشة والكماليات للرفاهية وإشباعًا لحب السيطرة والعلو ، فـإن المسلمين يدفعـون بجنودهم رغـبة في إنقـاذ الشعـوب المغلوبة على أمرها كي تصل إليهـا دعوة الإسلام ، ولتكون كلمة الله هي العليا في الأرض .

وإذا كـان جنود الكفار يندفـعون لـلقتـال رغبـة في تأمين الحيـاة الدنيوية لهم على الوضع الذي يحبونه فإن جنود الإسلام يندفعون إلى الجهاد رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر الأخروي .

ولذلك فـإن ولاة المسلمين إذا بـذلوا جـهـدهم في وضع الخطط المحكمة وتأمين ما يستطيعون من سبل السلامة فإنهم لايكونون ملومين من الجنود وغـيرهم في حـصول مـايُكره من المصـائب لأن الجنود إنما

اندفعوا رغبة فيـما عند الله تعالى ، وهم يعلمون أن أقرب الطرق إلى ذلك أن يموتوا شهداء .

وبهذا التـفكير من الموازنة بين حب الجـهاد في سبـيل الله تعالى والحفاظ على أرواح المسلمين كان أمير المؤمنين عمر يفكر حينما عرض عليه عمرو بن العاص السير لفتح مصر .

* * *

١ – مسير عمرو إلى مصر –

جاء في رواية ابن عبد الحكم السابقة : وقال له عمر : سر وأنا مستخير الله في مسيرك وسيأتيك كتابي سريعًا إن شاء الله ، فإن أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره .

فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين ، فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح ، فتخوف عمرو بن العاص إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر ، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش ، فسأل عنها فقيل : إنها من مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ، فقال عمرو لمن معه : ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن أمير المؤمنين عهد إليَّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا وامضوا على بركة الله تعالى[1] .

هذا وقد ذكر ابن تَغْرِي بَرْدِي تفاصيل سير عمرو بن العاص بجيشه، فذكر أنه سار إلى مصر حتى وصل إلى « الفَرَما» وهي قرية قديمة بين العريش والفسطاط، فلقيَ بها جموعًا من الروم وقاتلهم

(١) فتوح مصر / ٤٧ .

قتالاً شديـداً نحواً من شهر حتى فتح الله عليـه ، وقد جاء في رواية ابن عبـد الحكم هذه أن القبط قال بعـضهم لبعض : ألا تعجـبون من هؤلاء القوم يقـدمون على جمـوع الروم وإنما هم في قلة من الناس ! فـأجابه رجل منهم فـقال: إن هؤلاء القـوم لايتوجـهون إلى أحـد إلا ظهروا عليه حتى يَقْتُلوا خَيْرهم .

يعني أنهم يكونون سببًـا في قتل خيرهم وهو أميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه كما جاء في رواية أخـرى عند ابن عبد الحكم أن عَمْراً طلب ذلك الرجل ، فـأخـبره أصـحـابه أنه لايدري مـايقول، حـتى خلَّصوه، قال : فلما بلغ عمـراً قتل عمر بن الخطاب أرسل في طلب ذلك القبطي فوجده قد هلك فعجب عمرو من قوله (١) .

وهذه شـهادة للمـسلمين من أحـد أعدائهم بالشـجاعـة والإرادة الصارمة، والتوفيق إلى النتائج الحاسمه ، والحق ماشهدت به الأعداء، وإنما بلغ المسلمـون مابلغوا من ذلك لصلتـهم القوية الدائمـة بالله عز وجل ، فهم يشـعرون دائمًا بأنهم مـوصولون بالسـماء وأن جنود الله تعالى من الملائكة وغيرهم تشـاركهم وتؤيدهم ، وإن شعور إيّ إنسان يقع هو وقومه في محنة بأن دولة قوية تقف معـهم يعطيهم قدرًا كبيراً من الثقة والأمان والأحلام المستقـبلية فكيف إذا كان الإنسان يشعر بأن الله جل وعلا معه بنصره وتأييده ؟ !

وأخرج ابن عـبد الحكم من رواية أبي حـبيب قـال : وكان رجل ممن كان خـرج مع عمرو بن العـاص حين خرج من الشام إلى مـصر

---

(١) فتوح مصر / ٥٠ ، النجوم الزاهرة ١/ ٧ .

أُصيب جمله ، فأتى عمراً يستَحْمله فقال عمرو : تحمَّل مع أصحابك حتى نبلغ العامر ، فلما بلغوا العريش جاء فأمر له بجملين ثم قال له : لن تزالوا بخـيـر مارَحِـمَـتْكم أئمتـكم ، فإذا لم يرحـمـوكم هلكوا وهلكتم[1] .

وهكذا كان عمرو بن العاص رحيمًا بالمسلمين محافظًا عليهم كما أراد أمير المؤمنين عمر ، وإن هذه المعاملة الكريمة لتحبب قلوب الجنود إلى قائدهم ، وترفع مع معنويتهم ، فلايكون هناك لديهم عوائق دون بذل كل ما يستطيعون من طاقة في الجهاد .

* * *

(١) فتوح مصر / ٤٨ .

٢ - معركة أمّ دنين -

ذكر ابن عبد الحكم في روايته أن عمراً مضى بجيشه حتى فتح «بلبيس» بعد قتال دام نحواً من شهر ، ثم مضى حتى أتى« أم دنين» وتسمّى المقس وهي واقعة على النيل فقاتل المسلمون حولها قتالاً شديداً وأرسل عمرو إلى أمير المؤمنين يستمده فأمده أمير المؤمنين بأربعة آلاف فلما طال الحصار طلب عمرو المدد مرة أخرى فأمده أمير المؤمنين بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل يقوم مقام الألف، وهم الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مُخَلَّد ، وقيل الرابع خارجة بن حذافة، وقال عمر في كتابه له : اعلم أن معك اثني عشر ألفًا ، ولن تُغلَب اثنا عشر ألفا من قلّة .

وقد خرج الروم مع الأقباط لمواجهة المسلمين ، وجرت بينهم معركة حامية استعمل فيها عمرو بن العاص دهاءه الحربي كما صنع خالد بن الوليد في حروب العراق، وذلك أنه جعل جيشه ثلاثة أقسام، حيث أقام كمينًا للأعداء في الجبل الأحمر ، وأقام كمينًا آخر على النيل قريبًا من أم دنين ، وقابل أعداءه ببقية الجيش ، ولما نشب القتال بين الفريقين خرج الكمين الذي في الجبل الأحمر وانقض على الروم فاختل نظامهم وانهزموا إلى أم دنين فقابلهم الكمين الذي بقربها فأصبحوا بين جيوش المسلمين الثلاثة وانهزموا وتفرق جيشهم ولجأ بعضهم إلى حصن باب اليون الحصين [١] .

---

(١) النجوم الزاهرة ١/٨، فتوح مصر ٤٩ .

وهكذا كسب المسلمون هذه المعركة ووقاهم الله شر أعدائهم بفضله تعالى وذلك بتوفيق قائدهم المحنَّك إلى هذه الخطة المحكمة التي بدَّد بها طاقة الأعداء وألجأهم إلى الهزيمة والفرار .

* * *

٣ – معركة باب اليون وحصار حصنها –

سار عـمرو بجيشه حتى وصل حصن باب اليون ، وقـد أخرج الإمام الطبـري خبر ذلك من طريق سـيف بن عمر عن شيـوخه: أن عمرو بن العاص خرج إلى مصـر بعدما رجع عمر [يعني من الشام] إلى المدينة حتى انتهى إلى باب اليون ، واتبعه الزبير فاجتمعا، فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر (١) ومعه الأسقف في أهل الـنيات، بعثه المقـوقس لمنع بلادهم ، فلما نزل بهم عـمرو قـاتلوه ، فأرسل إليـهم يقول: لاتُعجلونا لنعذر إلكيم وترون رأيكم بعـد ، فكَفُّوا أصحابهم، وأرسل إليهم عمرو : إني بارز فليبرز إلي أبو مريم وأبو مريام – وهما زعيما الأقباط – فأجابوه إلى ذلك ، وآمَنَ بعضهم بعضا ، فقال لهما عمـرو : أنتمـا راهبا هذه البلـدة فاسمـعا ، إن الله عـز وجل بعث محمـداً ﷺ بالحق وأمره به ، وأمرنا به محـمد ﷺ ، وأدّى إلينا كل الذي أُمر به، ثم مضـى صلوات الله عليه ورحمتـه، وقد قضى الذي عليه وتـركَنا على الواضحـة، وكان مما أمرنا به الإعـذار إلى الناس ، فنحن ندعوكم إلى الإسـلام ، فمن أجابنا إليه فَمـثْلُنا، ومن لم يجبنا عرضنـا عليه الجزية وبـذلنا له المَنعة ، وقـد أعلَمَنا أننا مفـتتـحوكم، وأوصانا بكم حفظًا لرحمنا فيكم ، وإن لكم إن اجـبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة ، ومما عـهد إلينا أمـيرنا : اسـتوصوا بالقـبطيين خيـراً، فإن رسول اللـه ﷺ أوصانا بالقـبطيين خيـرا ، لأنهم لهم رحمًـا وذمة، فقالوا :قرابـة بعيدة لايصل مثلها إلا الأنبيـاء-يعني لايعلم خبرها إلا الأنبياء – مـعروفة شريفة كـانت ابنة ملكنا ، وكانت من أهل «مَنْف»

(١) يعني رئيس النصارى .

والْمُلْك فيـهم ، فأُديل عليهم أهـل عين شمس ، فقـتلوهم ، وسُلِبوا ملكهم واغتربـوا ،فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام،مـرحبًا به وأهلا (١) .

يقصدون بذلك هاجـر أم إسماعيل عليه السلام ، فـإما أنَّ عَمْرًا ذكرها لهم ولم تُذكر في الرواية ، وإما أن خـبرها كان معلومًا لديهم جميعًا فلم يكن هناك حاجة لذكرها .

وهكذا رأينا في هذا الخـبر كيف كـان الصحـابة رضي الله عنهم يغتنمـون نقاط اللقـاء مع الأعداء ، مـحاولةً منهم في اجـتذابهم إلى الإسلام ، أو عـلى الأقل ليخـففـوا من اندفاعـهم نحو مـواجهتـهم بالحـرب، فالروم في مـصر كـانوا متـصلبين في عـداء المسلمين وهم أصحاب السلطة العليا في مصر ، أما الأقباط الذين هم أهل مصر فقد كانوا يشـعرون بظلم الروم ولم يكونوا قادرين على التحـرر منهم فإذا انتقلوا من سيطرتهم إلى سيطرة المسلمين ، فإن ذلك من صالحهم وقد شاهدوا عدل المسلمـين في البلاد التي فتحوها قـبل ذلك، فظهر منهم الميل إليهم وتفـضيلهم على الروم، فكانت هذه المبادرة من عـمرو بن العاص لاسـتمالة الأقبـاط ، حيث ذكر لهم أوَّلاً أن الرسـول ﷺ قد أخبـرهم بفتح مصـر للمسلمين ، وهم أهل كتـاب، وقد عرفـوا قبل ذلك نبوة رسول الله ﷺ ، وهذا الخبر يـرسِّخ في نفوسهم أن المعركة لصـالح المسـلمين قـبل أن يخـوضـوها، ولاشـك أن ذلك يوهن في عزائمهم .

---

(١) تاريخ الطبري ١٠٧/٤ .

كما ذكر لهم وصية رسول الله ﷺ بهم ، وذكَّرهم بوشائج القربى القديمة التي تربطهم بهم ، وذلك يبعث على التفاهم بينهم .

وهكذا يسلك القادة العظماء حيث لاينخدعون بقوتهم ونجاحهم في الحروب ، بل يحاولون النفوذ إلى قلوب أعدائهم للحدِّ من الاندفاع نحو مواجهتهم ، ولدعوتهم إلى مافيه خيرهم وسعادتهم، فإما دخلوا في الإسلام ، وإما صالحوهم ، وإما واجهوهم بعد ذلك بضعف لتضاؤل دوافع المواجهة في نفوسهم .

ثم جاء في سياق رواية الطبري المذكورة أن زعيمي النصارى أبا مريم وأبا مريام قالا لعمرو بن العاص : آمنًّا حتى نرجع إليك، فقال عمرو : إن مثْلي لايُخدع ، ولكني أؤجلكما ثلاثا لتنظرا وتناظرا قومكما ، وإلا ناجزناكم ، قالا : زدنا ، فزادهم يومًا ، قالا : زدنا فزادهم يومًا ، فرجعا إلى المقوقس فهمَّ - يعني بالصلح - فأبى أرطبون أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم .

وهكذا أفلح عمرو في إقناع الأقباط بالصلح ، ولكن قائد الروم رفض ذلك ، وأمر بالحرب .

وقد التزم المسلمون بالهدنة في الأيام الخمسة ولكن الروم غدروا فبيَّتوا المسلمين ليلا بهجوم مفاجيء ، وكان المسلمون على استعداد لهم، كما هي حالهم مع أعدائهم في ذلك العهد ، فالتقوا معهم وقُتل « فرقب» قائد الأعداء ومن معه وانهزم بقيتهم [1] .

وهكذا أعطى قادة المسلمين في هذه المعركة- كما أعطوا من قبل-

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٠٧- ١٠٨ .

أمثلة حية لليقظة والترقب والرصد الحربي ، حيث لم يكونوا يُؤْخذون على غِرَّة ، ويعلمون بتحركات أعدائهم بدقة متناهية .

هذا وقد اعتصم الروم والأقباط في حصن باب اليون المنيع، وجرت مفاوضات أخرى حيث أرسل المقوقس إلى عمرو يقول : إنكم قد ولجتم في بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن يغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولانقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفًا لمطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على مانرضى نحن وهم به من شيء .

رسل المقوقس يتأثرون بصلاة المسلمين وأخلاقهم :

فلما أتَتْ عمرًا رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس فقال لأصحابه : أتُرون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم ؟!

وإنما أراد عمرو بذلك أنهم يرون حال المسلمين ، فرد عليهم عمرو مع رسلهم : إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال، إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا ، وإما أن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدنا بالصبر

والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين .

فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال : كيف رأيتموهم ؟ قالوا : رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولانهمة ، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، مايُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم .

فقال عند ذلك المقوقس : والذي يُحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض ، وقَوُوا على الخروج من موضعهم (١) .

وهكذا انكشف لنا جانب من جوانب عبقرية هذا القائد الملهم عمرو بن العاص ، حيث أبقى أولئك الرسل يومين ليروا عظمة المسلمين فيحملوا هذه الرسالة الوصفية لزعيمهم ، وإنما دفعه لهذا التصرف مايدركه من ذلك الرصيد الضخم الذي يملكه المسلمون آنذاك من الرقي الأخلاقي الذي أذهل أفراد الأمم وقادتها .

إن واقع المسلمين في ذلك العصر يعتبر دعاية قوية للإسلام وليس في حياتهم ما يُستَحْيَ منه ويحرص القادة على إخفائه عن أنظار الأعداء ، بل هو صفحة بيضاء من مكارم الأخلاق ، وسجل حافل من مظاهر المروءة .

---

(١) النجوم الزاهرة ١/ ١٠ .

ولذلك عاد أولئك الرسل وقد مُلئوا إعجابًا بجيش المسلمين أفرادًا وقادة ، وسجَّلوا هذا الإعجاب بما وصفوا به ذلك الجيش من الشجاعة النادرة ، التي أوصلتهم إلى حب الموت أكثر من حب الحياة ، والتواضع الجم ، والزهد الرفيع في الدنيا والمساواة بينهم ، حيث لم يجدوا في حياتهم فرقا في المظاهر بين أمير ومأمور ، وشريف ووضيع، وسيد وعبد .

كما أبدوا إعجابهم بانتظام المسلمين جميعًا في الصلاة حيث لايتخلف منهم أحد،وهو مظهر مهم من مظاهر الانضباط عند المسلمين،كما أبدوا إعجابهم بما يقومون به بين يدي الصلاة من الوضوء،ثم في مظهر السكينة والخشوع الذي يعلو وجوه المؤمنين ويحكم جوارحهم وهم يؤدون الصلاة .

ولاشك أن صورة المؤمنين وهم يستعدون للصلاة بالوضوء الذي هو مظهر من مظاهر الطهارة والنظافة التي يتفق العقلاء على أهميتها في حياة الإنسان ، ثم انضباطهم جميعًا وراء إمام واحد، وخشوعهم جميعًا بحيث لا يلتفتون ولايرفعون أبصارهم.. لاشك أن هذه الصورة تأسر أنظار الناس الذين يشاهدونها لأول مرة ، وتخلب ألبابهم،ويدركون من خلال هذه الصورة الأخّاذة أن هؤلاء المصلين وهم في هذا السكون الرهيب والخشوع المهيب ، قد خرجوا عن التفكير في هذه الحياة التي يشترك في جواذبها عموم البشر إلى التفكير فيما وراء الحياة ، فيدفع هؤلاء المتأملين ذلك إلى التساؤل عن الأمر المهم الذي شغل هؤلاء العظماء عن التفكير في أمور الدنيا ، وعندها

يدركـون أن هذا الأمر المهم هو الخـضوع لـعظمة الله عـز وجل ولذة مناجاته والشوق إلى لقائه والظفر بنعيمه في دار الخلود .

ومن هنا نعلم أن هذه الصلاة الجماعية بذلك المظهر الأخاذ من الخشوع والسكينة تعتبر أعلى مظهر من مظاهر الدعوة إلى الإسلام .

ولقد أثرت هذه المظاهر الأخلاقية على المقـوقس فقال ما قال من الثناء على المسلمين ، والاعتـراف بأنهم لو استقبلوا الجـبال لأزالوها، وإنما قال ذلك بناء على تجاربه الحربيـة ، وإدراكه بأن التفوق الأخلاقي يترتب عليه التفوق الحربي .

حوار المقوقس مع وفد المسلمين :

هذا وقـد جـاء في الرواية المذكـورة أن المقـــوقس رد رسله إلى المسلمين يقول لهم : ابعـثوا إلينا رسلاً منكم نعـاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ماعساه يكون فيه صلاح لنا ولكم .

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وكان طوله عشرة أشبـار،وأمره عمرو أن يكون متكلم القـوم وأن لايجيبهم إلى شيء دعـوه إليه إلاإحـدى هذه الثـلاث الخصـال قال:فـإن أميـر المؤمنين قدتقدم إليَّ في ذلك،وأمرني أن لاأقبل شيئًا إلاخصلة من هذه الثلاث الخصال وقد تقدم أنها الإسلام أو دفع الجزية وإلا فالقتال.

قال : وكان عبادة أسود ، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقـدم عبادة ، فهـابه المقوقس لسواده ، وقـال : نَحُّوا عني هذا الأسود وقدِّموا غيره يكلمني ، فقالوا جميعًا : إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلمًا وهو سيدنا وخيرنا ، والمقدَّم علينا ، وإنما نرجع جميعًا إلى

قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا أن لانخالف رأيه وقوله .

فقال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا ، إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعًا ، وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا ، وليس يُنكَر السواد فينا .

فقال المقوقس لعبادة : تقدَّم يا أسود وكلمني برفق فإنني أهاب سوادك ،وإن اشتد كلامك عليَّ ازددت لك هيبة .

وعند هذا المقطع من الخبر نقف لنطلَّ على مشهد مثير يختصم فيه ملأ أهل الحق وملأ أهل الباطل حول تحديد القيم العليا التي يجب أن تسود مفاهيم البشر .

فبينما نجد ملأ أهل الباطل يضعون معايير للقيم مبنية على الأشكال والصور الظاهرة ، دون عمق وتوغل في الباطن ، فينظرون إلى لون البشرة ، ويعلِّقون عليه الحب والكره والتفاؤل والتشاؤم، نجد ملأ أهل الحق يغوصون إلى الحقائق ، ويستخرجون العناصر الزكية من مكامنها فيقدَّمون أصحاب الكفاءات الذين يملؤون مراكزهم، ويعبرون عن أمتهم ومبادئهم السامية ، بما يذهل العدو ويعجب الصديق ويشفي صدور المؤمنين ، وإن كان هؤلاء الأكفاء من أصحاب اللون الأسود الذي يزدريه الجاهليون على مختلف طبقاتهم .

وإنه إن صدر هذا الأزدراء من عامة الناس الجاهليين فإنه لمن العجيب أن يصدر من رجل مسئول عن أمة ، بل من رجل قد اشتهر

بالحكمة والتعقل منذ أن أرسَل رسول الله ﷺ كُتبَه إلى زعماء الأمم فكان المقوقس أحسنهم خلقًا وأحكمهم جوابًا ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على رسوخ معاني العصبية الجاهلية في النفوس التي لم تشرق عليها شمس الإسلام الساطعة .

ولقد كان جواب هذه الفئة المؤمنة من أصحاب عبادة جوابا حاسمًا ورادعًا للقيم الجاهلية التي تَبَجَّح بها زعيم أولئك القوم، حيث أجابوا بهدوء وحكمة وشجاعة ، فأنكروا وزن الناس بمعيار اللون، وبينوا أن هذا المعيار لايوجد عند المسلمين ، مع بيان مؤهلات التقدم التي اتصف بها عبادة رضي الله عنهم أجمعين .

وإزاء هذا الرد الحاسم فإن المقوقس قد اضطر إلى قبول التحدث مع عبادة بن الصامت مع طلب الرفق في الكلام حتى لايجتمع عليه هيبة لونه مع هيبة كلامه .

قال : « فتقدم إليه عبادة فقال : قد سمعت مقالتك وإنَّ في من خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي وأشد سوادًا مني وأفظع منظرًا ، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني ، وأنا قد وليَّت وأدبر شبابي ، وإني مع ذلك بحمد الله ماأهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعًا ، وكذلك أصحابي ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدوًا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ، ولاحاجة للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا وجعل ماغنمنا من ذلك حلالاً ، وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لايملك إلا درهمًا ، لأن غاية أحدنا من

الدنيا أَكْلَةَ يأكلها يسد بها جوعته ، ليله ونهاره ، وشملةٌ يلتحفها، وإن كان أحدنا لايملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى ، واقتصر على هذا الذي بيده ويبلِّغه ماكان في الدنيا ، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة ، بذلك أمرنا الله تعالى وأمرنا به نبيناﷺ، وعهد إلينا أن لاتكون همة أحدنا في الدنيا إلا مايمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه[1] .

وقبل أن أذكر تأثر المقوقس بهذا الكلام العظيم البليغ أحب أن أعلق قليلاً على هذا المستوى السامي الذي ارتفع إليه هؤلاء العظماء، فقد بيَّن عبادة رضي الله عنه أنه وأصحابه من الشجاعة والإقدام بحيث لو قابل أحدهم مائة من الأعداء لثبت لهم ، ثم عزا هذه القوة والثبات إلى ما يتصفون به من الزهد في الدنيا والتجرد من حظوظ النفس ، والاقتصار في المعيشة على القليل الكافي لسد الجوع وستر العورة ، وأنه يستوي في ذلك الفقراء الذين لايملكون إلا هذا والأغنياء الذين يملكون قناطير الذهب ، لأن من يملك ذلك منهم يسخِّره في طاعة الله تعالى وخدمة الإسلام ، وأن هدفهم السامي هو ابتغاء رضوان الله تعالى ، وماأعده لهم في الجنة من النعيم المقيم، وأن هذا النعيم الدائم هو الذي يجب أن يسعى إليه العقلاء بكل مايملكون من طاقة ، بخلاف نعيم الدنيا الزائل الذي يتنافس عليه ضعاف العقول وقصيرو النظر .

(١) النجوم الزاهرة ١/ ١٢ .

وإذا كان الأمر كذلك ، وكان هذا هو هدف المسلمين المتقين، فما الذي يشدهم إلى الأرض ، ويمنعهم من الإقـدام على الجهاد، والحال أن الجهاد يقربهم من بلوغ هذا الهدف السامي ؟!

هذا وقـد جاء في الرواية المذكـورة أن المقـوقس لما سمع جـواب عبادة تأثر بذلك وأكـبره وعظمه حيث قال لمن حوله : « هل سـمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟ لقد هِبْتُ منظره ، وإن قوله لأهيب عندي من منظره ، إن هذا وأصحابه أخـرجهم الله لخراب الأرض، ومأأظن مُلكَهم إلا سيـغلب على الأرض كلها ، ثم أقبل المقوقس عـلى عبادة ابن الصامت فقال : أيها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وماذكرت عنك وعن أصـحابك ، ولعـمـري مابلغـتم مـابلغتم إلا بماذكـرت، وماظهرتم على من ظهرتم عليـه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فـيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لايُحـصى عدده، قوم معروفون بالنجـدة والشدة ، ممـن لايبالي أحـدهم من لقي ولا من قـاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تطيقـوهـم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا وأنتم فـي ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نَرقُّ عليكم لضـعفكم وقلتكم وقلة مـابأيديكم ، ونحن تطيب أنفسنـا أن نصـالحكم ، على أن نـفـرض لكل رجل منكـم دينارين دينارين، ولأميـركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف ديـنار ، فتقبضـونها وتنصرفون إلى بلادكم ، قبل أن يغشاكم مالا قوة لكم به » .

هذا وإن الإنسان المتأمل ليعجب كـيف يفكر المقوقس بهذا التفكير ويعرض هذا العرض مع يقينه واعترافـه بأن من يخاطبهم ليسوا طلاب

دنيا، وإنما هم أصحاب دين عظيم يتقيدون به ، ويبذلون جهدهم في نشره بين الأمم ، ولكنهــا محاولة رجل يائس أراد بها أن يصنع شيئًا يُعذر به أمام قومه ، وأمام الروم المهيمنين عليه، وهو يعلم أنهم كانوا في الشام يحاولون الصلح مع المسلمين تفاديًا لمواجهتهم .

وهنا يظهر لنا لون من ألوان المساومات الرخيصة ، حيث يحاول الصــغار أن يستنزلوا العظمــاء من عليــائهم، ليشاركــوهم أفكارهم المتدنِّيــة، وسلوكهم الدنيوي الهابط ، وإن مما يزيد الأمــر سوءًا أن من تولى هذه المساومة قد أدرك واعــترف بأن المسلمين قد بلغوا من الرقي الأخلاقي درجــة عظيمة خــوَّلتهم لفتح الممــالك وغلبة الأمم ، وأنهم سيملكون الأرض كلهــا ، ومع ذلك يساوم بما في جعبته من عروض متدنية .

ولقد كــان عبادة بن الصــامت رجل الموقف في إجاباته الحكيــمة الحازمــة حيث قال له : « ياهذا لاتغــرَّنَّ نفسك ولا أصحــابك ، أما ماتخــوفنا به من جمــع الروم وعددهم وكثــرتهم وأنا لانقوى علــيهم فلعمري ماهذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكســرنا عما نحن فيه، إن كان مــاقلتم حقا فذلك والله أرغب مــايكون لقتالهم، وأشــد لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند الله تعالى إذا قدمنا عليه، إن قُتلنا عن آخرنــا كان أمكن لنا من رضــوانه وجنته، ومــا من شيء أقر لأعــيننا ولاأحب إلينا من ذلك ، وإنا منكم حينئذ علــى إحدى الحسنيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيــمة الدنيــا إن ظفرنا بكــم أو غنيمــة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنهــا لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتــهاد منا ، وإن الله

عز وجل قال لنا في كتابه ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١) وما منّا من رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه الشهادة وأن لايرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا همٌ فيما خلَّفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا .

وأما قولك إنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة ،لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه، فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك، ولانجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيَّتها شئت، ولاتُطمع نفسك في الباطل، بذلك أمرني الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله ﷺ من قَبْله إلينا .

إما إجابتكم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لايقبل الله غيره، وهو دين نبينا وأنبيائه ورسله وملائكته ، صلوات الله عليهم، أمرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له مالنا وعليه ماعلينا، وكان أخانا في دين الإسلام ، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم ، وإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضاه نحن وأنتم في كل عام أبدا مابقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم، وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك

---

(١) سورة البقرة / ٢٤٩ .

عنكم إذ كنتم في ذمتنا ، وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب مانريد منكم، هذا ديننا الذي نَدين الله تعالى به، ولايجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره ، فانظروا لأنفسكم » (١) .

وإننا أمام هذا الكلام الواضح العميق لانملك إلا أن نُكْبِر أولئك الرجال، ونعتبرهم النماذج العالية في الدعوة والجهاد، وتنظيم العلاقات بين أمة الإسلام والأمم الأخرى .

وإن من أبرز مانلاحظه في هذا الجواب وجميع إجابات قادة الإسلام الأوائل وضوح المبدإ الذي يدافعون عنه وينطقون باسمه، والتصميم الجازم على الخيارات الثلاثة التي تكررت معنا في كل فتوحات الإسلام باعتبارها من توجيهات النبي ﷺ .

فالقاعدة العامة التي يحملها القادة واضحة لا لبس فيها ، ثابتة لا تتغير ، ولذلك فإنه لا أمل للأعداء بتغيرها عند تغير قادة المسلمين ولا عند إبدال قادة الأعداء بمن هم أكثر فطنة ودهاء .

وإنما الذي يتغير من قائد لآخر هو نوع الأساليب الحربية ، من وضع الخطط وخداع الأعداء، وتجنيب المسلمين المهالك، والحصول على أكبر النتائج بأقل الخسائر ما أمكن ونحو ذلك .

ولقد كان عبادة موفقًا تمام التوفيق حينما واجه التخويف بجيش الروم وقوتهم ببيان المعنوية العالية لجيش المسلمين التي تعتمد على الرغبة الخالصة في الاستشهاد في سبيل الله تعالى ، وأنه كلما عظم

---

(١) النجوم الزاهرة ١/ ١٤ .

الجيش المقابل كان احتمال كثرة الـشهداء أكبر ، كما ركز على بيان أن المجـاهدين قـد فـرَّغوا أذهـانهم تمامـا مما خلَّفـوه وراءهم من الأهل والأولاد، واستـودعوا ذلك كله ربهم جل وعـلا، فليس في أذهانهم مايعـوقهم عن الإقـدام ، وإنما يهيـمن عليهم حب رؤية النصـر على الأعداء أو الشهادة وذلك يدفعهم إلى الإقدام .

وإن هذا الكلام ليـعـتـبـر مطارق مـن حـديد تنزل على رؤوس الأعداء، فتزيل ماعساه أن يكون بقي فيها من نشوة الإقدام للدفاع عن النفس والوطن .

ولهذا قال المقـوقس في جوابه : هذا لايكون أبداً ، ماتريدون إلا أن تتخذونا عبيداً ماكانت الدنيا .

فقال عبادة : هو ذلك فاختر ما شئت .

فقال المقوقس : أفلا تجيبـونا إلى خصلة غير هذه الخصال ؟ فرفع عبـادة يديه وقال : لا ورب هذه السـماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء مالكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم .

فالتـفت المقوقس عند ذلك لأصـحابه وقال: قـد فرغ القوم فـما ترون؟ فأصـروا على رفض الجزية ولـم يرضوا بالدخـول في الإسلام، فقال المقوقس لـعبادة : قد أبى القوم فما ترى؟ فـراجع صاحبك على أن نعطيكم في مرّتكم هذه ماتمنيـتم وتنصرفون، فقام عـبادة وأصحابه وعادوا وهـم على ماعرضوا عليهم من الإسلام أو الجزية أو القتال .

وقد تبـادل المقوقس الرأي مـع أصحابه وأشـار عليهم بـعد ذلك بقبول الجزية ولكنهم رفضوا ذلك فلم يكن بُدٌّ من القتال .

فتح حصن باب اليون ثم الصلح :

وقد ألح المسلمون بالقتال على من في قصر باب اليون حتى كتب الله لهم النصر عليهم (١) .

وفتح الله للمسلمين ذلك الحصن المنيع، ولام المقوقس قومه على عدم قبول الصلح فقال : ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم، ماتنتظرون؟ فو الله لنجيبنَّهم إلى ما أرادوا طوعًا، أو لنجيبنهم إلى ماهو أعظم من ذلك كرها ، فأطيعوني من قبل أن تندموا، فلما رأوا منهم ما رأوا وقال لهم المقوقس ماقال أذعنوا بالجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه .

وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه: إني لم أزل حريصًا على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت بها إليّ، فأبى عليَّ ذلك من حضرني من الروم والقبط، فلم يكن لي أن أفتات عليهم في أموالهم وقد عرفوا نصحي لهم وحبي صلاحهم، ورجعوا إلى قولي ، فأعطني أمانا اجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابي، وأنت في نفر من أصحابك ، فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك جميعًا ، وإن لم يتم رجعنا إلى ماكنا فيه . .

فاستشار عمرو أصحابه في ذلك فقالوا : لانجيبهم إلى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا فقال : قد علمتم ماعهد إليَّ أمير المؤمنين في عهده ، فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إليَّ فيها أجبتهم إليها وقبلت منهم مع ماقد حال هذا الماء بيننا وبين ماتريد من قتالهم .

---

(١) النجوم الزاهرة١/ ١٥ ، فتوح مصر/ ٥٣ .

فاجتمع أمرهم على قبول الصلح وفرض الجزية (١) .

مواقف عالية لبعض المسلمين :

هذا وقد جرت لبعض المسلمين مواقف في أثناء ذلك الحصار، ومن هذه المواقف ماجاء في رواية ابن عبد الحكم رحمه الله قال : وبينما عبادة بن الصامت رضي الله عنه في ناحية يصلي وفرسه عنده رآه قوم من الروم فخرجوا إليه وعليهم حلية وبِزّة، فلما دنوا منه سلّم من الصلاة ووثب على فرسه ثم حمل عليهم، فلما رأوه ولوا هاربين وتبعهم ، فجعلوا يلقون مناطقهم ومتاعهم ليشغلوه بذلك عن طلبهم، فصار لايلتفت إليه حتى دخلوا إلى الحصن، ورُمِي عبادة من فوق الحصن بالحجارة ، فرجع ولم يتعرض لشيء مما طرحوه من متاعهم حتى رجع إلى موضعه الذي كان فيه فاستقبل الصلاة ، وخرج الروم إلى متاعهم وجمعوه (٢) .

وفي هذا الخبر تنكشف لنا أمور مهمة في حياة المسلمين الأوائل فهو مثال رفيع للشجاعة النادرة حيث يقوم عبادة بن الصامت رضي الله عنه بمطاردة قوم من الروم إلى أن لاذوا بحصنهم ، وهذه الشجاعة العظيمة تقوم على قوة تَمَثُّل المبادئ السامية في الذهن، حيث يعيش المسلم ويموت من أجلها، ويستهين في سبيلها بنفسه ومستقبله الدنيوي، فإذا قابله في الميدان من يعيشون لمستقبلهم الدنيوي فإنهم لايمكن أن يقفوا أمامه مهما كان عددهم وعُدَّتهم ، لأنهم إنما

---

(١) النجوم الزاهرة ١/١٧ .

(٢) فتوح مصر / ٥١ ، النجوم الزاهرة ١/٩ .

يحصلون على مايريدون في هذا المستقبل ببقائهم على قيد الحياة أما المسلم الحق فإنه إنما يحصل على المستقبل الأخروي السعيد ببذل نفسه وماله في سبيل الله تعالى سواء استشهد أو بقي على قيد الحياة .

وفي هذا الخبر مع هذا نموذج من نماذج العفة والترفع عن الدنيا، فحينما أحس عبادة رضي الله عنه أن القوم أرادوا أن يشغلوه بأموالهم ترفَّع عن هذه الأموال ليبيِّن لهم أن المال ليس هو هدف المسلمين من الجهاد وإن كان الله تعالى قد أباح لهم الغنائم ليتقوَّوا بها على أعدائهم، ولكن حينما يكون هدف الأعداء مساومة المسلمين عن أنفسهم ومبادئهم بأموالهم فإنها مساومة مردودة لدى أقوياء الإيمان الذين اتضحت أهدافهم واستقامت مناهجهم لأنهم لا يرضون بالتخلي عن الأهداف السامية مقابل متاع عاجل مهما كان قدره وأثره .

ومن هذا المثل ندرك الحسَّ الإسلامي الواضح الذي كان يعمر تفكير أولئك الصحب الكرام، ويجعلهم يسيرون في سلوكهم على مقتضى الحكمة والعقل السليم ، فحينما يكون المال غنائم خلَّفها القتال فإنهم يأخذونها كما أباحها الله تعالى ويصرفونها في مصارفها الشرعية ، ولكن حينما يكون المال مساومة على المبادئ السامية فإنهم يترفعون عن أخذه وينزهون أنفسهم عن الإخلال بمبادئهم من أجله .

ونجد مع ذلك أن هذا الخبر يحتوي على مَثَل من الأمثلة الكثيرة التي تبين لنا مدى سلاح الرعب الذي يُنصَر به المسلمون الأتقياء، وهذا السلاح الفعَّال يوفر على المسلمين بذل طاقات كبيرة ، بينما يشل من حركة الأعداء ويبدد طاقتهم .

ومن المواقف المذكورة في ذلك مغامرة الزبير بن العوام رضي الله عنه حينما صعد على سور الحصن وحده ، وقد جاء خبر ذلك في رواية ابن عبد الحكم قال : فلما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير: إني أهب نفسي لله تعالى ،وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلَّما إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمَّام ، ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره يجيبونه جميعًا، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبِّر ومعه السيف، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفًا أن ينكسر السلم ، وكبر الزبير تكبيرةً فأجابه المسلمون من خارج، فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعًا الحصن فهربوا ، وعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن (١) .

وهكذا تم الفتح الذي طال انتظاره على يد ليث من ليوث الإسلام ، وبطل من أبطاله العظماء، فلقد باع الزبير بن العوام نفسه رخيصة لله تعالى ، وفدى بها إخوانه ، فصعد إلى أعلى السور بمفرده، وفي ذلك من الأخطار مالايتصور قدره ، فإن الاحتمال المتبادر في ذلك أن يكون غرضًا لسهام الأعداء حتى يُردُوه قتيلا ، ولكن الله تعالى أراد أن يكون الفتح على يديه فأعمى بصائرهم عنه، وذهلوا بسماع التكبير الذي هو أقوى على الأعداء وأنكى بهم من القذائف الفتاكة .

ولعلهم رأوا أنه من المستحيل أن يفادي رجل بنفسه فيصعد وحده

---

(١) فتوح مصر / ٥٢ .

فوق السور ، فإنهم لم يروا في حياتهم من يُرْخِص نفسه بهذه الصورة المذهلة ، فتوقعوا أن المسلمين اسـتطاعوا أن يصعدوا السور ، وأن هذا الذي بدا لهم مـاهو إلا طليعـة المتسلقين، خـصوصًـا وأن الأرض قد ارتجّت من تكبير المسلمين ، ففضلوا السلامة ، ولاذوا بالفرار .

موقف عدالة من أمير المؤمنين عمر :

هذا ومما يتعلق بهـذا الفتح من المواقف موقف من مـواقف العدل لأمـير المؤمنين عـمر رضي الله عـنه،ويتلخص موضـوع ذلك في أن عمـرو بن العاص قـد عقد هدنة بينه وبين الأعـداء لمدة خمـسة أيام، ولكن العدو خلالهـا هجم منه طائفة على المسلمين ليلا،وكـان عمرو وجيشه على اسـتعداد فقتلوهم وسبوا منهم وممـن حولهم،فلما انتهى الفتح جـاء الراهبان اللذان عقـدا الصلح يطالبان عمـرو بن العاص بما كان من السبي خلال الهدنة فرفض عـمرو وذكّرهما بما كان من الغدر من قومهما.

فلما علم عمر رضي الله عنه بخـبر الراهبين ، قال : ألا أراهما يبصران وأنت تُجاهلون ولاتبصرون، من قاتلكم فلا أمان له، ومن لم يقـاتلكم فـأصـابه منكم شيء ومن أهل القـرى فله الأمـان في الأيام الخمسة حتى تنصرم ، وبعث في الآفاق حتى رد ذلك السبي[1] .

وهذا مثل من أمثلة عدل عمر رضي الله عنه الذي اشتهر به حتى مع أعدائه ، ولقـد كان لهذا وأمثـاله من صور العدل التي عـامل بها الصحابـة رضي الله عنهم أعداءهم الأثر الكبير في إقـبال الناس على الدخول في الإسلام .

---

(١) تاريخ الطبري ١٠٩/٤ .

موقف في الدهاء لعمرو بن العاص :

ومن المواقف التي جرت بعد فتح حصن باب اليون موقف لقائد المسلمين عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وقد جاء ذلك في رواية أخرجها الإمام الطبري ، وفيها : أن القبط حضروا باب عمرو، وبلغ عمراً أنهم يقولون : ما أَرَثَّ العرب وأهون عليهم أنفسهم ! مارأينا مِثْلَنا دان لهم ! فخاف أن يستثيرهم ذلك من أمرهم ، فأمر بجُزُرٍ فذبحت فطبخت بالماء والملح، وأمر أمراء الأجناد أن يحضروا وأعلموا أصحابهم ، وجلس وأَذِن لأهل مصر ، وجِيء باللحم والمرق فطافوا به على المسلمين ، فأكلوا أكلا عربيا ، انتشلوا وحسَوْا وهم في العَباء ولا سلاح ، فافترق أهل مصر وقد زادوا طمعًا وجرأة ، وبعث في أمراء الأجناد في الحضور بأصحابهم من الغد ، وأمرهم أن يجيئوا في ثياب أهل مصر وأحذيتهم وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ففعلوا، وأَذِن لأهل مصر ، فرأوا شيئًا غير مارأوا بالأمس ، وقام عليهم القُوَّام بألوان مصر ، فأكلوا أكل أهل مصر ، ونَحَوْا نحوهم، فافترقوا وقد ارتابوا ، وقالوا : كدنا .

وبعث إليهم أن تسلحوا للعرض غداً ، وغدا على العرض وأذن لهم، فعرضهم عليهم ، ثم قال : إني قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم في شيء حين رأيتم اقتصاد العرب، وهَوْنَ تَزَجِيتهم، فخشيت أن تهلكوا، فأحببت أن أريكم حالهم، وكيف كانت في أرضهم ، ثم حالهم في أرضكم، ثم حالهم في الحرب، فظفروا بكم، وذلك عيشهم وقد كَلِبُوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها مارأيتم في اليوم الثاني ، فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير

تارك عيش اليوم الثاني إلى عيش اليوم الأول ، فتفرقوا وهم يقولون: لقد رَمَتْكم العرب بِرَجُلِهم .

وبلغ عمر رضي الله عنه فقال لجلسائه: والله إن حربه لَلَيِّنة مالها سطوة ولاسَوْرة كسَورات الحروب من غيره، إن عمراً لَعِضٌ - يعني رجل داهية - ثم أمَّره عليها وقام بها (١) .

وهذا مثل من دهاء عمرو بن العاص وخبرته الدقيقة بغوائل النفوس وأدوائها ، وبَلْسم شفائها ، فلقد قرأ في وجوه الأعداء الاستهانة بأمر المسلمين ، لِماَ رأوا من زهدهم وبساطة عيشهم، وخاف من منطقهم احتمالَ هيجانِ نفوسهم نحو إثارة العصيان، والعودة إلى القتال، وفي ذلك هلاك لهم وعنَتٌ شديد على المسلمين، فأراهم في اليوم الأول حال المسلمين وهم في بلادهم، ثم أراهم إياهم وهم يعيشون عيشة أهل مصر المُتْرفة ثم عرضهم عليهم في اليوم الثالث وهم مسلَّحون ، ثم خاطبهم بالمنطق الذي يفهمونه، وهو أن من تحول عن معيشة الشظف والشدة إلى معيشة الترف والنعيم لن يعود إلى المعيشة الأولى وهو يملك السلاح الذي يقاتل به ، والقوة التي تحمل هذا السلاح ، فأرعبهم بذلك ، واقتلع من رؤوسهم وساوس الشيطان الذي زين لهم سابقًا هَوَانَ أمر المسلمين ،وإمكانية التغلب عليهم .

ولا شك أن تلك الكلمات التي تحمل التهوين من شأن المسلمين لرثاثة مظهرهم لم تصدر من عقلاء القوم ،لأن العقلاء يدركون أن المظاهر من الطعام والشراب واللباس لاتقدِّم ولاتؤخر في قضايا الحرب

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١١٠ .

والسياسة ، وإنما صدرت من العامة وهم الكثرة في كل الأمم، ولهم وزن اجتماعي مؤثر، فكان لابد لقائد عبقري مثل عمرو بن العاص رضي الله عنه أن ينزل إلى مستواهم ، وأن يداوي أدواءهم بما يناسبها.

ومن هنا نعلم أن اقتصار بعض الدعاة والقادة على اجتذاب المفكرين والطبقات الخاصة يعتبر خللا يؤثر على نجاح مهمتهم فلابد من مخاطبة كل فئات المجتمع وأن يكون محتوى الخطاب وأسلوبه مناسبًا لكل طبقة .

وإن فيما قام به عمرو بن العاص من هذا المنهج البديع الذي سلكه مع عامة أولئك القوم لقطعًا لدابر أي فتنة ربَّما اغتنمها مفكرو القوم لتدبير انتقاض على المسلمين لاتحمد عقباه ، فكان عمرو رجل الموقف الذي قد أعد للمشكلات حلولها منذ ظهور أول بوادرها، ولذلك أثنى عليه أمير المؤمنين عمر ، ووصفه بالدهاء والمكر بالأعداء.

موقف رحمة من عمرو بن العاص :

هذا ولما انتهى فتح حصن باب اليون أراد عمرو بن العاص التحول من مكانه ذلك ،وأمر بالرحيل لاستكمال فتح مصر، فحدثت حادثة واجهها عمرو بن العاص بسلوك إسلامي رفيع يدل على عمق تخلقه بمكارم الأخلاق، وقد ذكر ذلك ابن عبد الحكم رحمه الله حيث يقول : لما فتح عمرو بن العاص الحصن، وهو المسمى الآن بقصر الشمع فكان فسطاطه قبالة الحصن، فلما أراد التوجه إلى الإسكندرية أمر بنزع الفسطاط من ذلك المكان ، فلما أرادوا ذلك

وجدوا عليـه عُشٍّ يمامة قـد باضت وأفرخت، فقـال عمـرو: اتركوا الفسطاط على حاله احترامًا لليمامة التي عشّشت عليه (١) .

وفي رواية أخرى عند ابن عـبد الحكم : أن عمـرو بن العاص لما أراد التـوجه إلى الإسكندرية لقـتـال من بقي بها من الروم أمـر بنزع فسطاطه فإذا فيه يمام قد فرخ ، فقال عمرو بن العاص : لقد تحرَّم منا بمتحرَّم ، فأمر به فأُقرَّ كما هو ، وأوصى به صاحب القصر (٢) .

وهذا شاهد حيّ على ماكان يتمتع به المسلمون الأوائل من الرحمة والعطف والمواساة ، فلم تكن الحروب المتواصلة ومشاهد القتل والدماء عامـلاً على قسوة قـلوبهم وميلها إلى العـدوان والانتقـام بل وجدهم العالمُ رحمـاءَ بررة أوفياء ، ولا أدل على هيمنة الرحـمة على قلوبهم من هذا الخبر ، حيث ترك عمرو فسطاطه رحمة بالحمامة التي عششت عليه وفرخت فيه .

وإذا كان هذا القلب الكبير قد حَنّى على حمامة فأبقى خيمته من أجل أن لاتُفجـع بفراخهـا، أفلا يكون حـانيًا على بني البـشر إذا هم تخلوا عن طغيانهم وأبصروا طريق الحق ؟!

إن هذا السلوك العالي يعتبـر من أهم وسائل الدعوة إلى الإسلام فالذين يمرون على ذلك الفسطاط القائم وحـده من أجل تلك الحمامة وفراخـها، والذين يسمـعون بهذا الخبـر سيتـساءلون عن الدوافع التي دفعت هذه الأمة إلى أن تكون قوية إلى أعلى غايات القوة في القتال،

---

(١) بدائع الزهور ١/ ١٠٣ .

(٢) فتوح مصر / ٦٨ .

ورحيـمة رقيـقة إلى أسمى درجـات الرحمة والرقـة في حال السلم، فكيف جمعت بين هذه الخصال التي ظاهرها التناقض ؟

والذي يجـيب على هذا التسـاؤل هو البحث عن حـقيقـة الدين العظيم الذي خـضـعت له هذه الأمـة ، وأصـبح هو المهـيـمن على تصوراتها وسلوكها في هذه الحياة ، لأن هذا الدين هو الذي جمع الله به بين قبائل العرب حتى تكونت منهم النواة الأولى للأمة الإسلامية، فكل محـاولات العظمة ، وجـميع نواحي الابداع التـي تمت من قادة المسلمين وجنودهم إنما هي من ثمرات الهداية إلى هذا الدين العظيم.

وأخيراً فـإننا نجد في هذا الخبر لفتـة مهمة نحو استـشعار أولئك العظمـاء رقـابة الله عز وجـل في كل خطوة يخطونهـا، فلو أن هذا القـائد العظيم أمـر بإزالـة الفسـطاط فـمن الذي سـيلومـه على هذا التصرف؟ لكنه يعلم أن الله تعالى مطلع عليـه فهو يراقبه جل وعلا، ويعلم أن معـيته سبـحانه لعباده بالنصـر والتأييد إنما تكون بمعيـتهم له بالطاعة والخضوع والتعظيم ، وإنما يَستـنزل المسلمون نصر الله سبحانه برحمتـهم خلقه الضعفـاء وإن كانوا من العجمـاوات التي لاحول لها ولاقوة .

*　　*　　*

٤ - فتح الإسكندرية -

توجه عمرو بجيشه نحو الإسكندرية ، وفي طريقه إليها جرت بينه وبين أهل تلك البلاد حروب كان النصر فيها حليف المسلمين، ومن المواقف التي تذكر في ذلك أن عبد الله بن عمرو بن العاص أصيب بجراحات كثيرة في معركتهم مع أهل الكريون فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فقال عبد الله: أقول إذا ماجاشت النفس اصبري، فعما قليل تُحمدي أو تلامي ، فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره بما قال فقال عمرو : هو ابني حقًا (١) .

وهذا موقف من مواقف الصبر والتحمل يذكر لعبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما الذي اشتهر بالعلم والعبادة، فجمع إلى ذلك الشجاعة والصبر على الشدائد .

ووصل عمرو بجيشه إلى الإسكندرية فحاصرها وكان فيها أكبر حامية للروم، وكانوا يهتمون بها كثيراً ، كما جاء في رواية لابن عبدالحكم أن رسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الروم ، وكان ملك الروم يقول : لئن ظهرت العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم، لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية ، وإنما كان عيد الروم بالإسكندرية حيث غَلَبت العرب على الشام ، فقال الملك : لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم ، وانقطع ملكها ، فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه إلى الإسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسها

---

(١) فتوح مصر / ٥٧ .

إعظامًا لهـا، وأمر أن لايتخلـف عنه أحد من الروم ، وقال : مـابقاء الروم بعد الإسكندرية! فلما فـرغ من جهازه صرعه الله فـأماته وكفى المسلمين مؤنـته ، وكان مـوته في سنة تسع عشرة ، فكـسر الله بموته شوكة الروم، فرجع جمع كثير ممن كان قد توجه إلى الإسكندرية[1].

وهكذا تبين لنا بوضوح أن الله سبحـانه مع أوليائه المؤمنين بنصره ودفعـه وتأييده ، فـالروم حينما فـقدوا الشام وجـدوا من الإسكندرية عوضًا عنها فركزوا اهتمامهم بها،وحينما علم هرقل بغزو المسلمين لها قال كلمـته المذكورة : لئن غلبونا علـى الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكهـا ، فعزم على تجـهيز جيش عـظيم يقوده بنفسـه للدفاع عنها، ولو تم ذلك لوجد المسلمون منه مشـقة عظيمة، ولكانوا بحاجة إلى إمدادات كبيرة ، وربما اضطروا لسحب بعض جيوشهم من الشام، وفي ذلك إضعاف لوجودهم فيها .

ولكن الله سبحانه سلَّم المسلمين من هذا البلاء العظيم حيث أخذ روح هرقل ، ولَمَّا يغـادر بلاده ، فرجع أكثـر الجيش الذي كـان توجه إلى الإسكندرية .

ومن هنا نعلم أن على المسلمين أن يسعوا في جهادهم مع الأعداء بما لديهم من إمكانات وقوة، مع التـوكل على الله تعالى، وأن يؤمنوا بأنه جل وعـلا يتـولى أمـرهم في الخـروج من المحن والشـدائد التي يفاجئون بها .

من أمثلة دهاء عمرو وبديهته :

ومن مواقف الذكـاء والدهاء التي تذكر لعمـرو بن العاص رضي

(١) فتوح مصر /٥٨ .

الله عنه مارواه ابن عبد الحكم من رواية يزيد بن أبي حبيب قال: خرج طرف من الروم من باب حصن الإسكندرية فحملوا على الناس فقتلوا رجلا من مُهْرة فاحتزوا رأسه وانطلقوا به ، فجعل المُهْرِيُّون يتغضبون ويقولون : لاندفنه أبدًا إلا برأسه ، فقال عمرو بن العاص: تتغضّبون كأنكم تتغضبون على من لايبالي بغضبكم ، احملوا على القوم إذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلا ثم ارموا برأسه يرموكم برأس صاحبكم ، فخرجت الروم إليهم ، فاقتتلوا ، فقُتِل من الروم رجل من بطارقتهم فاحتزوا رأسه فرموا به إلى الروم ، فرمت الروم برأس المهري إليهم ، فقال : دونكم الآن فادفنوا صاحبكم (١) .

وهكذا نجحت خطة عمرو الذكية في استثارة الأعداء ، وذلك بالتظاهر لهم بأن المسلمين لم يبالوا بكيد الأعداء حيث أظهروا لهم عدم الاهتمام بالاحتفاظ برؤوس القتلى ، فرد عليهم الروم بالمثل ورموا برأس القتيل المسلم .

ولنفرض أنه لم يحصل شيء من ذلك فيكفي في نجاح خطة عمرو أنه دفع المهريين إلى الحماس في القتال، وأوقف ماكانوا فيه من النقاش الذي عاقهم عن مواصلة القتال .

موقف لأحد المجاهدين :

ومما يذكر من مواقف هذا الفتح ماأخرجه ابن عبد الحكم من رواية بكر بن عمرو الخولاني : أن عبد العزيز بن مروان حين قدم الإسكندرية سأل عن فتحها،فقيل له:لم يبق ممن أدرك فتحها إلا شيخ كبير من الروم ،فأمرهم فأتوه به فسأله عما حضر من فتح .

(١) فتوح مصر / ٥٩ .

الإسكندرية، فقال : كنت غلاما شابا ، وكان لي صاحب ابن بطريق من بطارقة الروم فأتاني فقال : ألا تذهب بنا حتى ننظر إلى هؤلاء العرب الذين يقاتلوننا ! فلبس ثياب ديباج وعصابة ذهب وسيفًا مُحَلًّى، وركب برذونا سمينا كثير اللحم، وركبت أنا برذونا خفيفًا، فخرجنا من الحصون كلها حتى برزنا على شرف ، فرأينا قومًا في خيام لهم عند كل خيمة فرس مربوط ورمح مركوز، ورأينا قومًا ضعفاء، فعجبنا من ضعفهم ، وقلنا : كيف بلغ هؤلاء القوم مابلغوا؟ فبينا نحن وقوف ننظر إليهم ونعجب إذ خرج رجل منهم من بعض تلك الخيام فنظر فلما رآنا حل فرسه فمعكه ثم مسحه ووثب على ظهره وهو عُرْي، وأخذ الرمح بيده وأقبل نحونا ، فقلت لصاحبي: هذا والله يريدنا ، فلما رأيناه مقبلا إلينا لايريد غيرنا أدبرنا مولّين نحو الحصن ، وأخذ في طلبنا فلحق صاحبي لأن برذونه كان ثقيلا كثير اللحم فطعنه برمحه فصرعه، ثم خضخض الرمح في جوفه حتى قتله ، ثم أقبل في طلبي وبادرت ، وكان برذوني خفيف اللحم فنجوت منه حتى دخلت الحصن، فلما دخلت الحصن أمنت فصعدت على سور الحصن أنظر إليه ، فإذا هو لما أيس مني رجع فلم يبال بصاحبي الذي قتله ، ولم يرغب في سلَبه ، ولم ينزعه عنه، وقد كان سلبه ثياب الديباج وعصابة من ذهب ، ولم يطلب دابته، ولم يلتفت إلى شيء من ذلك وانصرف من طريق أخرى وأنا أنظر إليه ، وأسمعه يتكلم بكلام ورفع به صوته ، فظننت أنه إنما يقرأ بقرآن العرب، فعرفت عند ذلك أنهم إنما قووا على ماقووا عليه وظهروا على البلاد لأنهم لايطلبون الدنيا ، ولايرغبون في شيء منها، حتى بلغ خيمته ،

فنزل عن فرسه فربطها، وركز رمحه ، ودخل خيمته ولم يُعْلم بذلك أحدًا من أصحابه .

فقال عبد العزيز - يعني ابن مروان - : صف لي ذلك الرجل وهيئته وحالته، فقال : نَعَمْ هو قليل دميم، ليس بالتام من الرجال في قامته ولا في لحمه ، رقيق آدم كوسج، فقال عبد العزيز عند ذلك: إنه ليصف صفة رجل يماني (١) .

وفي هذا الخبر مواقف جليلة ، منها الاهتمام البالغ بأمور الآخرة، وعدم الاكتراث بالدنيا ومظاهرها ، وأن ذلك كان من الأسباب المهمة في انتصارات المسلمين الأولى وقد سبق الكلام على هذا الموضوع .

ومنها شجاعة المسلمين الأوائل ، ومسارعتهم إلى بذل أرواحهم رخيصة في سبيل الله تعالى ، وقد تقدم الكلام على ذلك أيضا .

ومنها محاولتهم إخفاء أعمالهم الصالحة ، وعدم التمدح بما قاموا به من أعمال جليلة قد تدخل في مجال المغامرات ، ومع ذلك فإنهم لايفاخرون بهذه الأعمال ، ولا يذكرونها ، لأنهم إنما يرجون ثوابها من الله تعالى ، وهو سبحانه مطلع عليهم، وكلما بَالَغُوا في إخفاء عملهم كلما كان العمل أبلغ في الإخلاص .

فهذه القصة المشتملة على التضحية بالنفس والترفع عن متاع الدنيا، والزهد في الجاه والذكر، ماكانت لتُعرف لولا أن راويها الذي شاهدها قصها بعد ذلك .

---

(١) فتوح مصر /٥٨ .

وهذا يعتبر من أهم مؤهلات العظمة والسيادة في حياة الجيل الإسلامي الأول .

موقفان لعمرو ومسلمة بن مخلَّد :

هذا ومن مواقف المسلمين في فتح الإسكندرية ما أخرج خبره ابن عبد الحكم من رواية خالد بن نجيح قال: أخبرني الثقة أن عمرو بن العاص قاتل الروم بالإسكندرية يومًا من الأيام قتالاً شديدًا ، فلما استحر القتال بينهم بارز رجل من الروم مسلمة بن مخلد ، فصرعه الرومي وألقاه عن فرسه ، وهوى إليه ليقتله حتى حماه رجل من أصحابه ، وكان مسلمة لايقام لسبيله ولكنها مقادير ، ففرحَتْ بذلك الروم ، وشق ذلك على المسلمين ، وغضب عمرو بن العاص لذلك، وجاء في الرواية أنه اتهم مسلمة بالجبن واشتد عليه بالكلام ، وأن مسلمة غضب من ذلك ولم يراجعه .

قال : ثم اشتد القتال حتى اقتحموا حصن الإسكندرية فقاتلهم العرب في الحصن ، ثم جاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعًا من الحصن إلا أربعة نفر بقوا في الحصن، وأغلقوا عليهم باب الحصن، أحدهم عمرو بن العاص، والآخر مسلمة بن مخلد، ولم نحفظ الآخرين، وحالوا بينهم وبين أصحابهم، ولاتدري الروم من هم، فلما رأى ذلك عمرو بن العاص وأصحابه التجؤوا إلى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه فاحترزوا به ، فأمروا روميًا أن يكلمهم بالعربية، فقال لهم : إنكم قد صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولاتقتلوا أنفسكم، فامتنعوا عليهم، ثم قال لهم : إن في أيدي أصحابكم منا رجالاً أسروهم ونحن نعطيكم العهود نفادي بكم

أصحابنا ولانقتلكم ، فأبوا عليهم ، فلما رأى ذلك الرومي منهم قال لهم : هل لكم إلى خصلة وهي نَصَفٌ بيننا وبينكم، أن تعطونا العهد ونعطيكم مثله على أن يبرز منكم رجل ومنا رجل، فإن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وامكنتمونا من أنفسكم ، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلّينا سبيلكم إلى أصحابكم فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه، وعمرو ومسلمة وصاحباهما في الحصن في الديماس، فتداعوا إلى البراز، فبرز رجل من الروم قد وثقت الروم بنجدته وشدته، وقالوا: يبرز رجل منكم لصاحبنا ، فأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة وقال: ماهذا تخطئ مرتين، تشذ عن أصحابك وأنت أمير، وإنما قوامهم بك، وقلوبهم معلقة نحوك، ولايدرون ماأمرك ، ثم لاترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل ، فإن قُتلت كان ذلك بلاء على أصحابك، مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله ، فقال عمرو : دونك فربما فرّجها الله بك، فبرز مسلمة والرومي فتجاولا ساعة ، ثم أعانه الله عليه فقتله، فكبّر مسلمة وأصحابه ، ووَفَى لهم الروم بما عاهدوهم عليه، ففتحوا لهم باب الحصن ولاتدري الروم أن أمير القوم فيهم، حتى بلغهم بعد ذلك فأسفوا على ذلك وأكلوا أيديهم تغيظًا على ما فاتهم .

فلما خرجوا استحيى عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب، فقال عمرو عند ذلك : استغفر لي ماكنت قلت لك ، فاستغفر له وقال عمرو: ما أفحشت قط إلا ثلاث مرار ، مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة ، ومامنهن مرة إلا وقد ندمت واستحييت ، وماماستحييت من

واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت لك ووالله إنـي لأرجو أن لاأعود إلى الرابعة مابقيت (١) .

وهكذا نجد أنفسنا أمام مواقف إسلامية متعددة الأنواع في هذا الخبر، فما بين احتمال كبير للأذى والإهانة ، إلى نماذج من الاقدام والشجاعة ، إلى مظاهر المساواة بين القادة والجنود، إلى اعتراف القادة بأخطائهم أمام الجنود واعتذارهم منهم ، كما نرى التجرد من حظ النفس وتقديم المصلحة العامة .

فبينما نرى مَسْلَمة بن مُخَلَّد الذي يُعَدُّ بطلا من أبطال المسلمين يُقْدم على المبارزة بعد بذل مجهود كبير في حرب ضارية، إذ به يُخفق في تحقيق النصر على غير المعهود منه، ولقد كانت هفوة من فارس كبير، قيل إنه يعدل ألفا من الرجال ، ولكن لكل صارم نبوة ولكل جواد كبوة .

ولقد كان وَقْعُ هذا الإخفاق عظيمًا على نفوس المسلمين، وخاصة عمرو بن العاص حيث تكلم على مسلمة بكلام شديد، ولكن مسلمة لم يرد عليه، ولئن كان عمرو بن العاص مشتهراً بالحلم والحكمة فإنه قد خرج عما أُلف منه ذلك اليوم ، وأهان فارسًا له دوره الكبير في حياة المسلمين الجهادية .

ولقد كان أثر هذا التصرف كبيراً على عمرو نفسه، حيث اعتذر بعد ذلك من مسلمة وأبان له أن هذا التصرف هو أكبر خطأ أرتكبه في حياته كما جاء في الرواية .

---

(١) فتوح مصر / ٥٩ .

أما الأعذار التي يمكن أن يعتذر بها لعمرو حينما أصدر هذا اللوم العنيف فإنهـا تظهر حينمـا نعلم أن المسلمين آنذاك قد امـتلكوا سلاح المبـارزة ، ولم يعرف أن أحـد فرسـانهم الكبار هُزم في مـبارزة قـبل ذلك، والمبـارزة لها أثرها الكبـير في رفع مـعنويات الجيش وخـفض معنويات العدو عند الانتصار ، وقد كان كـبار القادة يلجئون إليها إذا تأزمت المعركة لرفع معنوية المسلمين كـما تقدم لنا من خالد بن الوليد يوم اليمامة .

فلما حصل في معركة الإسكندرية ماحصل من إخفاق مسلمة بن مخلد، ولصعوبة ماواجهه المسلمون من اعدائهم، وطول مدة الحصار، ولِمَاَ أُثقل به فكر عمرو من التخطيط لمواجهة الأعداء ، وتحمل مسئولية الجيش الإسلامي ، ومرارة الاخفاق في إكمال فتح مصر . . لذلك كله وقعَتْ من عمـرو هذه الزلة في ساعة غضب،وكـفى المرء نبلاً أن تُعَدَّ معايبه .

ونلاحظ في سكوت مسلـمة وعدم رده على عمـرو مقدرة فـائقة على امتلاك النفس عند الغضب، فهذا مثال رفيع لخلق الحلم الذي هو من أهم عناصر السيادة .

كـما يدلنا ذلـك على الأدب العالي الـذي كان يتـمـتع به كبـار المسلمين مع قادتهم، حيث إن الهيبة التي تتكون لقادة المسلمين بموجب لزوم طاعـتهم شـرعًـا ، وبمعاملتـهم الإسـلاميـة لجنودهم يجب أن لاتُمتهن لمجرد خطأ يصدر من القائد لأحدهم .

كمـا نلاحظ في اعتذار عمـرو لمسلمة مثـلا ساميًا لتـواضع قادة

المسلمين ، وعـدم اغتنام مناصـبهم لفرض سـيطرتهم والتعـالي على تابعيهم .

وإذا جمـعنا بين تصرف عـمرو القـائد ومسلمـة الجندي في هذه المعركة يتبين لنا أيّ مستوى أخلاقي بلغه المسلمون الأوائل .

وننتقل إلى المشكلة الصعبة التي واجهها عمرو مع ثلاثة من جنوده حـينمـا انفـردوا عن المسـلمين داخل حـصـون الاعـداء ، والمواقف الإسلامية التي جرت خلال ذلك .

إن انفـراد قـائد المسـلمين مع ثلاثة من جنوده دلـيل على حـجم المشاركة التي يقوم بها قادة المسلمين في معاركهم مع الأعداء، كما أنه دليل على ضراوة هذه المعركة التي خاضوها، حيث فرقتهم واضطرت القائد إلى أن ينفرد بهذا العدد القليل .

وأمر آخر نلاحظه في هذا الخـبر ، وهو أن الروم قطعًا لم يكونوا يعرفون قائد المسلمين ،فلو عرفوه لسـاوموا عليه أبلغ مساومة، وكون قادة المسلمين غـالبًا غير مـعروفين للأعداء إنما هو من ثمـرات المساواة التي يعيـشها المسلمون، حـيث لافرق في المساكن واللبـاس بين القادة والجنود ، بينما كان قادة أعدائهم معروفين بتميزهم باللباس والمسكن، فيكونـون هدفا لغارة المسلمـين في الغالب، والغريب فـي الأمر أنهم كانوا لايتنازلون غالبـا عن هذه الطبقية حتى في حـال الحرب، مع ما يُعرِّضهم ذلك من فقدان الأمن والاستهداف للهجوم المضاد .

ومن المواقف البارزة في هذا الخـبر أن عمرو بن العـاص مع كونه قائد المسلمين قد اسـتعد لمبارزة الرومي الذي انتخبـه الروم لمبارزة أحد

المسلمين الأربعة ، وفي هذا بيـان لما يتصف به عمـرو بن العاص من الشجاعة والإقدام والتضحية ، ولئن كانت لديه آمال عريضة في حكم مصر ومـايترتب على ذلك من الدعوة إلى الإسـلام وإقراره على يديه فإنه يؤمن بقـضاء الله وقدره ، ويـعلم أن إقدامه على المبـارزة لايقدم أجله عن موعده الذي كتبه الله له ، وإلى هذا الإيمان الراسخ بالقضاء والقدر ترجع نسبة كبـيرة من دوافع الإقدام المذهل عند الصحابة رضي الله عنهم ومن جاء بعدهم من المؤمنين الصادقين .

ونرى أخـيراً في تدخُّل مـسلمة بن مـخلَّد نموذجًا عـاليًا للـفداء والتضحيـة حيث عارض عمراً في تقدمه للمبـارزة ، وتقدم هو للقيام بهذا الدور الخطير ، وإذا لاحظنا ما تقدم من النقد الشديد الذي وجهه عمرو لمسلمـة حينما أخفق في المبـارزة السابقة يتبين لنا مـا جُبل عليه أبناء ذلك الجيل من التجرد عن المصالح الذاتية والتـقدم لما فيه مصلحة المسلمين العامة .

وقد يقول قائل : لماذا لم يُقْدم الروم على قتال هؤلاء ، وإنما هم أربعة نفـر فيفتـحوا عليهم البـاب بالقوة ويقاتلوهم حـتى يقتلوهم أو يأخذوهم أسرى ؟

فأقـول: إنهم لم يكونوا يشعـرون بأنهم أمام أربعة رجـال عاديين وإنما بأنهم أمام أربعة أسود أشاوس ، والروم كـسائر الكفار يحافظون أولاً على أرواحهم ، وكل واحـد منهم يخشى أن يكون هو الضحـية في قتال هؤلاء ، كـما لو هجم أسد على مجمـوعة من الناس فإنهم في الغالب يلجئون إلى الفرار وإن كان معهم أسلحة ، فلذلك فضلوا

التـفاوض مـعـهم ، وهذا من أدلة تفـوق المسلمين على أعـدائهم في الثبات والتضحية .

وقد يقـال : لماذا لم يتركـوهم محبـوسين حتى يموتوا جـوعًا أو يفادِي بهم المسلمون أنفسهم بأسراهم ؟

فيقال: إن الروم كانوا يخشون من ضراوة هجوم المسلمين وكَرَّتهم عليهم فيما إذا كان لهم أسرى يريدون إنقاذهم ، وقد كانوا يعانون من بأس المسلمين مـن غـير ذلـك ، فكيف إذا أضـيف إلى دوافع إقـدام المسلمين هذا السبب .

فلذلك لجئـوا إلى هذا العرض الأخـير ، وشجـعهم عليه ثقـتهم بشجاعـة صاحبهم ، فرجوا أن ينتـصر فيستأسـر لهم المسلمون الثلاثة ليفادوا بهم عن أسراهم لدى المسلمين .

ولكن الله تعالى خيب آمالهم فانتصر مسلمة على صاحبهم .

كتاب من أمير المؤمنين عمر :

لقد ظل المسلمون يحاصرون الإسكندرية عـدة شهور، فلما تأخر فتحها كتب إليهم أمـير المؤمنين في ذلك ، كما أخرج ابن عبد الحكم من طريق عبـد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيـه قال : لما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر كتب إلـى عمرو بن العاص : أما بعد لقد عجبت لإبـطائكم عن فتح مصر ، إنكم تقـاتلون منذ سنتين، وماذاك إلا لما أحدثتم وأحـببتم من الدنـيا ما أحب عـدوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لاينصر قومًا إلا بصدق نياتهم ، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر ، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ماكـنت أعرف،

إلا أن يكونوا غيَّرهم ما غيَّر غـيرهم ، فإذا أتاك كتابي فاخطب الناس وحُضَّهم على قتال عدوهم ، ورغِّبهم في الصبر والنية ، وقَدِّم أولئك في صدور الناس ، ومُر الناس جـميعًا أن يكون لهم صدمة كـصدمة رجل واحد، ولـيكن ذلك عند الزوال يوم الجمـعة فـإنها ساعـة تَنَزُّل ووقت الإجابـة ، وليعجَّ الناس إلى الله تعـالى ويسألوه النصـر على عدوهم .

فلما أتى عمراً الكتاب جمع الناس وقـرأ عليهم كتاب عمر، ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس ، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ، ثم يرغـبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر، ففـعلوا ففتح الله عليهم [1] .

وفي هذا الكتاب الذي يستـبطئ فيه أمير المـؤمنين عمر رضي الله عنه فتح بـقية البـلاد المصرية نجده يذكِّـر الجيش الإسـلامي الذي كان يحاصر الإسكندرية بلزوم حياة الزهد وعدم الجنوح نحو حياة الترف، ويعزو تأخر الفتح لما قد يكون الجنود المسلمون أحدثو من فعل معصية أو تكاسل عن طاعـة أو ميل إلى مـتـاع الدنيا من المال أو الجـاه، ثم يوجه الجيش إلى صدق النية مع الله تعالى ، والتزام الصبر لأن النصر مع الإخلاص والصبر .

وأخيراً يوجه أميـر المؤمنين قائد الجيش الإسلامي إلى التزام خطة من الخطط الحربية التي يراها أنجـح في بلوغ المقصود ، وهي أن يكون الهجوم بشكل موحد في وقت واحد، بحيث تكون الهجمة من جميع

---

(١) فتوح مصر / ٦٠ .

الجيش كهجمة رجل واحد ، وحينما تكون الهجمة الموحدة فإن العدو لايستطيع أن يقف أمام هؤلاء المقاتلين ، لأن قوة اثني عشر ألفا تجتمع فتكون كتلة واحدة ، وهذا مستفاد من توجيه الله تعالى عباده المؤمنين إلى التضامن والتلاحم وتوحيد الهجوم حيث يقول تعالى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ (١) .

إنه حينما يجتمع عشرة رجال على دفع كتلة ثقيلة أوجرِّها فإنهم ينجحون حينما تتفق قوتهم في وقت واحد ، ويفشلون حينما تتفاوت قوتهم في التوقيت ولذلك كان هذا التوجيه في غاية الأهمية، لأن تطبيق الهجوم الجماعي الموحد إما أن يقضي على قوة الأعداء لقوة اندفاعه ، وإما أن يحدث في جيشهم شرخًا كبيرًا يتسبب في فصل قواتهم وإضعافها .

ولم يُغفِل عمر رضي الله عنه في هذا التوجيه أن يذكِّر الجيش الإسلامي بأهمية الاتصال بالله تعالى ، واستنزال النصر منه، وهو الأهم في هذا الموضوع ، فوجههم إلى اختيار الوقت الأفضل للهجوم حيث ساعة الإجابة ونزول الرحمة يوم الجمعة،وفي هذا جمع بين فعل الأسباب الممكنة في طلب النصر مع التوكل على الله تعالى وحده.

استشارة عمرو أهل الرأي ونهاية المعركة :

أما موقف عمرو بن العاص رضي الله عنه من ذلك فقد ضجر هو أيضًا من تأخر الفتح ، فاستشار كبار أصحابه في هذا الأمر ، يبين

---

(١) سورة الصف / ٤ .

ذلك مارواه ابن عبد الحكم : أن عمرو بن العاص قال لمسلمة بن مُخَلَّد : أشرْ عليَّ في قتال هؤلاء ، فقال له مسلمة : أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ فتعقد له على الناس ، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكيفيك، قال عمرو: ومَنْ ذلك؟ قال : عبادة بن الصامت.

قال : فدعا عمرو عبادة فأتاه وهو راكب على فرسه، فلما دنا منه أراد النزول، فقال له عمرو : عزمت عليك أن لاتنزل، ناولني سنان رمحك، فناوله إياه ، فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد له وولاه قتال الروم ، فتقدم عبادة مكانه فصافَّ الروم وقاتلهم ، ففتح الله على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك .

وفي رواية أخرى عند ابن عبد الحكم قال: لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية استلقى على ظهره، ثم جلس فقال: إني فكرت في هذا الأمر فإذا هو لايُصلح آخره إلا ما أصلح أوله - يريد الأنصار - فدعا عبادة بن الصامت فعقد له ، ففتح الله على يديه الإسكندرية في يومه ذلك (١) .

وهذه مشورة صادقة ، ورأي صائب ، فإن القائد العام الذي هو المسئول الأول عن الجيش لايكون همُّه الأول هو الإقدام المندفع، بقدر ما يكون همه الحفاظ على مركز القيادة ، حتى لايكون عرضة للاجتياح من الأعداء ، فيكون سببا في حصول الخلل في الجيش، فإذا أناب القائد العام من يتولى عنه القيادة المباشرة ممن يشتهرون بالشجاعة

---

(١) فتوح مصر / ٦٠-٦١ .

والتجرد ، فـإن الشيء الذي سيشغل بال هذا القـائد هو الإقدام بقوة للحصول على النصر ، لأن إصابـته لاتعني إصابة الجيش، ولا وقوع الخلل فيه .

هذا وإن تنازل عمـرو بن العاص عن القـيادة لعبـادة بن الصامت يشبـه تنازل أبي عبيـدة بن الجراح في اليرمـوك ، حينما أسند القـيادة لخالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين .

وهذا التنازل يدل دلالة واضحة علـى أن أولئك الصحابة لم يكن هدفهم أن يبنوا أمجاداً لأنفـسهم ، ولا أن يخلّدوا ذكرهم، ولو كانوا يلاحظون هذا الهدف ماكان منهم هذا التنازل ، حتى لا يذهب شرف الانتصار لغيرهم .

وهذا التنازل مبـعثه شـعور القائد بأنه قـد استنفد كل طاقـته في القيادة ، ويرجو أن يَتمَّ ما استغلق من أمر الفتح على يَدَىْ من يتوسم بهم الخير ويتفاءل بصلاحهم ، فيلغي من حسابه ذاته وسمعته ليحافظ على أمر الأمة ومصلحتها .

ولو أن جـميع المسئـولين لاحظوا هذا الهـدف السامي فـأسندوا مهماتهم أو بعضها لغيرهم من أهل الكفاءة ، رجاء تحقق النجاح على أيديهم لتجنبت الأمـة كثيراً من أسبـاب الفشل ، ولتقدمت كـثيراً في معارج الكمال .

وفي الحقـيقـة فإن مَنْ صنع ذلك يكتـسب من السمعـة ثناء أهل الصلاح والعقول الراجحة ، وإن لم يقصد ذلك ، لأنهم سيكْبرون فيه زهده في الرئاسة والصدارة ، ويقدِّرون اهتمامـه الكبير بمصلحة أمته، ونجاح مهمته .

هذا وإني لاأريد أن أترك هذه الرائعة من السلوك العالي دون أن أنوه بموقف عمرو حينما ألح على عبادة بأن لاينزل عن فرسه وألبسه عمامته بيده وهو فوق فرسه ، وفي ذلك تكريم لأهل الفضل ، ورفع لمكانتهم في المجتمع ، وهو إضافة إلى ذلك يعتبر شاهداً حيًّا على ماكان يتصف به قادة المسلمين الأوائل من العقل الراجح ، والتواضع الجمّ .

ومما جاء في أخبار هذا الفتح ماأخرجه ابن عبد الحكم عن جنادة ابن أبي أمية قال : دعاني عبادة بن الصامت يوم الإسكندرية وكان على قتالها ، فأغار العدو على طائفة من الناس ، ولم يأذن لهم بقتالهم فسمعني فبعثني أحجز بينهم ، فأتيتهم فحجزت بينهم، ثم رجعت إليه فقال : أَقُتِل أحد من الناس هنالك ؟ قلت: لا، قال: الحمد لله الذي لم يقتل أحد منهم عاصيا [1] .

وهذا يعني أنهم استمروا في الهجوم على الأعداء ولم يكتفوا بالدفاع، وهذا الأمر لابد فيه من إذن القائد، وقد حكم عبادة على من فعل ذلك بالعصيان وحمد الله تعالى أنهم لم يموتوا على ذلك، وهذا يدل على مقدار اهتمام قادة المسلمين بتنظيم أمور الجيش ومن ذلك لزوم طاعة القائد واستئذانه في أي عمل يُقدم عليه الجنود ، وقد تقدمت لنا أمثلة تبين النتائج السيئة المترتبة على معصية القائد، أو التصرفات الفردية .

---

(١) فتوح مصر / ٦١ .

رسول من عمرو إلى أمير المؤمنين بالفتح :

هذا وقد بعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافدًا إلى عمر ابن الخطاب بشيرًا بالفتح فقال له معاوية : ألا تكتب معي؟ فقال له عمرو : وما أصنع بالكتاب ؟ ألست رجلا عربيًا تُبَلِّغ الرسالة ومارأيت وحضرت ؟ فلما قدم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية فخرَّ عمر ساجدًا وقال : الحمد لله .

ذكره ابن عبد الحكم ، ثم ذكر عن معاوية بن خديج أنه قال: بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية ، فقدمت المدينة في الظهيرة ، فأنخت راحلتي بباب المسجد، ثم دخلت المسجد فبينا أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب فرأتني شاحبًا عليَّ ثياب السفر، فأتتني فقالت : من أنت ؟ قال: فقلت : أنا معاوية بن خديج رسول عمرو بن العاص، فانصرفت عني، ثم أقبلت تشتَدُّ أسمع حفيف إزارها على ساقها- أو على ساقيها - حتى دنت مني فقالت: قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك، فتبعتها ، فقال : ما عندك ؟ فقلت : خير ياأمير المؤمنين فتح الله الإسكندرية ، فخرج معي إلى المسجد، فقال للمؤذن، أذِّن في الناس، الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، ثم قال لي : قم فأخبر أصحابك ، فقمت فأخبرتهم ، ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ، ثم جلس فقال: ياجارية هل من طعام؟ فأتت بخبز وزيت، فقال : كل فأكلت على حياء ، ثم قال : كل ، فإن المسافر يحب الطعام ، فلو كنت آكلا لأكلت معك ، فأصبت على حياء، ثم

قال: ياجارية هل من تمر ؟ فأتت بتـمر في طبق فقال : كل ، فأكلت على حيـاء ، ثم قال : ماذا قلت يامـعاوية حين أتيت المسجـد قال: قلت أمير المؤمنين قائل - أي نائم في الظهـيرة - قال : بئس ماقلت- أو بئس ماظننت - لئن نمت النهار لأضـيِّعَنَّ الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يامعاوية [١] .

ومن هذا الخبـر نستنتج أن المسجـد في عصر الإسـلام الأول كان يمثِّل أهم وسائل الإعلام ، حيث يجتـمع المسلمون فيه بنداء : الصلاة جامـعة ، وهذا النداء يعني أن هناك أمراً مـهمًّا سـيتم إبلاغه لعـموم المسلمين فإذا اجـتمعـوا أُلقيت عليهـم البيانات العـسكرية ، والأمور السياسية والاجتماعية وغير ذلك .

وإذا كان الفكر قد يجنح إلى أن هذه هي الوسـيلة المتاحة لهم في ذلك الوقت ، فينبغي أن لانَغفَل عن ملاحظة مهمة وهي مايضفيه جو المسـجد الروحي من ضـرورة الالتزام بمكارم الأخـلاق ، والبعـد عن مساوئهـا ، فليس من المتوقع ممن قام يلقى بيانًا ، أو يصـدر تعليمات في المسـجد أن يقع منه الكذب والتـزوير ، ولا أن يغتنم غـفلة الناس ليصوغ تصوراتهم كما تملي عليه أهواؤه ومصالحه الخاصة، أو مصالح من يعملون معه ، أو يعمل لصالحهم .

وهذا لايعني أن الصحابة رضي الله عنهم لو أذاعـوا هذه البيانات ونحوها خارج المسجد لوقع منهم التـزوير والتضليل فإن إيمانهم القوي يحمـيهم من ذلك ، ويصاحبـهم حيثمـا حلوا وأينما ارتحلوا ، ولكن

---

(١) فتوح مصر / ٦٢ .

المسجد يعتبر وسيلة من وسائل الضمانات التي تساعد على الالتزام بمكارم الأخلاق .

كما نستفيد من هذا الخبر وصفًا لحياة عمر رضي الله عنه وهو خليفة المسلمين ، حيث يقول لمعاوية بن خديج ، لئن نمتُ النهار لأضيعنَّ الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعنَّ نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يامعاوية .

وهذا يدل على كمال اليقظة لحق النفس وحقوق الآخرين ، وإذا استطاع المسلم أن يجمع بين مراعاة ذلك كله فإنه يكون من المتقين المحسنين .

فالليل فرصة عظيمة للعمل الصالح ، فإن كثرة الصلاة تزيد من الحسنات ، وترفع رصيد المؤمن عند ربه تعالى يوم القيامة، كما أنها تُقَوِّي قلبه على تحمل الشدائد والمشكلات التي يواجهها مع الناس في النهار ، فلابد لكل مسلم ، وخاصة مَنْ يتحمل مسئوليةً في أمته أن يتزوَّد بالصلاة ، وكلما كان زاده منها أكبر كان احتماله لمواجهة الناس أقوى ، ولذلك قرن الله سبحانه بين أمر نبيه ﷺ بقيام الليل والإخبار بضخامة المسئولية المنوطة به حيث يقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (١) .

والنهار فرصة للعمل الصالح من ناحية أداء المسئولية التي تحملها المسلم نحو إخوانه المسلمين ، بأن يؤدي حقوقهم كاملة ، وكلما زادت

(١) سورة المزمل /١- ٥ .

حساسية المسلم نحو شعوره بالمسئولية فإنه يضاعف من عمله ، حتى لا يستطيع أن يجد إلى الراحة سبيلا .

وأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يشير بقوله هذا إلى هذه المعاني وغير ذلك مما يدركه بحسه الإيماني القوي، ولاشك أنه قد بلغ الدرجات العُلَى في مراعاة المسئولية وأداء حقوق الناس .

هذا وفي هذا الخبر وما سبقه ما يفيد بأن الإسكندرية فتحت عنوة، ولكن جاء في روايات أخرى مايفيد بأنها فتحت صلحًا، من ذلك ماجاء في رواية أخرجها الإمام الطبري من طريق محمد بن إسحاق عن زياد بن جَزْء الزبيدي – وكان في جند عمرو بن العاص – وقد جاء في هذه الرواية أن صاحب الإسكندرية عرض على عمرو أن يدفع إليه الجزية في مقابل أن يرد عليه ما أصاب المسلمون من سبايا أرضه، ، وأن عمرًا راسل في ذلك أمير المؤمنين وأن عمر أجابه بقوله: أما بعد فإنه جاء في كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن تردَّ عليه ما أصيب من سبايا أرضه، ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إليَّ من فئ يقسم ، ثم كأنه لم يكن ، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيِّروا من في أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومه فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين ، له مالهم وعليه ماعليهم ، ومن اختار دين قومه وُضع عليه من الجزية مايوضع على أهل بيته ، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإنا لانقدر على ردِّهم ولانحب أن نصالحه على أمر لانفي له به .

قال : فبعث عمرو إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذي كتب به أمير المؤمنين، قـال : فقال : قد فعلتُ ، قال : فجـمعنا مافي أيدينا من السبايا واجتمـعت النصارى ، فجعلنا نأتي بالرجل ممن في أيدينا، ثم نخيِّره بين الإسلام والنصرانية ، فإذا اختار الإسلام كبَّرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين تُفْتَح القرية، قال: ثـم نحوزه إلينا، وإذا اختـار النصرانيـة نَخَرت النصـارى ثم حازوه إليـهم، ووضعنا عـليه الجـزية، وجزعنا من ذلك جـزعًا شـديدًا حـتى كأنه رجل منا خـرج إليهم، قال : فكان ذلك الدَّأب حتى فرغنا منهم .

وقد أُتِي فيمن أتينا به بأبي مريم عـبد الله بن عبد الرحمن - قال القاسم : وقد أدركـته وهو عريف بني زبيد - قال : فوقـفناه فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية - وأبوه وأمـه في النصارى - فاختار الإسلام فَحُـزْناه إلينا - ووثب عليه أبوه وأمه وإخـوته يجاذبوننا حتى شقـقوا عليه ثيابه ، ثم هو اليوم عريفنا كما ترى (١) .

وإن هذا يعتبر شاهد صدق على مـاكان عليه الصحابة رضي الله عنهم من العزوف عن الدنيا والإقبال على الآخـرة ، والرغبة الصادقة في هداية العـالمين إلى الإسـلام ، فـإن دخول الأسـرى في الإسـلام لايفيـد المسلمين شيئًا من الدنيـا . وبقاؤهم على دينهم يتضـمن فائدة دنيوية لهم حيث يُلزَمون بدفع الجزية للمسلمين ، ومع ذلك نجد عمر رضي الله عنه يأمر بتخيير الأسرى بين الإسلام أو دفع الجزية .

وحينـما تم تطبيق ذلـك كان الصحـابة ومن معـهم من المسلمين

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٠٥ .

يكبِّرون تكبيراً أشد من تكبير الفتح حينما يختار أولئك النصارى دين الإسلام، ويجزعون جزعًا شديدًا حينما يختارون البقاء على دينهم، حتى كأن أولئك الأسرى من ضمن جماعة المسلمين وخرجوا عن دين الإسلام .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن بقاء الكفار على دينهم ورضاهم بدفع الجزية كان هو الخيار الاضطراري عند المسلمين، وأنهم كانوا يفضلون عليه دخول الكفار في الإسلام ويتحمسون لذلك .

وكونهم يجزعون حينما يختار الأسرى البقاء على دينهم مع دفع الجزية دليل على أن المسلمين كانوا يفهمون جيدًا أن استرقاق هؤلاء السبي لايعني إذلالهم ولااستخدامهم ، وإنما يعني تهيئة الجو الملائم لهم ليتفهموا الإسلام حيث يعيشون فترة من الزمن في بيوت المسلمين، فيشاهدون صلواتهم وأخلاقهم العالية ، مع مايؤملون من عتقهم إذا أسلموا فيكون مجموع ذلك دافعًا لهم إلى الدخول في الإسلام .

وتعبير الراوي عن مشهد اختيار أولئك لدينهم بقوله « وجزعنا من ذلك جزعًا شديدًا حتى كأنه رجل خرج منا إليهم » دليل على أن أولئك المؤمنين المتقين قد قطعوا مراحل في محاولة إدخال أولئك النصارى في الإسلام ، فكأنهم انتُزِعوا منهم وقد أوشكوا على بلوغ مقاصدهم من دعوتهم .

وكون بعضهم قد اختار الإسلام دليل على سرعة تأثير أولئك المسلمين في اجتذاب الكفار إلى الإسلام ، حيث لم يمض إلا وقت قليل بين أسرهم ودخولهم في الإسلام .

وإننا لنستطيع أن نعرف اتصاف الصحابة رضي الله عنهم بخلق الوفاء من قول عمر رضي الله عنه في كتابه « فأما من تفرق من سَبيهم بأرض العرب ، فبلغ مكة والمدينة واليمن فإنا لانقدر على ردهم ، ولانحب أن نصالحه على أمر لانفي له به » فعمر رضي الله عنه ينظر إلى الوفاء بالعهد قبل إبرام الاتفاق مع الأعداء، حتى لايكون المسلمون في وضع لايستطيعون فيه الوفاء ، وهذا الخلق يعتبر مرحلة عالية في الوفاء ، لأن من يبرم اتفاقية على أمر ثم لايستطيع الوفاء به يكون معذورًا ، ولكن حينما يفكر بعمل الاحتياطات اللازمة لموضوع الوفاء بالعهد حتى لايجد نفسه بعد ذلك عاجزًا عن الوفاء، فهذا نهاية التدبير ، وغاية النظر الثاقب .

وما جاء في هذه الرواية من ذكر أبي مريم بن عبد الرحمن الذي كان نصرانيًا فأسلم ، ثم رفعه إسلامه بعد ذلك إلى أن أصبح عريفًا على قبيلة بني زبيد العربية، يدل دلالة واضحة على تجرد المسلمين آنذاك من العصبية ، وأن مقياس الكرامة في الإسلام الذي شرعه الله تعالى بقوله ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ (١) كان مطبقا في عصور الإسلام الزاهرة .

وهذا الخبر يفيد بأن الإسكندرية فتحت صلحا ، والجمع بينه وبين النصوص المتقدمة التي تفيد بأنها فتحت عنوة أن نتائج الحروب كانت لصالح المسلمين ، وأن رواة المسلمين سمَّوا النصر الأخير فتحًا ، وأنه لما رأى ذلك صاحب الإسكندرية وأدرك أن بلاده ستفتح عرض الصلح

---

(١) سورة الحجرات / ١٣ .

المذكور ، فتسامح معه المسلمون وقبلوا ذلك ، لأن المفترض أن يكون الصلح قبل القتال ، وقد مر علينا سابقًا في فتح مصر أن عمرو بن العاص قبل الصلح بعد القتال ، وأن بعض الصحابة عارضوه في ذلك ولكن أقره على ذلك عمر رضي الله عنهم أجمعين .

هذا وبفتح الإسكندرية تم فتح جميع البلاد المصرية ، وكانت آنذاك أبرز بلادها .

وإن الذي يتأمل في فتح مصر يجد المسلمين عاملوا أهل تلك البلاد بالرفق واللين أكثر مما عاملوا غيرهم ، وقد تقدم أن النبي ﷺ أخبرهم بفتح مصر وأوصاهم بأهلها خيراً وذكر أن لهم ذمة ورحمًا، ولاشك أن الصحابة كانوا يلاحظون ذلك .

هذا إضافة إلى أن أهل البلاد من الأقباط كانوا يميلون إلى المسلمين ، ويرون فيهم سببًا للخلاص من عسف الروم وجبروتهم، ولذلك لم يكن في مصر بعد الفتح مشكلات انتقاض وقلاقل ، وكان عمرو بن العاص يكرم كبراءهم ويهتم بهم كما جاء في بعض الروايات.

ولما انتهى عمرو من فتح الإسكندرية استأذن أمير المؤمنين عمر في أن يجعل منها دار الإمارة لتوفر المباني بها ، ولكن عمر أبى عليه ذلك، وأمره أن يجعل دار الإمارة دون نهر النيل حتى لايحول بينه وبين دار الخلافة نهر ولا بحر ، فانتقل إلى مكان إقامته حينما كان محاصراً حصن باب اليون ، وابتدأ بإنشاء مدينة الفسطاط التي سمِّيت بذلك من فسطاط عمرو الذي تركه من أجل الحمامة التي فرخت فيه.

موقفان لأمير المؤمنين عمر :

جاء في رواية لابن عبد الحكم : وبنى عمرو بن العاص المسجد، وكان ماحوله حدائق وأعنابًا ، فنصبوا الحبال حتى استقام لهم ، ووضعوا أيديهم فلم يزل عمرو قائمًا حتى وضعوا القبلة ، وإن عَمْرًا وأصحاب رسول الله ﷺ وضعوها ،واتخذ فيه منبراً .

فكتب إليه عمر بن الخطاب: أما بعد فإنه بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين، أوَمَا بَحسْبك أن تقوم قائمًا والمسلمون تحت عقبيك ، فعزمت عليك لما كسرته (١) .

هذا ولعل المنبر الذي صُنع لعمرو كان عاليًا ، فلفت نظر عمر حينما بلغه ذلك فخشى أن يُداخل من صعده شيء من الكبر، أو يقع في قلوب بعض المستمعين شيء من اتهامه بذلك ، وإلا فإن المنبر قد صُنع لرسول الله ﷺ ، ولكن لم يكن عاليًا ، إذ كان ثلاث درجات فقط .

وفي هذا دلالة على اهتمام عمر رضي الله عنه بمشاعر المسلمين وحقوقهم،وهذا مثل من أمثلة محاولاته الدائمة لإزالة الفجوات والفوارق بين الحكام والمحكومين،لئلا يطغى حاكم فينخدع بمظاهر التعظيم والرفعة،فيحتجب عنه أهل العقول الكبيرة والإيمان القوي، ويحاول التقرب إليه والهيمنة عليه أصحاب العقول الصغيرة والإيمان الضعيف،ولئلا يضعف محكوم فينزوي عن طلب الحق والدفاع عنه.

وإذا كان عمر رضي الله عنه يأخذ ولاته بهذه الملاحظات الدقيقة

---

(١) فتوح مصر / ٦٨ .

مع أنه يتحرَّى أشد التحري في اختيارهم ومع كون أغلبهم من الصحابة ، فكيف بمن هم دونهم في العقل والدين بمراحل ؟

إن الملاحظة الدائمة للعلاقة بين الحكام والرعية تعتبر من أهم دعائم قوة الدولة الإسلامية ، وسرعة انتشارها في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين .

ولقد عرفنا من هذه الملاحظات والتحريات أن مهمة الحاكم لاتنتهي باجتهاده في اختيار الولاة الأكفاء ، بل تمتدُّ إلى المتابعة وإبداء الملاحظات النافعة .

وإذا كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد أخذ ولاته بذلك وحاسبهم حتى على الأمور التي لم يخطر ببالهم أثرها على الأمة، فإنه قد أخذ نفسه بذلك قبل أن يأخذ غيره، فحينما بعث إليه عمرو ابن العاص رضي الله عنه بقوله له : إنا قد اختططنا لك داراً عند المسجد الجامع ، فكتب عمر : أنَّى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر، وأمره أن يجعلها سوقًا للمسلمين (١) .

وهذا دليل على كمال ورع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وزهده في مظاهر الحياة الدنيا ، وإذا كان الكبار والزعماء هم الذين يترفَّعون عن أوحال الدنيا ، ومتاعها الزائل، فإن من دونهم من باب أولى أن يترفعوا عن ذلك .

* * *

---

(١) فتوح مصر / ٦٩ .

مواقف وعبر

فى خلافة

عثمان بن عفان رضى الله عنه

– استشهاد عمر واستخلاف عثمان رضي الله عنهما –

أخرج أبو زيد عمر بن شبة النميري بإسناده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن عـمر كان دخل بأبي لؤلؤة البيت ليـصلح ضَبَّة له، وكان نجـاراً نقاشـًا يصنع الأرحاء، فقـال أبو لؤلؤة : مُرْ سـيدي المغيرة بن شعبة يضع عني خراجي . فـقال : إنك لتكسب كسبًا كبيراً فـاصـبـر واتق الله ، هل أنت صـانع لـي رحًى ؟ قـال : نعم والله لأصنعن لك رحًى تتحدث بها العـرب . فقال عمر رضي الله عنه : أوعدني الخبيث ، وخرج إلينا فقـال لو قتلت أحدًا بسوء الظن لقتلت هذا العلج ، إنه نظر إليّ نـظرة لم أشكّ أنه أراد قتلـي فَقَلَّ مـامكث حتى طعنه [1] .

في هذا الخبـر بيان للسـبب الظاهري لإقدام أبي لـؤلؤة المجوسي على قتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .

وفيه مثل من ورع عمـر الشديد حيث لم يقتل ذلك الرجل الذي توعده مع أنه كافر ، بل إنه لم يسجـنه ولم يخرجه من المدينة ، وفيه أيضًا دلالة على قـوة توكل عمر وإيمـانه بقضاء الله تعـالى وقدره وأن جميع الأمور بيد الله سبحانه .

وأخرج الإمام البخاري خبر استشهاده من حديث عمرو بن ميمون قال في سيـاق حديثه : إني لقائم مابيني وبينه أحـد – يعني عمر في صلاة الفـجر – غداة أصيب وكـان إذا مرَّ بين الصفين قال : اسـتووا حتـى إذا لم ير فيـهم خللا تقدم فكبَّـر ، وربما قرأ سـورة يوسف أو

---

(١) تاريخ المدينة المنورة ٣/ ٨٩٣ .

النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فماهو إلا أن كبَّر فسمعته يقول : قتلني - أو أكلني الكلب وذلك حين طعنه، فطار العلج بسكين ذات طرفين ، لايمر على أحـد يمينًا ولاشمـالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشـر رجلا مات منهم سبـعة ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسـا فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحـر نفسه، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى ، وأما نواحي المسـجد فإنهم لايدرون غـير أنهم قد فـقدوا صوت عمر وهم يقولون : سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفـيفة ، فلما انـصرفوا قال : ياابن عـباس انظر من قتلني ، فـجال ساعـة ثم جاء فقـال : غلام المغيرة ، قـال : الصَّنَع ؟ - يعني الذي يصنع بيديه - قال : نـعم ، قال : قاتله الله لقد أمرت به مـعروفًا، الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام .

إلى أن قـال : وجاء رجل شاب فـقال : أبشـر يا أميـر المؤمنين ببشرى الله لك من صحبـة رسول الله ﷺ ، وقَدَمٍ في الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فـعـدلت ، ثم شـهادة ، قـال : وددت أن ذلك كفاف لا عليّ ولا لي ، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض ، قال : ردوا عليَّ الغـلام ، قـال :ياابن أخي ارفع ثوبك فـإنه أبقى لثـوبك وأتقى لربك(١) .

وقوله « وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي » مثل لآثار الخوف من الله تعالى بتـخيُّل الوقوع في شيء من التقـصير في أمر المسـئولية

---

(١) صحيح البخاري رُقم ٣٧٠٠ (٥٩/٧) .

فيود لو أن أجـر الولاية قوبل بما يحتمل أن يكون وقع فيه من تـقصير فيخرج منها كفافًا لا له ولا عليه .

وإذا كان عـمر يشعر بهـذا الشعور وهو الذي ضُـرب بعدله المثل وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة فكيف ممن هم دونه في العدل بمراحل ولم يظفروا بمثل هذه الشهادة من الصادق المصدوق ﷺ .

وإنه لعجب من عـمر وهو في تلك الساعـات العصيبـة أن يبدي النصيحة ويغيِّر المنكر الذي رأى ذلك الشاب متلبسًا به ،فقد وعظه في إطالة ثوبه بأسلوب مؤثر جمع فيه بين الفائدة الدينية والدنيوية ، حيث بين أن تقصير الثوب طاعة لله تعالى يسلك بها صاحبها سبيل المتقين، وحفظ لـلثوب من الفناء ، حـيث إن ملامـسة الثوب للأرض تـدنسه وتعجل في بِلاه .

ثم قال عمر كما جاء في رواية البخاري المذكوره : ياعبد الله بن عمر انظر ما عليَّ من الـدّين ، فحسبوه فوجدوه سـتة وثمانين ألفًا أو نحوه، قال : إن وفى له مال آل عمر فأدِّه من أموالهم، وإلا فسَلْ في بني عدي بن كعب ، فإن لم تَفِ أمـوالهم فسل في قريش ولاتَعْدُهم إلى غيرهم فأدِّ عني هذا المال .

وهذا مثل من ورع عـمر رضي الله عنه وتقـواه فهـو الذي يقوم على رأس أعظم دولة في العـالم ، وقـد جُبـيَتْ إليه خـزائن الأرض ومغانم الفتوح العظيـمة ، ومع ذلك يموت مَدينًا، ويأبى أن يُسدَّد دينهُ من بيت مال المسلمين ، وإنما يأمـر ابنه عبد الله بأدائه من مـال أسرته فإن لم يف بذلك فليعرض القضية على عشيرته ثم على قبيلته .

وإنما تورع عمر عن أداء ذلك الدين من بيت مال المسلمين لأن فيه حقا لكل مسلم فلابد أن يأذن له في ذلك جميع المسلمين ، ومن الذي يضمن له أن جميع المسلمين راضون عن ذلك ؟ وهو لايريد أن يفارق الدنيا وقد تحمل في ذمته شيئًا من أموال المسلمين بغير رضاهم.

أما قرابته وقبيلته فهو يضمن أنهم لن يبذلوا إلا عن رضىً منهم فليس في الأمر شبهة .

وقد امتدت خلافته رضي الله عنه من العام الثالث عشر إلى نهاية العام الثالث والعشرين ، وكان عهده على طوله نسبيا عهد عمل وإنتاج متواصل، سواء في المجال الحربي أو المجال العمراني، فلقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهده حتى شملت العراق وبلاد فارس والشام ومصر ، وبهذا يكون المسلمون في عهده قد ضموا مملكة الفرس بجميع أطرافها إلى دولة الإسلام ، وهي الإمبراطورية الكبرى التي كانت تسيطر على المشرق ، كما ضموا أهم أقاليم دولة الروم وهما الشام ومصر ، وذلك بعد خوض عشرات المعارك التي كان النصر فيها حليف المسلمين إلا في القليل النادر .

وفي خلال هذه السنوات العشر الحافلة بالأعمال الجليلة كان الأعداء يبذلون كل ما يستطيعون من جهد لتدمير هذه الدولة الفتية التي أخذت تتسع بشكل لم يسبق له مثيل ، فلقد وجهت الدولتان العُظميان آنذاك كل طاقتهما القتالية لصد المسلمين فلم يفلحوا ، واتفقوا في عام واحد وهو العام الخامس عشر على حشد جميع مالديهم من جنود ليواجهوا المسلمين في وقت واحد ، فكانت معركة

القادسية واليرموك ، حيث شُغِل المسلمون بالإعداد لمواجهة تجمع الفرس الكبير لعدة أشهر ، ففاجأهم الروم بالحشود العظيمة السريعة التي التقت مع المسلمين في الشام في معركة اليرموك ثم كانت القادسية بعد ذلك .

ولقد جرت محاولات بعد ذلك من الفرس لحشد ما تبقَّى من قوتهم في مواجهة شاملة مع المسلمين ، وكان آخر الحشود الضخمة في نهاوند حيث قَضى عليها المسلمون .

خبر الشورى بين أهل الحل والعقد :

إن من أهم مواقف عمر رضي الله عنه التي ختم بها حياته ماقام به من تثبيت مبدإ الشورى بين أهل الحل والعقد ، وقد جاء في الرواية التي أخرجها الإمام البخاري من حديث عمرو بن ميمون : «فقالوا أَوْصِ ياأمير المؤمنين ، استخلف ، فقال : ماأجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر - أو الرهط - الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، فسمَّى عليًا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمن ، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء[1].

وهكذا جعل الخلافة شورى بين أفضل الأمة دينًا وهم الستة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ، ولم يُدخل معهم سعيد بن زيد مع أنه سابع السبعة الذين بقوا من العشرة المبشرين بالجنة بعد أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم . . لم يدخله معهم في هذا الأمر لأنه ابن عمه وزوج أخته ، وذلك مبالغة منه في الورع

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٣٧٠٠ (٥٩/٧) .

وإبعاد صلة القرابة من أن يـكون لها تأثير في اختيـار الخليفة ، وهذا من كمال عدله وورعه وبُعده عن شرف الدنيا وجاهها .

ولاشك أن عمر قد لاحظ في كل واحـد من هؤلاء الستة الكفاءة للقـيام بهذا الأمـر ، لأن الأفضليـة في الدين وحدها لاتكفـي لحمل مسئولية الأمة .

هذا وقد أحاط عمر رضي الله عنه أمر هذه الشورى بنظام يحمي هذا الأمر من التـفلت والفوضى ، فـمن ذلك أنه حصـر الشورى في هذا العدد المحدود ، وذلك أضمن لنجـاح هذا الأمر ، بخلاف ما لو جُعلت لعموم الأمة فإنه سيـدخل في حق الاختيار ضعفاء الإيمان من أصحاب الهوى ، وربما دخل المنافقون ، وإذا كان الرأي للأكثرية فربما يتغلب أصحاب الدنيا على أصحاب الآخرة فيحل الفساد في الأرض.

كما أنه حصر المدة التي يتم فيهـا اختيار الخليفة بثلاثة أيام وذلك أحزم للأمـر وأبعد من حـدوث تدخُّل من بعض أصـحاب الدنيـا قد يحدث بسببه فتنة بين المسلمين .

وحيث إنه قـد جَعل الرأي للأغلبية من أهل الشـورى فإنه أدخل معهـم ابنه عبد الله ليكون مرجـحًا لأحد الفريقين عند التـساوي وفي حال عـدم رضاهم بحكمه يكون الـترجيح للفـريق الذين معهم عـبد الرحمن بن عـوف كما جـاء في رواية المدائني أن عمـر قال لهم « إذا اجتمع ثلاثة عـلى رأي وثلاثة على رأي فحكِّموا عبـد الله بن عمر ، فإن لم ترضوا بحكمه فقدموا من معه عبد الرحمن بن عوف » (١) .

---

(١) فتح الباري ٧/ ٦٧ .

وهذا صريح في أن إدخال عبد الله بن عمر معهم للترجيح عند تساوي الأصوات، وإنما اختاره أمير المؤمنين عمر لهذه المهمة لما عُرف عنه من الزهد في الدنيا والتجرد الكامل لله تعالى ، وربما لأسباب أخرى يدركها عمر ويعلم أن في وجوده مايساعد على نجاح الأمر، كما أن ترجيح الجانب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف قد لاحظ فيه عمر ما يتصف به من الزهد في مناصب الدنيا والتجرد للآخرة .

أما أمر الشورى في اختيار الخليفة فإن الستة المذكورين اجتمعوا بعد الفراغ من دفن عمر رضي الله عنهم أجمعين، وقد جرت مواقف من الإيثار والرأي السديد تُسجَّل لهؤلاء العظماء .

فمن ذلك أنهم لما اجتمعوا تحدث عبد الرحمن بن عوف فقال كما جاء في رواية الإمام البخاري السابقة : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير : قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة : قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد : قد جعلت أمري إلى عبدالرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن : أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه ، والله عليه والإسلام لينظرنَّ أفضلهم في نفسه ؟ فأُسكت الشيخان فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إليّ والله عليّ أن لا آلُوَ عَن أفضلكم ؟ قالا : نعم ، فأخذ بيد أحدهما فقال : لك قرابة من رسول الله ﷺ والقَدَم في الإسلام ماقد علمت فالله عليك لئن أمَّرتك لتعدلنَّ، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك ، فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يدك ياعثمان، فبايعه، فبايع له عليّ وولج أهل الدار فبايعوه [1] .

---

(١) صحيح البخاري رقم ٣٧٠٠ (٧/ ٦١) .

وهذه الرواية فيها اختصار شديد حيث لم تذكر ماقام به عبدالرحمن بن عوف خلال الأيام الثلاثة، وقد جاء في رواية أخرى للبخاري الإشارة إلى ذلك ، وفيها قول المسور بن مخرمة : « حتى إذا كانت الليلة التي أصبحنا منها فبايعنا عثمان - قال المسور - طرَقني عبد الرحمن بعد هيعٍ من الليل ، فضرب الباب حتى استيقظت فقال: أراك نائمًا فو الله ما اكتحلتُ هذه الثلاث بكثير نوم » ثم أمره بدعوة بعض أهل الشورى .

وجاء في آخر الرواية « فلما صلى الناس الصبح واجتمع أولئك الرهط عند المنبر فأرسل إلى من كان حاضرا من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد - وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر - فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ، ثم قال : أما بعد ياعلي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلا، فقال - يعني لعثمان - أبايعك على سنة الله تعالى وسنة رسوله ﷺ والخليفتين من بعده ، فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس: المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون (١) .

هذا وإن ماقام به هؤلاء الصحابة الأربعة رضي الله عنهم من التنازل عن الخلافة إبتغاء وجه الله تعالى يعتبر موقفًا عظيمًا، أما تمسك عثمان وعلي رضي الله عنهما بحقهما في ذلك فهو محمول على أن كل واحد منهما يريد القيام بهذا العمل الصالح الذي يعتبر من أعلى الأعمال الصالحة وأشرفها حيث لايأتي من يساوي الخليفة في هذا العمل إذا قام بتبعاته وحذر من مغباته ، فالخليفة يعتبر هو القائد

(١) صحيح البخاري رقم ٧٢٠٧ (١٣/١٩٣) .

الأعلى لجميع المجاهدين في دولة الإسلام ، وأي فتح يتم بتوجيهه فله منه حظ ونصيب ، إضافة إلى قيامه بالعدل بين الناس وإثابة المحسن وعقوبة المسيء، وإقرار دولة الإسلام في الأرض .

ولكن مواقف الصالحين تختلف نحو هذا الأمر كما اختلفت مواقف أصحاب الشورى هنا ، فمنهم من يغلِّب جانب السلامة من المآثم خشية عدم المقدرة على القيام بكل مطالب الولاية، ومنهم من يغلب جانب الطموح نحو المعالي في الأعمال الصالحة مع رجاء التسديد والتوفيق من الله تعالى .

والذي يدفع أصحاب الصلاح غالبًا إلى قبول الولاية كونهم يحملون في أفكارهم مشاريع خيِّرة نحو الإصلاح وإعزاز الإسلام، ويخشون إن تولاها غيرهم لم يحقق هذه الأماني السامية .

هذا وتجدر الإشارة بشكل خاص بجهود عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، فقد كان رجل الموقف حيث أشار عليهم بأن يجعلوا أمر الشورى لثلاثة منهم ، وذلك بالتنازل عن حقهم في هذا الأمر، وفي ذلك حصر لأمر الخلافة وهو أدعى للنجاح في اختيار الخليفة.

ولما تم التنازل وكان عبد الرحمن بن عوف أحد المرشحين تنازل عنها ليقوم بعملية الاختيار ، وقد قام بها خير قيام ، حيث ظل ثلاثة أيام يأخذ آراء أهل الرأي من المسلمين ، فلما رأى أن أغلبهم يرشح عثمان عزم على أخذ البيعة له ، فبايعه أهل الشورى بغير تردد ولاامتناع ، ثم بايعه وجهاء المسلمين وعامتهم في المدينة رضي الله عنهم أجمعين .

* * *

- من مواقف عثمان بن عفان رضي الله عنه -

استفتح الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه خلافته بعدة كتب ، فكتب إلى ولاة الأمصار ، وإلى قادة الجنود، وإلى المسئولين عن جباية الأموال، وإلى عامة المسلمين .

كتابه إلى الولاة :

ذكر هذا الكتاب الإمام ابن جرير الطبري فيما يرويه عن شيوخه قالوا : وكان أول كتاب كتبه عثمان إلى عماله :

أما بعد : فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإنَّ صدر هذه الأمة خُلقوا رعاة ، لم يخلقوا جباة، وليوشكنَّ أئمتكم أن يصيروا جباة ولايكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء ، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم مالهم ، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تُثَنُّوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدوُّ الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء [1] .

وفي هذا الكتاب أشار عثمان رضي الله عنه إلى بيان مهمة الولاة الذين يلون أمور المسلمين ، حيث بين أنهم رعاة ، ومهمة الرعاة حفظ رعاياهم والعناية بهم وبذل الجهد في صلاح أمورهم في الدنيا والآخرة ، وليسوا جُباة لأموالهم، بل هم مستأمنون على تلقي موارد الدولة المالية وصرفها بأمانة وعدالة .

ونبه على ماسيكون عند تغير الولاة من رعاة إلى جباة ، بأن ذلك

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٤ - ٢٤٥ .

سبب في تقلص مكارم الأخلاق التي مثَّل لها بالحياء والأمانة والوفاء، وذلك أنَّ بين الراعي والرعية خيطًا ساميا من العلاقات المتينة، يؤكده ويثبته اتفاق الجميع على هدف واحد ، وهو ابتغاء وجه الله تعالى، فالوالي يسعى لهذا الهدف بما يقدمه لرعيته من رعاية وعدالة، وأفراد الرعية يسعون لهذا الهدف بمايقدمونه لإمامهم من طاعة وولاء وأمانة ووفاء ، ويبقى خُلُق الحياء الذي أشار إليه عثمان يُظلُّ الجميع فيمنعهم من ارتكاب ما يُستقبح أو التعرض لجرح المشاعر والإيقاع في الحرج.

ثم يوصي عثمان ولاته بالعدل في الرعية ، وذلك بأخذ ماعليهم من الحقوق وبذل مالهم من ذلك ، ويشير إلى نقطة مهمة وهي أن الوفاء بالعهود من أهم أسباب الفتح والنصر على الأعداء ، وقد تقدمت لنا أمثلة تبين أثر هذا الخلق الرفيع في تفوق المسلمين الإداري والحربي .

كتابه إلى قادة الجنود :

قال ابن جرير : قالوا : وكان أول كتاب كتبه إلى أمراء الأجناد في الفروج (١) : أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يَغبْ عنا ، بل كان على ملإٍ منا ، ولايبلغْني عن أحد منكم تغيير ولاتبديل فيغيِّر الله مابكم ، ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه(٢) .

---

(١) يعني الأقاليم .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٥ .

وفي هذا الكتاب لفت نظر إلى أن الأمور لن تتغير بتغير الخليفة، لأن الخلفاء ومن دونهم من الولاة يسيرون على خط واحد ، وهو القيام بمهمة تطبيق الإسلام في واقع الحياة .

وقوله « وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنا بل كان على ملإ منا» إشارة إلى أن حكم أولئك الخلفاء يقوم على الشورى ، وذلك يترتب عليه أن جميع القضايا المهمة تكون معلومة بتفاصيلها عند أهل الحل والعقد، فإذا ذهب الحاكم وخلفه حاكم آخر سار على نفس المنهج لوضوح الهدف لدى الجميع .

وقوله « ولاتغيروا فيغير الله بكم » وَعْيٌ لسنن الله تعالى في هذا الكون، فمعية الله جل وعلا لأوليائه بالتوفيق والحماية والنصر مشروطة بلزومهم شريعته واستسلامهم لأمره، فإذا تغيروا في ذلك غيَّر الله مابهم واستبدل بهم غيرهم في الهيمنة والتمكين، وفي ذلك يقول الله سبحانه ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ** ﴾ (١) .

كتابه إلى الجُبَاة :

قال الإمام ابن جرير : قالوا : وكان أول كتاب كتبه إلى عمال الخراج : أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به ، والأمانةَ الأمانةَ ، قوموا عليها، ولاتكونوا أول من يُسلَبُها ، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ماكتسبتم ، والوفاءَ

---

(١) سورة الرعد / ١١ .

الوفاءَ، لاتظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم (١) .

ففي هذا الكتاب تذكير بالله تعالى لتكون رقابته هي المهيمنة على النفوس ، فيلتزم من ولاهم الله أمور أموال الأمة بالحق ويستقيموا عليه، فلا يأخذوا الأموال من مصادرها إلا بطريق حلال، وإذا أخذوها قاموا بحفظها بأمانة حتى يؤدوها في وجوهها المشروعة .

ثم يوصيهم بلزوم الأمانة ، ويذكرهم بأنهم إن سُلبوها فإنهم يتحملون مغبة فقدها في الدنيا والآخرة، ويشاركون في المآثم من تأسى بهم في ذلك .

ثم يوصيهم بالوفاء بأداء حقوق اليتامى والمعاهدين، ويذكِّرهم بأنهم إذا ظلموهم فإنهم معرضون لنقمة الله تعالى، لأنه خصم لمن ظلم هؤلاء المستضعفين .

وفي هذا لفتة إلى جانب من جوانب عظمة الإسلام حيث يدعو إلى نصر المظلومين وإن كانوا من الكفار المعاهدين .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٥ .

مواقف وعبر

فى

جهاد المسلمين فى المشرق وبلاد الروم

١ – مواقف جهادية في أذربيجان وبلاد الروم –

لقد ضاق الأعداء ذرعًا بالإطاحة بدولهم وانتقاض ممالكهم فأقدموا على التخطيط لزعزعة دولة الإسلام من داخلها، وكان أبرز مظاهر ذلك التخطيط إقدامهم على قتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لاعتقادهم بأنه هو المحرك الأقوى للجهاد الإسلامي، والمَعْلَم البارز لتماسك المسلمين في ظلال دولته القوية .

وقد ظهر بعد استشهاده واستخلاف عثمان رضي الله عنه مايؤيد ذلك ، حيث بدأت بعض الأقاليم بالانتقاض على المسلمين في بلاد الفرس، واستعدت دولة الروم لغزو المسلمين في الشام ومصر .

ومن الأخبار في ذلك ماروِاه الإمام الطبري من أن أهل أذربيجان انتقضوا على المسلمين ، وأن أمير الكوفة الوليد بن عقبة سار إليهم حتى وطئهم بالجيش فلما رأوا ذلك انقادوا وطلبوا إليه أن يَتِمَّ لهم على الصلح الذي كان صالحهم عليه حذيفة بن اليمان، ففعل وقبض منهم المال ، وكانوا قد حبسوا ذلك عند وفاة عمر (١) .

أما الروم فإنهم قد أجلبوا على المسلمين بجموع عظيمة، وقد كتب أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه إلى الوليد بن عقبة الوالي على الكوفة يقول له : أما بعد فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إليَّ يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة ، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه ، في ثمانية آلاف أو تسعة

---

(١) تاريخ الطبري ٢٤٧/٤ .

آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي والسلام.

فقام الوليد في الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: أما بعد أيها الناس فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاء حسنا - يعني في بلاد الفرس والمشرق - ردَّ عليهم بلادهم التي كفرت، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت، وردهم سالمين غانمين مأجورين، فالحمد لله رب العالمين ، وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم مابين العشرة آلاف إلى الثمانية آلاف، تمدون إخوانكم من أهل الشام، فإنهم قد جاشت عليهم الروم، وفي ذلك الأجر العظيم المبين، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلي، قال :فانتدب الناس فلم يمض ثالثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حبيب ابن مسلمة بن خالد الفهري، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهلي ، فشنُّوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ماشاؤوا من سبي ، وملئوا أيديهم من المغنم ، وافتتحوا بها حصونا كثيرة (١) .

وهكذا أثبت أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وولاته وقادة جنوده البواسل أن الدولة الإسلامية ماتزال قوية مرهوبة الجانب، حيث أخضعوا أعداءهم وقضوا على القلاقل التي حدثت في المشرق، ثم اتجهوا نحو الروم فأوقعوا فيهم خسائر جسيمة ، واثبتوا لأعداء الإسلام أن القضاء على قادة المسلمين لايعني شيئا مهما في إضعافهم ولو كان من توجهوا للقضاء عليه إمام المسلمين ، لأن قادة الإسلام

(١) تاريخ الطبري ٢٤٧/٤ .

وجنوده يجاهدون من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ، وليسوا مجبورين على القتال من حكامهم ، ولو كان المسلمون يتأثرون بفقد إمام أو قائد تأثرًا يشلّ حركة جهادهم لتأثروا قبل ذلك بفقد رسول الله ﷺ.

موقفان لحبيب بن مسلمة وزوجه :

هذا ومن الروائع التي رُويت في جهاد المسلمين مع الروم ماذكره الإمام الطبري من خبر قائد المسلمين حبيب بن مسلمة الفهري، وقد جاء في الخبر « وكان حبيب صاحب كيد ، فأجمع على أن يبيِّت المَوْريان » - يعني قائد الروم - فسمعَتْه امرأته أم عبيد الله بنت يزيد الكلبية يذكر ذلك ، فقالت له : فأين موعدك؟ قال : سرادق الموريان أو الجنة ، ثم بيَّتهم فقتل من أشرف له،وأتى السرادق فوجد امرأته قد سبَقَتْ،وكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها سرادق،ومات عنها حبيب ، فخلف عليها الضحاك بن قيس الفهري فهي أم ولده[1].

وقد عبَّر حبيب عن النصر على الأعداء بالوصول إلى سرادق«الموريان» باعتبار أن الوصول إلى مقر القائد يعني هزيمة الأعداء، وقد جعل لزوجته موعدا في الدنيا إن انتصروا على الأعداء، وهو اللقاء في مقر قيادة جيش الأعداء ، وجعل لها موعدًا في الآخرة إن ظفر بالشهادة ، وهو اللقاء في الجنة .

وهذا دليل واضح على أن من صفات الجيل الأول أنهم يجعلون هدفهم إحدى الحسنيين : إما النصر على الأعداء ، أو الظفر بالشهادة .

---

(١) تاريخ الطبري ٢٤٨/٤ .

وما قام به حبيب بن مسلمة دليل على براعته في التخطيط، حيث فاجـأ الأعداء بذلك الهـجوم الليلي المبـاغت ، وهو مثل علـى تفوق المسلمين الحربي ، ولم يكن الأعـداء على مستـوى المسلمين في الحذر والرصد الحربي ، فلذلك وقع الروم في الفشل وانهزموا .

أما امرأة حبيب فإنها كانت مثالا للمرأة المؤمنة الشاعرة بمسئوليتها أمام زوجها وأمام واجبها نحو أمتـها ، فقد كانت مشاركة لزوجها في مشاعره وأفكاره وتخطيطه في أهم عمل يقوم به في حياته، وهو جهاد الأعداء .

ولاشك أن سؤالهـا عن موعد اللقـاء ، وجواب حبـيب لها يدل على مشاركة سابقة في تصور طموحاته ومراحل عمله .

وإذا كـانت المرأة ذات كـفـاءة ، وشاركت زوجـهـا في المشـورة والتشجيع والمؤازرة فـإن إنتاج زوجها يكون مضاعفًـا لأنه سيعيش في نطاق عمله ليل نهار .

وإذا كـانت المرأة وهي التي تتصف عـادة باللين وإيثـار السلامـة والبعد عن المخاطر . . إذا كانت هي التي تدفع بزوجها - كهذه المرأة- إلى اقتحام الأهوال والدخول في المغامرات ، فإنها امرأة عظيمة حقا، ولاشك أن زوجها سـيكون مندفعًا لذلك بطاقتـه المعتادة مضافًـا إليها ماناله من تأييد وتشجيع من الجانب الذي يُنتظر منه ضد ذلك .

ولقد كـانت هذه المرأة عظيـمة أيضًا حـينما لم تـكتف بتشـجيع زوجهـا ودفعه إلـى بذل كل مايملك من جهـد في قتـال الأعداء، بل غامرت بنفسها حتى سبقت زوجها إلى سرادق قائد الروم .

٢ - فتح بعض بلاد خراسان -

استمرت الفتوحات في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقد ولَّى على البصرة عبد الله بن عامر بن كريز القرشي.

وقد سار ابن عامر سنة إحدى وثلاثين إلى خراسان ففتح أبْرَشهر وطوس وبيورَد ونَسَا ، حتى بلغ سَرَخْس ، وصالح فيها أهل مرو . ذكر ذلك الإمام الطبري (١) .

ثم ذكر رواية عن السكن بن قتادة العريني أن أهل خراسان جمعوا أربعين ألفا بقيادة « قارن » فسار إليهم عبد الله بن خازم وليس معه إلا أربعة آلاف ، وأمر الناس فحملوا الودك من سمن أو دهن أو زيت أو إهالة [وهي الودك المذاب] ، ثم سار حتى إذا أمسى قدَّم مقدمته ستمائة ، ثم اتَّبعهم ، وأمر الناس فأشعلوا النيران في أطراف الرماح، وجعل يقتبس بعضهم من بعض، وانتهت مقدمته إلى عسكر قارن، فأتوهم نصف الليل ، ولهم حرس فناوشوهم ، وهاج الناس على دَهش، وكانوا آمنين في أنفسهم من البيات ودنا ابن خازم منهم ، فرأوا النيران يمنة ويسرة ، وتتقدم وتتأخر ، وتنخفض وترتفع ، فلايرون أحداً ، فهالهم ذلك ، ومقدمة ابن خازم يقاتلونهم ، ثم غشيهم ابن خازم بالمسلمين ، فقُتل قارن، وانهزم العدو فاتبعوهم يقتلونهم كيف شاؤوا ، وأصابوا سبيا كثيراً (٢) .

وهكذا يتحفنا قادة المسلمون الأوائل بالخطط الحربية المتنوعة، مما

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٣١٤ - ٣١٥ .

يدل على أنهم كانوا قد اتخذوا الجهاد من أجل نصرة الإسلام قضيتهم الكبرى ، يعـيشون من أجلها ، ويموتون في سـبيلها ، فألهـمهم الله تعالى الخطط الملائمة للمقام .

ومما يلاحظ أن هذه الخطط النادرة لاتتوفـر للمسلمين إلا إذا كانوا في ضائقة من أمرهم ، فيلهـمهم الله تعالى إياها إنقاذًا لهم، وإعزازًا لهذا الدين .

ولهـذا فإننا نراهم يُقْـدمون ويـتوغلون في بلاد الأعـاجم مع قلة العَدد وضـآلة العُدد ، مـتوكلين على الله جل وعـلا ذاكرين مـعيّـته لأوليائه بالنصـر والتأييد ، مع بذل الجـهد في الأخذ بالأسـباب التي جعلها الله تعالى موصلة إلى غاياتها .

* * *

٣ - معركة في طخارستان -

أخرج الإمام الطبري عن مقاتل بن حيان قال: صالَح ابن عامر[١] أهل مرو وبعث الأحنف [٢] في أربعة آلاف إلى طخارستان فأقبل حتى نزل موضع قصر الأحنف من مرْورُوذ ، وجمع له أهل طخارستان وأهل الجوزجان والطالقان والفارياب فكانوا ثلاثة زحوف، ثلاثين ألفا، وأتى الأحنفَ خبرُهم وماجمعوا له فاستشار الناس فاختلفوا، فبين قائل : نرجع إلى مرو ، وقائل : نرجع إلى أبْرَشهر وقائل : نقيم نستمدّ ، وقائل : نلقاهم فنناجزهم قال : فلما أمسى الأحنف خرج يمشي في العسكر ، ويستمع حديث الناس ، فمر بأهل خباء ورجل يوقد تحت خزيرة أو يعجن ، [والخزيرة طعام يشبه العصيدة] وهم يتحدثون ويذكرون العدو ، فقال بعضهم ، الرأي للأمير أن يسير إذا أصبح حتى يلقى القوم حيث لقيهم فإنه أرعب لهم فيناجزهم، فقال صاحب الخزيرة أو العجين : إن فعل ذلك فقد أخطأ وأخطأتم ، أتأمرونه أن يلقى حدّ العدو مُصحرًا في بلادهم ، فيلقى جمعًا كثيرًا بعدد قليل ، فإن جالوا جولة اصطلمونا ! ولكن الرأي له أن ينزل بين المَرغاب[٣] والجبل ، فيجعل المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره ، فلا يلقاه من عدوه وإن كثروا إلا عدد أصحابه .

فرجع الأحنف وقد اعتقد ماقال،فضرب عسكره وأقام، فأرسل

---

(١) هو والي البصرة عبد الله بن عامر القرشي .

(٢) هو الأحنف بن قيس التميمي .

(٣) المرغاب نهر بمروا الروذ كما ذكر البلاذري في فتوح البلدان .

إليه أهل مرو يعرضون عليه أن يقاتلوا معه، فقال: إني أكره أن أستنصر بالمشركين فأقيموا على ماأعطيناكم وجعلنا بيننا وبينكم، فإن ظفرنا فنحن على ماجعلنا لكم، وإن ظفروا بنا وقاتلوكم فقاتلوا عن أنفسكم.

قال : فوافق المسلمين صلاةُ العصر، فعاجلهم المشركون فناهضوهم فقاتلوهم ، وصبر الفريقان حتى أمسوا .

ثم ذكر في رواية أخرى أنهم استمروا في القتال ليلا حتى ذهب عامة الليل ، ثم هزمهم الله (١) .

في هذا الخبر نجد الأحنف بن قيس مع ما اشتهر به من الرأي وحصافة التفكير يجمع أهل الرأي فيستشيرهم ، وهو بذلك يطبق حكمًا شرعيًا قد أمر الله تعالى به نبيه ﷺ مع أنه معصوم حيث يقول **﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾** (٢) فمن باب أولى أن يكون هذا الحكم ساريًا على قادة المسلمين وولاتهم .

ومع ذلك نجد الأحنف لايكتفي بتلك الشورى بل يقوم من الليل ويدور على خيام الجند علَّه يسمع رأيًا جديدًا مفيدًا يأخذ به ، فقد دلَّته التجارب على أن بعض العامة يُلهمهم الله آراء سديدة، وهذه الآراء تظهر غالبًا عند التحاور وتبادل الرأي ، وقد يوصلون الرأي المختار لقائدهم وقد لايفعلون ذلك .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٣١١ - ٣١٢ ، فتوح البلدان / ٥٧٢ .

(٢) آل عمران / ١٥٩ .

ونجـد الأحنف وهو القائد المحنَّك لايـنتظر احتـمال وصـول هذه الآراء إليه وهو في مركز القيادة بل يحـمل نفسه على التجول ليلا علَّه يسمع رأيًا مفيدًا يحل مشكلة المسلمين .

والخطة الحربية التي استفدناها من هذا الخبر هي أن الجيش إذا كان عدده قليلا وعدد عدوه كثيـرًا عليه أن يلجأ إلى مكان محصور بحيث لايأتيه العدو إلا من جـهة واحدة والمختار أن يـكون المكان غير واسع بحيث لايصل إلى الجيش إلا القدر المناسب لعدده .

وهكذا فعل الأحنف فأخذ بهـذه الخطة فنجح وانتصر على أعدائه في تلك المعركة .

هذا وقد بعث الأحنف بن قيس طائفة من الفـرسان بقيادة الأقرع ابن حابس إلى الجوزجـان، إلى بقية كانت بقـيت من الزحوف الذين هزمهم الأحنف، فقـاتلهم ، فجال المسلمون جولة، فقُـتل فرسان من فرسانهم فقال كُثَير النهشلي :

سقى مُزْن السحاب إذا استهلَّت

مصـارع فتـية بالجُـوزجــان

إلى القصرين من رُستاق خُـوطٍ

أقـادهـمُ هنـاك الأقـرعـان (١)

ونحن مع كثير النهشلي فنقـول : كم ضمَّت الأرض في مشارقها ومغاربها من شهداء المسلمين الـذين عَبَقت الأرض بروائحهم الزكية،

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٣١٢ .

وأصـبحـوا شاهداً حـيّـا على مدار التـاريخ على عظمـة المسلمين ، واستـعدادهم العـالي للتضـحية بأنفـسهم وأمـوالهم في سبـيل إعزاز دينهم.

إن الدولة الإسلامية التي حكمت أكـثر بلاد العالم عدة قرون إنما بُنيت ونَمَتْ على دمـاء أولئك الشهـداء الأبرار ، وما أنتجـته عـقول أولئك القادة الأخيار .

* * *

مواقف وعبر

فى

جهاد المسلمين فى المغرب

١- فتح مدينة سبيطلة في أفريقية -

ذكر ابن الأثير أن عثمـان بن عفان رضي الله عنه ولَّى على مصر وماوراءها من أفريقية عبد الله بن سعد بن أبي السرح .

ثم إن عبد الله بن سعد لما ولِي أرسل إلى عثمان في غزو أفريقية والاستكثار من الجموع علـيها وفتحها، فاستـشار عثمان من عنده من الصحابة فأشـار أكثرهم بذلك، فجهز إليه العسـاكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة منهم عـبد الله بن عباس وغيره، فسار بهم عبد الله بن سعد إلى أفريقية ، فلمـا وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع فيـمن معه من المسلمـين وكانوا بها وسـاروا إلى طرابلس الغرب فغنموا ممن عندها من الروم ، وسار نحـو أفريقية وبث السرايا في كل ناحية وكان ملكهم اسمه جرجير ومُلْكه من طرابلس إلى طنجة .

وكان هرقل ملك الروم قد ولاه أفريقية فهو يحمل إليه الخراج كل سنة ، فلما بلغه خبر المسلمين تجهـز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مـائة ألف وعشرين ألف فارس، والْتـقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سبيطلة يوم وليلة ، وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك فأقاموا هناك يقتتلون كـل يوم، وراسله عبد الله بن سعد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية فامتنع منهما وتكبر عن قبول أحدهما .

وانقطع خبـر المسلمين عن عثـمان فسـيَّر عبد الـله بن الزبير في جماعة إليهم لـيأتيه بأخبارهم فسار مُجداً ووصل إلـيهم وأقام معهم، ولما وصل كثر الصيـاح والتكبير في المسلمين فسأل جرجـير عن الخبر فقيل قد أتاهم عسكر ففتَّ ذلك في عضده، ورأى عبد الله بن الزبير

قتـال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهـر فإذا أُذِّن بالظهـر عاد كل فريق إلى خيامـه، وشهد القتال من الغد فلم يَرَ ابـن أبي سرح معهم فسأل عنه فقـيل إنه سمع منادي جرجير يقول : من قـتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي وهو يخاف، فحضر عنده وقال له : تأمر مناديًا ينادي من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، ففـعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله .

موقف لعبد الله بن الزبير :

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعـبد الله بن سعد : إنَّ أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد مـتصلة وبلاد هي لهم ونحن مـنقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غدًا جـماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم مـتأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملوا فإذا رجعـوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان فـي الخيـام من المسلمين ولم يشهـدوا القتـال وهم مسـتريـحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقـوه على ذلك، فلما كان الغد فعل عبد الله ماتفـقوا عليه وأقـام جميعُ شُـجعان المسلمين في خـيامهم وخـيولُهم عندهم مسرجة، ومـضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهـر قتالا شديدًا فلمـا أُذِّن بالظهـر همَّ الروم بالانصـراف على العـادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالـقتال حتى أتعبهم، ثـم عاد عنهم هو والمسلمون فكل الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تَعَبًـا ، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحًا من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا

بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، وقُتل جرجير قتله ابن الزبير ، وانهزم الروم وقُتل منهم مقتلة عظيمة وأُخذت ابنة الملك جرجير سبية .

ونازل عبد الله بن سعد المدينة فحصرها حتى فتحها ورأى فيها من الأموال مالم يكن في غيرها فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار ، ولما فتح عبد الله مدينة سبيطلة بث جيوشه في البلاد فبلغت قفصة فسبوا وغنموا وسيَّر عسكرا إلى حصن الأجم، وقد احتمى به أهل تلك البلاد فحصره وفتحه بالأمان فصالحه أهل أفريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار ونفل عبد الله بن الزبير ابنة الملك وأرسله إلى عثمان بالبشارة بفتح أفريقية (١) .

هذا ولقد كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما موقفًا عظيمًا في البطولة والشجاعة وقد ذكره الحافظ ابن كثير حيث قال : لما قصد المسلمون وهم عشرون ألفًا أفريقية ، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وفي جيشه عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير، صمد إليهم ملك البربر جرجير في عشرين ومائة ألف، وقيل في مائتي ألف، فلما تراءى الجمعان أمر جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالةً، فوقف المسلمون في موقف لم يُرَ أشنع منه ولا أخوف عليهم منه.

قال عبد الله بن الزبير : فنظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب على برذون ، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٤٥ - ٤٦ .

فذهبت إلى عبد الله بن سعد بن أبي سـرح فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري، وأقصد الملك، فجهز مـعي جماعة من الشجعان قال: فأمـر بهم فَحَمـوا ظهري وذهبت حتـى خرقت الصفـوف إليه، وهم يظنون أني في رسالة إلى المـلك، فلما اقتربـت منه أحس مني الشر، ففـرَّ على برذونه فلحقته فطعـنته برمحي، وذففت - يعني أجـهزت- عليه بسيفي ، وأخذت رأسه فنصـبته على رأس الرمح وكبرت ، فلما رأى ذلك البربر فَرِقُـوا وفرُّوا كَفرار القطا ، واتبعـهم المسلمون يقتلون ويأسرون فغنموا غنائـم جمة وأموالاً عظيمة ، وسبـيًا عظيمًا، وذلك ببلد يقال له « سبيطله » - على يومين من القيروان - .

قال : فكان هذا أول مـوقف اشتهـر فيه أمـر عبد الـله بن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه وأصحابهما أجمعين [1] .

هذا وإن ماقـام به عبد الله بن الزبير رضـي الله عنهما يعتـبر في غاية الشـجاعـة والجسارة ، حـيث اخترق صـفوف الأعـداء ثم انتزع مَلِكهم من بين أيديهم فقتله وهم يشاهدون مشدوهين وقد ملأ الرعب قلوبهم .

ولقـد كان مـاقام به ابـن الزبير نوعـًا من الطمـوح نحو المعـالي المحفـوفة بالأهوال، بدون تدرج سـابق، لقد كان عـمره آنذاك سبـعًا وعـشـرين سنة ، ولـم يُذكـر له قـبل ذلك مـواقف بطوليـة من نوع المغامرات، فكيف أقدم على هذه المغامرة الهائلة التي يغلب على الظن أو يكاد يقرب من اليقين في عرف الناس العاديين أن فيها الهلاك ؟

(١) البداية والنهاية ٧/ ١٥٨ .

إن الاحتمالات التي يمكن أن تَرد في مثل هذه المغامرة أن يدور في خَلَد المغامر أمران : ·

١ - أن ينجح في هجومه فيقضي على ملك البربر، ويتفرق جنده كما هي عادة الكفار ، وفي ذلك نصر مؤزر للمسلمين، وكفاية لهم عن خوض معركة شرسة قد تخوَّف منها المسلمون .

٢ - أن يتقبله الله شهيدًا ، وفي ذلك الوصول إلى أسمى الأماني، وأبلغ الدرجات التي يطمح إليها الصالحون ويتنافسون على بلوغها، كما أن في ذلك من إرهاب الكفار وإثارة الرعب فيهم الشيء الكثير، حيث سيتوقع الكفار أن المسلمين الذين سيقاتلونهم كلهم من هذا النوع الجريء الفتاك، إذ أنه يكفي المغامر شجاعة أن يقذف بنفسه في أتون المعركة الملتهب .

إنه لايُقدم على هذه الوثبة العالية إلا العظماء الذين يتصورون الجنة من وراء تلك الوثبة ، فيتخيلون أنهم يَثبون إليها .

ولقد كان ابن الزبير وهو يَثب تلك الوثبة متجردًا من علائق الدنيا وأثقالها المثبطة طامحًا بتصوراته إلى ما أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله على قدر طاقتهم سواء انتصروا على أعدائهم أو نالوا الشهادة.

وليس غريبًا من ابن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه ذلك الإقدام النادر فإن الشبل من ذاك الأسد ، ولقد سبق لنا عرض شيء من مغامرات أبيه العظيمة ، ومنها هجومه على الأعداء وحده من فوق حصن باب اليون في فتوح مصر ، واختراقه صفوف الروم يوم اليرموك وحده ذهابًا وإيابًا .

وقد جاء في هذا الخبر أن البربر بعدما قُتل ملكهم فروا من جيش المسلمين كفرار القطا ، وأن المسلمين تبعوهم يقتلون ويأسرون منهم من غير مقاومة ، وإن هذا الخبر دليل على أن الله تعالى مع أوليائه المؤمنين ، وأنه يقيِّض لهم إذا صدقوا مايخلصهم من الشدائد ، وينقذهم من المآزق ، فإن المسلمين قد وقعوا في معضلة كبرى حيث أحاط بهم أعداؤهم الذين يفوقونهم ست مرات في العدد أو أكثر، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم من كل جانب، وهو أمر عسير على جيش صغير بالنسبة لكثرة عدوه ، كما جاء في قول الراوي« فوقف المسلمون في موقف لم يُرَ أشنع منه ولاأخوف عليهم منه» فقيض الله لهم هذا البطل المغوار الذي أقدم على مغامرة نادرة المثال، فأنقذ الله به ذلك الجيش الإسلامي من عسرة كان يعاني منها .

ولاننسى موقف الأبطال الذين كانوا مع عبد الله بن الزبير يحمون ظهره ، فإنهم قد شاركوه في تلك المخاطرة ، ولئن لم يَذْكر التاريخ أسماءهم فإن عملهم الفدائي قد بقي مخلَّدًا في الدنيا برفع ذكر هذه الأمة حينما تفاخر بأبطالها ، وفي الآخرة بما ينتظرون من جزاء الإحسان بالإحسان .

أما ما جاء مما ظاهره الاختلاف بين رواية ابن الأثير ورواية ابن كثير فهو محمول على أن كل واحد منهما نقل مشهدا أو مشاهد من المعركة ، فابن الأثير حاول استقصاء وصف المعركة من أولها وابن كثير اكتفى بعرض موقف عبد الله بن الزبير لما فيه من الأهمية، وهجوم ابن الزبير محمول على أنه تقدم بالجيش الاحتياطي ، ثم انفرد بطائفة يحمون ظهره لما أبصر ملك أفريقية .

٢ – حروب المسلمين البحرية –

كان المسلمون متفوقين على الروم في الحروب البرية فاغتنم الروم مقدرتهم في المجال البحري حيث يمتلكون عددًا كبيرًا من السفن، ولديهم بحارة متدربون، ولهم خبرة طويلة في مجال الحروب البحرية. . اغتنموا ذلك في الإغارة على سواحل المسلمين في الشام ومصر .

وقد كان معاوية رضي الله عنه أميرًا على بعض الشام فاستأذن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في حمل المسلمين في البحر لمقاومة هجمات الروم، وللاستيلاء على الجزر القريبة من بلاد المسلمين كجزيرة قبرص، ليأمن المسلمون من استخدامها معاقل للروم ينطلقون منها لغزو المسلمين .

وقد أخرج الإمام الطبري في ذلك من طريق سيف بن عمر عن جنادة بن أمية الأزدي قال : كان معاوية كتب إلى عمر كتابًا في غزو البحر يرغبه فيه ، ويقول : يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص، فاتّهمه عمر لأنه المشير ، فكتب إلى عمرو – يعني ابن العاص– : أنْ صِفْ لي البحر ، ثم اكتب إليَّ بخبره، فكتب إليه: يا أمير المؤمنين إني رأيت خَلْقًا عظيمًا، يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء ، وإنما هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا بَرِق[1] .

---

(١) يعني دهش ، والمقصود أن راكبي البحر لايكادون يصدقون أنهم نجوا من دهشتهم .

فكتب عمر إلى معاوية كما جاء في رواية أخرى للطبري : لا والذي بعث محمداً بالحق لاأحمل فيه مسلماً أبداً [1] .

*   *   *

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٥٩ .

٣ - فتح جزيرة قبرص -

تقدم لنا أن أمير الشام معاوية بن أبي سفيان استأذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الغزو البحري، وفتح جزيرة قبرص، فأبى عليه خوفًا على المسلمين من مخاطر ركوب البحر .

فلما استُخلف أمير المؤمنين عثمان بن عفان أعاد الكرة معاوية فاستأذنه في الغزو البحري، فتردد في ذلك ثم أذن له وقال: لاتنتخب الناس ولاتُقرع بينهم ، خيِّرهم فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعِنْه، ففعل وسار بالمسلمين من الشام ، وسار عبد الله بن سعد بن أبي السرح من مصر حتى لقوا معاوية فكان معاوية على قيادة ذلك الجيش.

وقد ساروا حتى وصلوا إلى جزيرة قبرص بسلام ونزلوا من مراكبهم، فأرسل ملك قبرص يطلب الصلح فصالحه معاوية على جزية قدرها سبعة آلاف دينار (١) وذلك معلوم أنه بعد أن دعاهم إلى الدخول في الإسلام فأبوا ذلك .

وقد شارك في تلك الغزوة عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت ملحان رضي الله عنهما، وتحقق فيها معجزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر بذلك ، كما أخرج الشيخان وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ على ابنة ملحان فاتّكأ عندها ثم ضحك ، فقالت : لم تضحك يارسول الله ؟ فقال: ناس من أمتي يركبون البحر الأخضر في سبيل الله مثلهم مثل الملوك

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٠ - ٢٦٢ .

على الأسرة فقالت: يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعلها منهم، ثم عاد فضحك، فقالت له مثل - أو مم - ذلك، فقال لها مثل ذلك ، فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين ولست من الآخرين، قال أنس : فتزوجَتْ عبادة بن الصامت فركبت البحر مع بنت قرظة(١) فلما قفلت ركبت دابتها فوقصت بها فسقطت فماتت (٢) .

وفي هذا الحديث بشارة خير لأولئك المجاهدين الذين ركبوا البحر للجهاد في سبيل الله تعالى ، حيث ظهر فرَحُه وسروره من جهادهم ووصفَهم بوصف يُشعر بعزتهم وقوتهم .

وقد جاء في سياق أحداث هذه الغزوة المذكورة خبر أبي الدرداء رضي الله عنه حينما نظر إلى سبي الأعداء فبكى، ثم قال: ماأهون الخلق على الله إذا هم عصوه، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوأهم، فلما تركوا أمر الله عز وجلّ وعصوه صاروا إلى ما ترى .

هذا وإن ماتفوَّه به أبو الدرداء ﷺ يعتبر مثلا للبصيرة النافذة والفقه في أمر الله تعالى ، فهذا الصحابي الجليل يبكي حسرة على هؤلاء الذين أعمى الله بصائرهم فلم ينقادوا لدعوة الحق فباؤوا بهذا المصير المؤلم حيث تحولوا من الملك والعزة إلى الاستسلام والذلة، لإصرارهم على لزوم الباطل والتكبر على الخضوع لدعوة الحق ولو أنهم عقلوا

---

(١) يعني فاختة بنت قرظة زوجة معاوية .

(٢) صحيح البخاري رقم ٢٨٧٧ ، صحيح مسلم ١٣/٥٧ .

وتدبروا لكان في دخـولهم في الإسلام بقـاء ملكهم وعمـران ديارهـم والظفر بحماية دولة الإسلام .

إن هذا التفكر العـميق من أبي الدرداء مظهر من مظاهر الرحـمة والعطف تفتحت عنه نفسه الزكية ، فتشكل ذلك في الظاهر على هيئة دموع تتحدر من عيني هذا الرجل العظيم ، لتعبر عما يجول في نفسه من نظرات الحنان والرحمة والأسى على مصير تلك الأمة التي اجتمع لهـا البقـاء على الضـلال والمآل السيء بزوال الملك والوقـوع في الذل والهوان .

وإنه بقدر مايفرح المسلم بدخول الناس في الإسلام فإنه يحزن من رؤية الكافـرين وهم يعـيشـون في ضلال مع إدراكـه مـاينتظرهم من العذاب الأليم المؤبد في الآخرة ، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم في الأسر والتشرُّد وتعرضهم للقتل في الحياة الدنيا ؟

هذا ومن المواقف العـالية في هذا الفتح مـاقام به مـعاوية بن أبي سفيـان من اهتمام بالغ بالجهـاد في سبيل الله تعالـى ، وبدقة إدراكه الحربي حيث علم أن السيطرة على البرِّ وحده لاتكفي لأن خطر الروم على المسلمين سـيبـقى ماثلا دائمًـا من جهـة البحر ، وبسـبب ذلك تتعرض المدن السـاحلية لغارات متكررة من قبل الأعداء .

ولقد كـان له شرف قيادة أول حـملة بحرية ، وهي التي شبهـها رسول اللـه ﷺ بالملوك على الأسرة، وهذا إشـارة إلى مآل إليـه أمر الأمة الإسلامية من العزة والتمكين في الأرض .

وعاد المسلمـون من قبرص بعدمـا خلَّفوا وراءهم تلك الصحـابية

الجليلة التي كانت موضع تقدير النبي ﷺ واهتمامه ، وأصبح الناس يمرون على قبر أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها ويقولون : هذا قبر المرأة الصالحة (١) .

ولقد كان فتح جزيرة قبرص في غاية الأهمية لأنه كان بداية هيمنة المسلمين على البحر الأبيض المتوسط .

* * *

(١) حلية الأولياء ٢/ ٦٢ ، البداية والنهاية ٧/ ١٥٩ .

٤ - غزوات ابن قيس البحرية -

مازال معاوية رضي الله عنه مهتمًا بالغزو البحري ، وذلك لتثبيت هيمنة الدولة الإسلامية وحمايتها من هجمات الروم، فاختار لهذه المهمة قائدًا فذًا جمع بين الشجاعة والخبرة، وهو عبد الله بن قيس الجاسي .

وقد جاء خبره في رواية للإمام الطبري من حديث خالد بن معدان وفيه « واستعمل - يعني معاوية - على البحر عبدالله بن قيس الجاسي حليف بن فزارة فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد ولم يُنكب ، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده ، وأن لايبتليه بمصاب أحد منهم ، ففعل[١] - يعني استجاب الله دعوته - .

ولنا وقفة مع ماقام به عبد الله بن قيس من اهتمامه بتهيئة الأسباب اللازمة للنجاح مع توكله العظيم على الله تعالى ودعائه المذكور بأن يعافيه في جنده ، وقد مرّت علينا أخبارٌ رأينا أن القائد فيها يسأل الله تعالى أن يرزقه الشهادة ، ولقد كان الدعاء بالسلامة في تلك المعارك البحرية أولى من طلب الشهادة لأن عبد الله بن قيس كان رائد تلك المعارك ، وقد كان المسلمون يتخوفون ركوب البحر والقتال فيه لما يشتمل عليه من مخاطر ، فكانت سلامة تلك الحملات البحرية أمرًا منظورًا إليه لإزاحة الشعور بالخوف من الحروب البحرية.

وقد سلّم الله تعالى ابن قيس في خمسين غزوة بث فيها الرعب

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٠ .

في قلوب الروم حتى تبين لهم أنهم لم يعودوا سادة البحر ، وأن المسلمين قد تفوقوا عليهم في غزو البحر كما تفوقوا عليهم سابقًا في غزو البر .

أما نهاية هذا القائد المحنَّك فقد جاء في الرواية المذكورة « حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده خرج في قارب طليعةً فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم وعليه سُؤَّال يعترون بذلك المكان - يعني مساكين يسألون - فتصدق عليهم .

فرجعَت امرأة من السؤَّال إلى قريتها فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس ؟ قالوا : وأين هو ؟ قالت : في المرفأ ، قالوا أي عدوة الله ! ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس ؟ فوبَّختهم ، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد ، فثاروا إليه فهجموا عليه، فقاتلوه وقاتلهم فأصيب وحده ، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه.

فجاؤوا حتى أرسوا بالمرفأ ، والخليفة عليهم سفيان بن عوف الأزدي ، فخرج فقاتلهم فضجر وجعل يعبث بأصحابه ويشتمهم ، فقالت جارية عبد الله : واعبد الله ، ماهكذا كان يقول حين يقاتل. فقال سفيان : وكيف كان يقول : قالت :«الغَمَراتِ ثم يَنْجَلينا» قال: فترك ماكان يقول ولزم « الغمرات ثم ينجلينا» وأصيب في المسلمين يومئذ ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسي .

وقيل لتلك المرأة بعد : بأي شيء عرفتيه ؟ قالت: بصدقته، أعطى كما يعطي الملوك ، ولم يقبض قبض التجار، وفي رواية قالت:

كان كـالتاجر ، فلمـا سألته أعطاني كـالملك فعرفت أنه عـبد الله بن قيس(١).

وهكذا حـينما أراد الله تعـالى أن يمنّ بالشـهادة على هذا القـائد العظيم أُتيـحت له وهو في وضع لايضر بسـمعـة المسلمين البحـرية، حيث كان وحده يتطلع ويراقب الأعـداء، فكانت تلك الكائنةُ الغريبة التي أبصرَتْ غورها تلك المرأة الذكية من نساء تلك البلاد، حيث رأت ذلك الرجل يظهر في مظاهره الخارجية بمظهر التجار العاديين ، ولكنه يعطي عطاء الملوك ، فلقد رأت فـيه أمارات السيادة مع بـساطة مظهره فعرفت أنه قائد المسلمين الذي دوّخ المحاربين في تلك البلاد .

وهكذا كانت سـماحة ذلك القائد وسـخاؤه البارز حتى مع غـير المسلمين سببًا في كشف أمره ومعرفـة مركزه ، ليقضي الله تعالى أمرًا كان مفعولا ، فيتم بذلك الهجوم عليه وظفره بالشهادة .

وهكذا يضرب قـادة المسلمين المُثُل العليا بأنفسهم لـتتم الإنجازات الكبرى على أيديهم ، وليكونوا قـدوة صالحة لمن يخلفهم ، فـقد قام هذا القائد الملهم بمهمة الاستطلاع بنفسه ولم يكل الأمر إلى جنوده ، وفي انفـراده بهـذه المهمـة مظنة للـتورط مع الأعـداء والهـلاك على أيديهم، ولكنه مع ذلك يغامر بنفسه فيتولّى هذه المهمة،ثم نجده يتخلّق بأخلاق الإسلام العليا حتى مع نساء الأعداء وضعفَتهم فيمد إليهم يد الحنان والعطف ، ويسخُو لهم بالمال الذي هو من أعز مايملك الناس.

ونجده قبل ذلـك مع جنده رفيقًا صـبوراً ، لامعنِّفًا ولامسـتكبراً،

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٠ - ٢٦١ ، الكامل لابن الأثير ٣/ ٤٩ .

وإذا إدلهَّمت الخطوب تفاءل بانكشاف الغمة ولم يلجأ إلى لوم أصحابه وتعنيفـهـم ، ولم يهيـمن عليه الارتباك الذي يفـسد العـمل، ويعجِّل بالخلل والفوضى .

أما خليفـته سفيـان الأزدي فلعله وقع فيما وقع فـيه من الارتباك والاشتغال بطرح اللائمه على جنده لكونه حـديث العهد بأمور القيادة ولكن مما يُحـفظ له أنه لما نبَّـهتـه جارية عـبد الله بن قـيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذي كان أميره ينتهـجه في القيادة سارع في التأسي به في ذلك ، ولم يحـمله التكبـر على عـدم سمـاع كلمـة الحق وإن صدرت من جارية مغمورة .

وهذا مثل من أمثلة التـجرد من هوى النفس. . هذا الخلق العظيم الذي كان غالبًـا في الجيل الأول ، وبه تمَّ إنجاز الفتوحـات العظيمة ، ونجاح الولاة والقادة في إدارة أمور الأمة .

فلله در أبناء ذلك الجـيل : ماأبلغ ذكـرهم ، وماأبعـد غورهم، وماأعظم وطأتهم في الأرض على الجبارين ، ومـاأعذب لَمَساتهم في الأرض على المستضعفين والمساكين !!

* * *

٥ – غزوة ذات الصواري –

إن من أهم المعارك البحرية التي خاضها المسلمون معركة « ذات الصواري » وذلك في أواخر خلافة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه.

وقد ذكر الإمام الطبري عن عاصم بن عمر بن قتادة: أن أهل الشام خرجوا ، وعليهم معاوية بن أبي سفيان، وعلى أهل البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وخرج عامئذٍ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بأفريقية ، فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الإسلام ، فخرجوا في خمسمائة مركب، فالتقوا هم وعبد الله بن سعد ، فأمّن بعضهم بعضا حتى قرنوا بين سفن المسلمين وأهل الشرك ، بين صواريها (١) .

قال مالك بن أوس بن الحدثان : كنت معهم ، فالتقينا في البحر فنظرنا إلى مراكب مارأينا مثلها قط، وكانت الريح علينا، فأرسينا ساعة، وأرسوا قريبًا منا، وسكنت الريح عنا . فقلنا: الأمْنُ بيننا وبينكم ، قالوا : ذلك لنا ولكم ، ثم قلنا : إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم ، وإن شئتم فالبحر، فنخروا نخرة واحدة، وقالوا : الماء ، فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها إلى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضًا على سفننا وسفنهم ، فقاتلنا أشد القتال، ووثب الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن ويتواجئون

---

(١) جمع صار ، وهو الخشبة المعترضة وسط السفينة ، وبذلك سميت المعركة ذات الصواري .

بالخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما .

وجاء في رواية حنش بن عبد الله الصنعاني أن عبد الله بن سعد قال: اشيروا عليَّ ، قالوا : ننظر الليلة ، فباتوا - يعني الروم- يضربون بالنواقيس ، وبات المسلمون يصلون ويدعون الله تعالى .

وجاء في رواية ابن أعثم الكوفي أن العدو باتوا ليلة المعركة يضربون بالصنوج والطنابير ويشربون الخمور، وينفخون في الصفارات، وأن المسلمين جعلوا يكثرون من قراءة القرآن، ولايفترون عن الصلاة والدعاء [1].

وفي سياق رواية حنش الصنعاني عند الطبري قال: ثم أصبحوا وقد أجمع قسطنطين على أن يقاتل، فقرَّبوا سفنهم، وقرَّب المسلمون، فربطوا بعضها إلى بعض، وصفَّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن، وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ويأمرهم بالصبر .

قال : وَوَثَبَت الروم في سفن المسلمين على صفوفهم حتى نقضوها، فكانوا يقاتلون على غير صفوف ، قال: فاقتتلوا قتالا شديدًا، ثم إن الله تعالى نصر المؤمنين ، فقَتَلوا منهم مقتلة عظيمة لم ينج من الروم إلا الشريد [2] .

وهكذا تم نجاح المسلمين في الغزو البحري بانتصارهم في هذه المعركة الكبيرة، فأصبحوا سادة البحر كما كانوا سادة البر، وفقد الروم أملاً من آمالهم في التفوق العسكري البحري .

(١) الفتوح لابن أعثم ١/ ٣٥٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٩٠ - ٢٩٢ .

لقد فضَّل الروم القتال في البحـر حينما خيَّرهم المسلمون، لأنهم قد ذاقوا الأمـرَّين من قتال المسلمين في البر، وجرَّبوا مـعهم كل مافي وسعـهم من الحِيَل والاستـعداد فلم ينجـحوا معـهم في ذلك ،وكان مصيـر جميع حروبهم الفشل، فلجـئوا إلى القتال في البحـر لخبرتهم الطويلة فيه، وقـلة تجربة المسلمين وضعف استعـدادهم ، فغلب على ظنهم الظفـر بـالمسلمين في تلك المعـركـة الكبـرى التي بالغـوا في الاستعداد لها .

وقد جـاء في هذا الخبـر بيان أهم الأسـباب التي أدت إلـى نجاح المسلمين وإخـفاق عـدوهم، حـيث بات الروم ليلة المعـركة يضـربون بالصنوج والطنابير ويشـربون الخمور، وينفخون في الصـفارات، بينما بات المسلمـون مصلِّين ، لايفتـرون عن الدعاء وتلاوة القـرآن، وفَرقٌ كبير بين معسكر يبيت على الـلهو والمجون، ومعسكر يبيت على الجد والحزم والترقب .

وفَرقٌ بين معسكر مقطوع الصلة بالسمـاء ، يستمد وجوده وبقاءه من قوى الأرض الضعـيفة الهزيلة ، ومـعسكر قد اعتـصم بحبل الله المتين، فأنظاره ليست مقصورة على الأرض بل هي متجهة أولاً وأخيرًا إلى السماء .

فَرقٌ بين معسكر يرى أن قـوته محصورة في إمكاناته المادية الماثلة أمامه، ومعسكر يعتقد اعتقاداً جازمًا بأن قوة عظمى تهيمن عليه وعلى أعـدائه هي قوة البـاري جل وعلا ، وأن الله تعـالى قد وعـد عبـاده الصادقين بالنصر، وأن ذلك قد تأكد لهم بما شاهدوا من خروجهم من المآزق ونجاتهم من المهالك بما يشبه الخوارق .

وأخيراً فَرْقٌ بين من يقاتل وقصارى همِّه مستقبله ومستقبل دولته الدنيوي ، ومن يقاتل وطموحاته تسمو إلى المستقبل الأخروي . . إن الأول يقاتل ليستبقى نفسه قبل كل شيء حتى يتمتع بثمرات النصر في هذه الحياة الدنيا، التي ربط بها مستقبله وآماله ، أما الثاني فإنه يقاتل وفي ذهنه سلوكُ أمثل الطرق وأقربها لتأمين الدرجات العُلَى في مستقبله الأخروي، وهذا الشعور يجعله يستميت في جهاده، والمنطق العقلي يقتضي أن مثل هذا لايُقتَل حتى يفتك بأعدائه الذين يحبون الحياة كما يحب هو الموت .

ومع ملاحظة هذه الفوارق فإن أمر انتصار المسلمين يبدو واضحًا له مسوغاته القوية التي تشحن المجاهدين بقوة عارمة لايقف أمامها شيء مهما كانت الفوارق المادية ، مادام المجاهدون ملتزمين بحبل الله المتين .

ولقد كانت هذه المعركة مظهراً من مظاهر تفوق العقيدة الصحيحة الصلبة على الخبرة العسكرية والتفوق في العَدد والعُدد، فلقد كان الروم هم أهلَ البحر منذ القدم ، وقد مروا بتجارب طويلة في الحروب البحرية ، بينما كان المسلمون حديثي عهد بركوب البحر والقتال البحري، ولكن الله تعالى أدال المسلمين عليهم برغم التفوق المذكور لأنه سبحانه قد سخر أولئك المؤمنين لنشر دينه وإعلاء كلمته في الأرض .

وإن مما يُشاد به في هذه المعركة قوة قائدها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ورباطة جأشه ، ومقدرته الجيدة على إدارة الحروب .

وهي بعـد ذلك لون من ألوان بســالة المسلمين واسـتقـتـالهم في الحروب بأنفسهم في سبيل إعزاز دينهم ورفع شأن دولتهم .

* * *

٦ - غزو جزيرة صقلية -

قال المؤرخ أحمد بن أعثم الكوفي ثم تهيأ المسلمون لغزو صقلية وكانت عظيمة الشأن ، قال: وإنما كان مُلك الروم في ثلاثة مواضع من الأرض في صقلية وورومية وقسطنطينية ، قال: وكان مَلك قسطنطينية في قديم الدهر إلى يومنا هذا يلبس خفين أحمرين، ويأذن لصاحب صقلية في أن يلبس فردًا أحمر وفردًا أصفر، ويأذن لصاحب رومية أن يلبس فردًا أحمر وفردًا أخضر ، ويأذن لسائر البطارقة أن يلبسوا أخفافًا سودًا . قال: وكانت جزيرة صقلية هذه جزيرة واسعة خصيبة مسيرة ثلاثة أيام في مثل ذلك، فيها عيون غدقة وزروع وأشجار وخير كثير، فعزم معاوية على غزوها وكتب إلى عثمان في ذلك قال : وبلغ أهل أفريقية فبعثوا إلى أهل صقلية بأن العرب قد أجمعوا على حربكم فكونوا من ذلك على حذر .

قال: واتصل هذا الخبر بصاحب صقلية فغضب لذلك وقال: -وطمعت العرب في غزونا لعلهم يظنون أننا كأهل إفريقية، ولايرضى العرب منا أن نمسك عنهم ولانغزوهم .

قال: وخطف المسلمون من ساحل البحر في ثلاثمائة مركب فلم يشعر أهل صقلية إلا ومراكب المسلمين قد طلعت عليهم، فنظروا إليها. قال: وبلغ ذلك ملك صقلية، فأشرف من قصره ومعه جماعة من بطارقته، فنظر إلى مراكب المسلمين قد أقبلت وعليها الرايات والمطارف والأعلام ، وفيها الرجال بالسلاح الشاكِ الذي لم ير مثله، قال: فنظر ملك صقلية إلى مراكب كثيرة وإلى سلاح شاكٍ لم يكن يظن أنه يكون عند العرب مثله .

قال: وكان صاحب قيسارية لما هرب من أيدي المسلمين صار إلى صاحب صقلية ، وكان عنده من ناحية ، فكان يحدث صاحب صقلية عن العرب ومافتحت من أرض الشام ومن مدن سواحلها. فلما كان ذلك اليوم ، التفت صاحب صقلية إلى صاحب قيسارية فقال له: إن هولاء أكثر من أولئك الذين كانوا بأرض الشام ؟ فقال له صاحب قيسارية : أيها الملك ! كانوا أكثر من هؤلاء ، وكانوا أيضًا قومًا صالحين أصحاب نيات وبصائر، يقاتلون على نية ودين وحسن يقين، وهؤلاء أظن أنهم يريدون الدنيا ، فلو أن الملك أعطاهم شيئًا يدفع به عن بلده لكان ذلك عندي له الرأي ، قال: فغضب ملك صقلية من ذلك ثم قال له : أنت رجل مرعوب لأنك قد رأيت منهم بقيسارية ماقد رأيت من ظهورهم على بر الشام وبحرها ، وإن في صقلية اليوم من الرجال الذين يحملون السلاح مثل مافي الشام في برها وبحرها، ومثل مافي أرض مصر ، وإني لأعرضهم على مائة عارض فيمكثون سنة يعترضون .

قال : فقال له صاحب قيسارية : صدقت أيها الملك ! ولذلك فارقتُ ملك الروم لمَّا مضى إلى القسطنطينية ، وصرت إليك لما أعلم من حزمك وعزمك وكثرة خيلك ورجلك، وإن صقلية عندي أيها الملك لتقاس إلى رومية ، قال : فسُرِّيَ عن صاحب صقلية وقال: صدقت أيها الملك هي كذلك، قال: وإنما خدعه صاحب قيسارية بهذا الكلام ، لأن رومية في البر دون مدينتها أربعون ميلاً .

قال : وأرسى المسلمون مراكبهم في جزيرة صقلية ، قال: فأرسل

إليهم ملكها أن ابعثوا إلي منكم رجلاً له بيان حتى أكلمه بما أريد .

قال: فبـعث المسلمون إليه برجل ومـعه ترجمان يخبـره بما يقول الروم فأقبل حتـى وقف حذاءه وصاحب صقلية مشـرف عليه، فقال: مـاأنتم ؟ فقـال المسلم : من العـرب الذين قد بلغت دعـوتنا أطراف الأرض وأكناف الجبـال وأقطار البحار ، لأن الله عـز وجل بعث إلينا رسولاً هو أفضلنا بيـتًا وأصدقنا حديثًا ، وأكرمنا نفـسًا ، فدعانا إلى الله عز وجل ، فـأجبنا رسول الله وآمنا به وصدقناه، واتبـعه منا من اتبعه وأبى منا من أبى ، فقاتل من أبى عليه بالذين اتبعوه حتى أظهره الله عز وجل علـى العرب قاطبـة، إما راغب فيـما دعاه إليـه، وإما راهب من فَـرَق السيـف، ولقـد أقـر له هرقـل ملك الروم من قـبل بالنبـوة، وشهـد له بالرسالة ولم ينـكر له ذلك ، ولقد خـبرنا نبـينا محمدﷺ من قبل وفاته بأن الله تعالى يفتح علينا ويظهرنا على جميع الأديان، وقد بلغك مـاكان منا بأرض الشام لـما قتلنا أهلها وسـبيناهم حتى لم يلتق منهم اثنان في موضع واحـد ، ونحن على مانحن عليه من الضـعف وقلة المال والسـلاح والكـراع حتى هـرب منا هرقل إلى قسطنطينية خائفًا مرعوبًا ، فلم يزل كذلك حتى مات بحسرتنا، ثم قام من بعده قسطنطين ، فقد بلغك مـانزل به منا ، وأنا قتلنا أصحابه في البحر وأخذته الرماح ، وأثخنته الجـراحات، حتى صار إليكم وشمتم به، فهذه قصتنا وهذه حالـتنا ، فلِمَ تسألنا عن أمرنا كأنك لاتعرفنا أو كأنك جاهل بما لقيتم منا .

قال : فتـبسم صاحب صقلية ثم قـال : صدقت ، نحن قتلناه،

لأنه خرج بـالروم في أيام ريح عاصـفة فأهلكـهم في البحـر، ثم نجا وصار إلينـا ، فلم نحب أن يرجع إلى أهله سالمًا حـتى نُوتم أهله منه وولده كما أيتم الـروم ، قال: ثم التفت صاحب صقلـية إلى صاحب قيسارية فقال: مايخـفى على العرب شيء من أمرنا ؟ فقال: نعم أيها الملك ، وكذلك لايخفى علينا شيء من أمورهم .

قال: ثم أقـبل صاحب صـقلية على المسلم فـقال: خـبِّرني الآن عنكم لماذا قصدتمونا فـي مثل هذا البحر ؟ فقـال له المسلم: قصدناكم لندعوكم إلى أن تدخلوا في الإسـلام وتأمنوا على دياركم وأموالكم، ونولِّي عليكم رجلاً منكم تقـيمون الصلوات الخمس وتصومـون شهر رمضان ، وتحجـون البيت الحرام ، وتُؤْخذ الصدقة من أغنـيائكم فتُرد على فقرائكم ، فإن أبيتم الدخول في ديـننا فاقبلوا عهدنا وذمتنا وأدوا الجزية إلينا وقرُّوا فـي دياركم آمنين . فإن أبيتم ماعرضنـاه عليكم فقد أنذرناكم وأعذرنا إليك ، فاعلموا أن مـا بيننا وبينكم إلا السيف، فإن قُـتلنا كنا علـى بيّنة من ربنا ، إنا في الجنة وأنـتم في النار أو أظفـرنا بكم، فذاك ما وعدنا نبينا محمد ﷺ .

قال : فـقال صـاحب صقليـة لترجمـانه : قل له الآن عني إنك تكلّمت وقلت ما أردت فذرنا حتى نتكلم بما نريد ، فقال المسلم: قل ماتشاء ، فقال: قل له عني : إنكم قـد اغتررتم بأنفسكم بغزوكم إيانا في مثل هذا البـحر ، وظننتم أن صـقلية إنما هي كـمدائن الروم التي افتتـحتموها من قـبل ، وليس الأمر كما تقولون ولا كـما ظننتم، إن صقلية أمنع من ذلك ، وأنتم قد ندمتم على مسيركم إلينا عندما رأيتم

من جمعنا وعددنا وكثرة سلاحنا، فلو أنكم أردتم أن ترجعوا إلى بلادكم لم تقدروا على ذلك ، لأنكم قد لججتم في هذا البحر حتى وصلتم إلينا ، ولسنا نحب أن تعتادوا هذه العادة علينا في قلتكم وكثرتنا ، لأنه لم يطمع أحد من أعدائنا في هذا منا ولم يغزنا قط أحد من قبلكم إلا ذل وخضع، وإنا لنغزو جميع أهل الأديان في ديارهم فنسبيهم ، ونذلهم ونأتي بهم إلى جزيرتنا هذه أسارى أذلة صاغرين ، وأما ما عرضتموه علينا من اتباع دينكم فهذا ما لايكون ، ولست أفارق ديني أبدًا ، وأما ما سألتموه من الجزية فقد يجب عليكم أن ترضوا مني بالمساكتة والمسالمة أن لاأغزوكم في بلادكم .

فلما فرغ صاحب صقلية من كلامه أقبل المسلم على الترجمان فقال: قل له عني : إني أراك قد بغيت في كلامك، والبغي منقصة وشؤم ومصرعة وحتم ، ونحن نرجو أن يُدال عليكم ببغيكم، ونحن قوم لانرى القتل سُبَّة ، ولا الموت عارًا ، والقتل أحب إلينا من الخمر إليكم .

قال : فبينما المسلم يكلّم صاحب صقلية بهذا الكلام ونحوه، وإذا بِطْريقٌ منهم قد أشرف من جدار القصر وقال: أيها العربي! قد أكثرت علينا من كلامك ولكن من يبارزني منكم ؟ فقال له المسلم: يبارزك أدنانا رجلاً وأضعفه في نفسه ، قال: فغضب البطريق من ذلك وقال : ياكلاب ! وفيكم من يبارزني ! ثم إنه بادر ونزل ، فخرج من باب القصر وفي يده سيف له مشطّب ودرقة مذهبة ، وعليه قباء حرير ويلمق ديباج ، قال: فبرز إليه رجل من أهل إفريقية واختلفا

بضربتين، ضربه الأفـريقي ضربة على أم رأسه فسقط البطريق قـتيلاً، ثم وقف عليه الأفـريقي فجـعل يسلبه وصاحب صـقلية مع بطارقـته ينظرون إليه ، ثم وقف الأفريقي ونـادى بأعلى صوته : من يبارزني؟ قال صاحب صقلية : من هذا منكم ؟ فقال له المسلم : هذا رجل من أهل أفريقية وقد كان من خدمكم ، فمنَّ الله عز وجل عليه بالإسلام فأسلم ، وقـد رأيتَ مافعل بصاحـبكم ، فكيف لو برز إليه رجل من حزبنا .

قال: فنزل صاحب صقلية من قصـره مغمومًا ، وخرج المسلمون من المراكب فأغاروا على أطراف صقلية ، فسبوا وغنموا ، ثم أخرجوا مجانيق كانت مـعهم فنصبوها على حصونهم ورموهم رمـيًا متداركا، ورزق الله عز وجل المسلمين من اعتـدال حجارة مجانيقـهم وقصدها لحصون الكفار وقصورهم شيئًا عجيبًا ، قال: ورمت الروم بالعرّادات، فلم يكن لعرّاداتهم نكاية . قـال: وقهرهم المسلمون حـتى أحجزوهم في دورهم وقصورهم .

قال : فعندها خرج صاحب صقلية من قصره، واجتمع إليه أهل مملكته بأجـمعهم فـعطعطوا ونفخوا في البـوقات ، وأظهروا مـاقدروا عليـه من آلة السلاح ، قـال: وصفّ المسلمـون صفـوفهم وأظهـروا سلاحهم، واقـتحمت الروم على ميـسرة المسلمين وكشفـوهم وثبتت الميمنة والقلب ، فـقاتلوهم ساعـة ، ثم رجعت ميـسرة المسلمين إلى موضـعهـا، ودامت الحرب بـينهم يومهم ذلك ، فـقتل من الفـريقين جمـاعة، ثم افـترقوا وذلك وقـت المساء، حتى إذا مـضى من الليل

بعضه أغار المسلمون على قراهم وحصونهم ، فسبوا سبيًا كثيرًا وغنموا من الغنائم ما ملأت أيديهم ، ثم رجعوا مراكبهم .

قال: وبلغ ذلك صاحب صقلية فاغتم لذلك غمًّا شديدًا، ثم أرسل إلى مقاتلته فدعاهم إليه وقال: مابالكم لاتغيرون عليهم كما يغيرون عليكم ؟ سوءًا لكم ! لقد خشيت أن تؤخذ صقلية منكم كما أخذت الشام من قبل ، قال: فسكتت الروم ولم يقولوا شيئًا، فقال له صاحب قيسارية : أيها الملك ! إنني أشير عليك أن تكتب إلى الملك الأكبر وتسأله المدد ، فقال : لا فعلت ذلك أبدًا ، ولو أخذت صقلية من يدي . قال: فلم يزل المسلمون في المحاربة حتى ملؤوا أيديهم من الغنائم وقتلوا منهم بشرًا كثيرًا .

قال : وبلغ ذلك ملك الروم فجهز إلى صقلية ستمائة مركب فيها المقاتلة والسلاح، قال: واتصل الخبر بالمسلمين قبل أن يتصل بأهل صقلية، فرأوا من الرأي أن يرحلوا ، فقال لهم أميرهم : ليس الرأي أن ترحلوا نهارًا ، فإنا لاندري مايكون من الحَدَثان، ولكن أخروا هذا إلى الليل ، فقالوا : ذاك أيها الأمير !

قال : فلما كان الليل وهدأت العيون قعد المسلمون في مراكبهم وخطفوا من ساحل صقلية ، وهبت الريح ،ورفعوا الشراع، وسارت المراكب على تؤدة بغير هول ولافزع حتى أصبحوا على بلد بعيد من صقلية ، ثم ساروا حتى صاروا إلى ساحل الشام ، فخرج المسلمون من المراكب فأرسوها ثم أخرجوا تلك الغنائم وذلك السبي، فأخرج معاوية في ذلك كله الخمس ووجه به إلى عثمان، وكتب إليه يخبره بسلامة المسلمين وماكان من أمر صقلية .

قال : فسرّ عثمان بذلك ، وقسم الخمس على أهل المدينة، وقسم معاوية مابقي من بعد الخمس في المسلمين (١) .

في هذا الخبر مواقف وعبر :

فمن ذلك أولا : بيان مايتصف به ملوك الكفار آنذاك من الانخداع بمظاهر الدنيا إلى حد السذاجة في التفكير حيث يخصص ملك الروم له اللون الأحمر للحذاء ، فلا يلبس من هم دونه بذلك اللون ، وحيث إن ملك صقلية يليه في العزة فإنه يأذن له بفرد أحمر ويكون الآخر باللون الأصفر ، ثم يليهما ملك روما حيث يلبس فردًا أحمر وفردًا أخضر ، ثم بقية الأمراء حيث يلبسون باللون الأسود.

وهذا السلوك يدل على استغراقهم في الطبقية ، وضحالة تفكيرهم حيث ربطوا معالي الأمور بهذه المظاهر الدَّنيه .

وثانيًا : في الحوار الذي جرى بين مندوب المسلمين وملك صقلية يتبين وضوح المسلمين في عرض قضيتهم ، فهم يقومون بعرض موجز للإسلام يبينون محاسنه بالمقارنة بمساويء الجاهلية ثم ينطلقون إلى العروض الثلاثة المعروفه : الإسلام أو الجزية وإلا فالمناجزة بالقتال ، فهم يبدؤون أولا بالدعوة إلى الإسلام ويبينون للمدعوين أنهم إذا أسلموا يكونون كأمة الإسلام تماما في جميع الحقوق ، وهذا يدل على أن الهدف الأعلى عندهم هو نشر الإسلام في الأرض .

ثم يعرضون دفع الجزية مقابل حمايتهم من قِبَل دولة الإسلام بحيث تكون دولتهم تابعة للدولة الإسلامية ، وفي هذا إزالة لكبرياء

---

(١) الفتوح لابن أعثم ١/٣٦١ - ٣٦٦ .

الكفار وتحطيم لطغيانهم ، حيث يستطيع أبناء تلك البلاد أن يدخلوا في الإسلام متى شاؤوا ولايكون لدولتهم سلطان عليهم بمنعهم من ذلك لأن السلطان لدولة الإسلام ، وبهذا فإن الشعوب ستُقبل على الدخول في الإسلام إذا فهموا دعوته خاصة بعد معرفة المزايا الدنيوية، المادية منها والمعنوية ، مثل وضع الجزية عمن أسلم وظفره بالعطاء السنوي الذي يُعطى لأفراد المسلمين ، وكونه يصبح أثيرًا ومقربا لدى الدولة الإسلامية ذات السلطان الكبير .

وأخيرًا فإن في قول مندوب المسلمين « ونحن قوم لانرى القتل سُبَّة ولا الموت عارا ، والقتل أحب إلينا من الخمر إليكم» إظهارًا لعزة المسلمين وشجاعتهم وتصميمهم على القتال ، وتيئيسا للأعداء من محاولة الطمع في تحويل المسلمين عن أهدافهم ومناهجهم المذكورة.

ثالثًا : في المبارزة المذكورة حسن اختيار من المسلمين ، حيث اختاروا رجلا من أهل أفريقية الذين كان الروم يحتقرونهم ، ولقد أذهل الروم أن يتفوق عليهم في ذلك أبناء أفريقية الذين كانوا قبل دخولهم في الإسلام يستذلونهم ويستخدمونهم ، ولئن سلّموا للعرب هذا التفوق ، واعتبروا ذلك اكتشافًا لأمر كانوا يجهلونه فما بال الأفارقة الذين كانوا يخشون الروم ويعيشون تحت استعبادهم ؟ !

ولقد بدا ظاهرًا للعيان أن صانع هذا التفوق هو الإسلام وأن الناس بدون هذا الدين متقاربون في الكفاءات وتبادل فرص النجاح والإخفاق ، ولكن ما أن يدخل الإسلام في المعارك حتى تتبدل الموازين فتعلو كفة المسلمين وتنخفض كفة الكافرين مهما كانت جنسياتهم .

وإن ذلك وحده كان كافيًا لإقناع أصحاب العقول الراجحة والأفكار النيرة كي يراجعوا حساباتهم نحو هذا الدين ، وقد تم بالفعل تأثر الملايين من الناس وانجذابهم آنذاك إلى الإسلام لما زال حكم الطغاة الذين كانوا يحولون بينهم وبين التفكير المتأمل والنظر الصحيح .

رابعًا : في خبر معرفة المسلمين بتلك السفن التي أبحرت من القسطنطينية لنصرة أهل صقلية دليل على اتصاف المسلمين الأوائل بدقة الرصد والمعرفة الجيدة لتحركات الأعداء حيث علموا بإبحار السفن من بلاد الروم قبل أن يعلم بذلك أهل الجزيرة .

وأغلب الظن أن معاوية - رضي الله عنه - وهو السياسي المحنَّك والقائد الحربي البارع قد وضع طلائع في البحر يرصدون حركة الأعداء ، حتى لايُعرِّض تلك الحملة التي توغلت في أعماق البحر للخطر ، فيكون في ذلك تغرير بالمسلمين وانتكاسة للجهاد البحري.

هذا وإن ما اتخذه أولئك المجاهدون من قرار الانسحاب لما خشوا أن يحاط بهم لايُعتبر من الفرار يوم الزحف ، بل كان من التحيُّز إلى معسكر المسلمين الكبير في الشام ، فهو داخل في قول الله تعالى ﴿ **وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾(١)، وقد قال عمر رضي الله عنه حينما أصيب جيش المسلمين في العراق بقيادة أبي عبيد بن

(١) سورة الأنفال / ١٦ .

مسعود الثقفي : رحم الله أبا عبيد لو انحاز إليَّ لكنت له فئة ،كما سبق .

وفي قول الراوي « وهبّت الرياح » مثل من عناية الله تعالى بأوليائه المجاهدين وحمايته لهم فإن السفن آنذاك تعتمد قبل كل شيء على هبوب الرياح ، وقد كانت الرياح لصالحهم فساقت سفنهم نحو ساحل الشام بسرعة كبيرة .

هذا ولقد خيب الله تعالى ظنون ملك الروم وحاكم صقلية حيث توقعوا هلاك تلك الفئة من المسلمين وقد أحيط بهم ، ولم يعلموا أنهم آساد يعرفون كيف يَرِدُون وكيف يصدرون عند اللزوم، وأنهم قبل ذلك مستظلون برعاية الله جل وعلا وحمايته، ولن يخيب من كان الله جل وعلا مولاه وناصره .

* * *

مواقف وعبر

فى خلافة

على بن أبى طالب رضى الله عنه

سيكون الكلام على عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه قليلا نظراً لانشغاله طيلة مدة خلافته بالحروب الداخلية وإخماد الفتن ، فلم يكن هناك فتوحات ولا أعمال جهادية إلاَّ ماذُكر من قيام أحد ولاة علي رضي الله عنه بالجهاد في السند وهو الحارث بن مرة العبدي[1].

وقد تميزت مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بثلاثة أمور : أحدها العدل في الحكم ، وثانيها الزهد في الدنيا والورع ، وثالثها الوصايا والحِكَم التربوية .

من مواقفه في العدل :

من أمثلة عدله في الحكم ما أخرجه الإمام ابن جرير الطبري من خبر ناجية القرشي عن أبيه قال : كنا قيامًا على باب القصر إذ خرج علي علينا فلما رأيناه تنحينا عن وجهه هيبة له ، فلما جار صرنا خلفه، فبينما هو كذلك إذ نادى رجل : ياغوثًا بالله ! فإذا رجلان يقتتلان، فلكز صدر هذا وصدر هذا ، ثم قال لهما : تنحيا ، فقال أحدهما : ياأمير المؤمنين إن هذا اشترى مني شاة وقد شرطت عليه أن لايعطيني مغموزا ولامحذّقا - يعني الدراهم المعيبة - فأعطاني درهمًا مغموزًا فرددته عليه فلطمني ، فقال للآخر : ماتقول ؟ قال: صدق ياأمير المؤمنين قال : فأعطه شرطه ، ثم قال للأطم : اجلس ، وقال للملطوم : اقتص ، قال : أوعفو ياأمير المؤمنين ، قال : ذلك إليك،

(١) سيأتي - إن شاء الله - بيان ذلك في فتوح السند .

قال فلما جاز الرجل قال علي : يامعشر المسلمين خذوه، قال: فأخذوه فحمل على ظهر رجل كما يحمل صبيان الكتَّاب ، ثم ضربه خمس عشرة درَّة ، ثم قال : هذا نكال لما انتهكت من حرمته، وفي رواية أنه قال : هذا حق السلطان (١) .

هذا وإن هذا الخبر ليعتبر مثلا عاليًا للتواضع حيث يخرج أمير المؤمنين من بيته إلى السوق يتفقد أحول الناس ، ويقوم بنفسه في حل مشكلاتهم ، وهو نوع من السلوك العالي الذي يبرز وجود الولاة في واقع حياة الرعية سواء قام بذلك الوالي الأكبر أو من دونه، ولايلزم تكرر هذا الوجود كل يوم ، إذ يكفي شعور الناس بأن الولاة معهم في مشكلاتهم ليطمئن صاحب الحق على بقاء حقه في حوزته، وعودته إليه فيما لو اعتُدي عليه ، وليرتدع من تسوّل له نفسه الاعتداء على حقوق الناس ، وقبل ذلك وأهم منه أن يرتدع كل من يحدث نفسه بالاعتداء على حق الله تعالى .

وهذا الوجود المتلاحم بين الوالي والرعية يظهر بصور متعدده تتناسب مع أنماط الحياة في كل عصر ، فلا يقولنَّ قائل بأن ماقام به أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يعتبر سائغًا في عصره ولكنه بعيد التَّصور في هذا العصر ، فإنه لاعبرة بالأشكال والصور ، وإنما العبرة بالأهداف والمقاصد التي بها تتحقق الحياة السعيدة للمسلمين، وذلك برعاية حق الله أولاً ثم حقوق الناس العامة والخاصة .

وفيما قام به أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من إجراء العقوبة

---

(١) تاريخ الطبري ١٥٧/٥ .

على المعتدي مع تنازل صاحب الحق دلالة على إدراكه رضي الله عنه لمقاصد الإسلام من حفظ الأمن وإشاعة السلام بين المؤمنين ، وذلك لأنه سيرتدع من تميل نفسه إلى الاعتداء على غيره إذا عرف بأن العقوبة ستجرى عليه ولو عفا عنه خصمه .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام الذهبي بإسناده من خبر الإمام الحسن البصري قال : لما قدم عليّ البصرة قام إليه ابن الكوّاء، وقيس بن عبّاد فقالا له :ألا تخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرْتَ فيه، تتولّى على الأمة، تضربُ بعضهم ببعض ، أعهدٌ من رسول الله ﷺ عهدهُ إليك، فحدِّثنا فأنت الموثوق المأمون على ماسمعت ؟فقال: أما أن يكون عندي عهدٌ من النبي ﷺ في ذلك فلا ، والله إن كنتُ أوّل من صدّق به ، فلا أكون أول من كذبَ عليه، ولو كان عندي من النبي ﷺ عهدٌ في ذلك ، ماتركت أخا بني تَيْم بن مُرّة (١) ، وعمر بن الخطاب يقومان على منبره ، ولقاتلتهُما بيدي ، ولو لم أجد إلا بُرْدي هذا ، ولكن رسول الله ﷺ لم يُقْتل قتلا ، ولم يمتْ فجأة ، مكث في مرضه أيامًا وليالي ، يأتيه المؤذّن فيؤذنه بالصلاة ، فيأمر أبا بكر فيصلّي بالناس ، وهو يرى مكاني ، ثمّ يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصّلاة، فيأمر أبا بكر فيصلّي بالنّاس ، وهو يرى مكاني ، ولقد أرادت امرأةٌ من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر فأبى وغضب وقال : «أنتنّ صواحب يوسف ، مُرُوا أبا بكرٍ يُصلِّ بالناس » .

فلما قبض الله نبيَّه ، نظرنا في أمورنا ، فاخترنا لدُنيانا من رضيه

---

(١) يعني أبا بكر الصديق رضي الله عنه .

نبيُّ الله لدينا . وكـانت الصلاة أصل الإسـلام ، وهي أعظم الأمر، وقوام الدّين . فبايَعْنا أبا بكر ، وكان لذلك أهلا، لم يختلف عليه منّا اثنان، ولم يشهـد بعضنا على بعضٍ ، ولـم نقطع منه البـراءة، فأدّيتُ إلى أبي بكر حقّـه ، وعرفت له طاعـته ، وغزوت مـعه في جنوده، وكنت آخذُ إذا أعطاني ، وأغزو إذا أغزاني ، وأضرب بين يديه الحدود بسَوْطي، فلمّا قُبِضَ ، ولاّها عمر ، فأخذ بسُنَّة صاحبه،ومايعرف من أمره، فـبايعْنا عمر ، لم يخـتلف عليه منّا إثنان ، ولم يشهـد بعضُنا على بعضٍ ، ولم نقطع البراءة منه، فأدَّيتُ إلى عـمر حقّه ، وعرفت طاعته، وغزوت معه في جيوشه ، وكنت آخُذُ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني ، وأضرب بين يديه الحدود بسَوطي .

فلمّا قُبِض تذكَّرت في نفسي قرابـتي وسابقتي وسالفتي وفضْلي، وأنا أظنّ أن لايعْدل بي، ولكنْ خشي أن لايعمل الخليفة بعده ذَنْبًا إلا لحقَه في قبـره، فأخرج منها نفْسه وولده، ولو كـانت محاباةً منه لآثر بها ولَدَه فبريء منها إلى رهْط من قريش ستّة ، أنا أحدُهُمْ .

فلمّا اجتـمع الرَّهْط تذكَّرت في نفسي قرابتي وسـابقتي وفضلي، وأنا أظنّ أنْ لايعْدلوا بي ، فأخذ عبـد الرحمن مواثقنا على أن نسمع ونُطيع لمن ولاّه الله أمرنا ، ثمّ أخـذ بيد ابن عفان فـضرب بيده على يده، فنظرت في أمري، فإذا طاعتي قد سبقت بيْعتي ، وإذا ميثاقي قد أُخذ لغيري ، فـبايعنا عثمان ، فأديت له حقّـه ، وعرفت له طاعته، وغـزوت معـه في جـيـوشه ، وكنت آخـذ إذا أعطاني ، وأغـزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسَوْطي .

فلمّا أصيبَ نظرت في أمري ، فإذا الخليفتان اللّذان أخذاها بعهد رسول الله ﷺ إليهما بالصّلاة قد مضيا ، وهذا الذي قد أُخذ له الميثاق، قد أصيب فبايعني أهل الحرمين وأهل هذين المصرين (١).

فهذا مثل من أمثلة العدل وقول الحق ولوكان لغير صالح النفس من الناحية الدنيوية ، وشاهد من شواهد الأمانه في نقل سنة رسول الله ﷺ ، فقدكان بإمكان علي رضي الله عنه أن يقول شيئًا مما يثبت أمره ويعتبر قوة على منافسيه ، ولكنه يعلم أن ذلك من خيانة الأمانة الدينية ، وماكان ليقدم مجد الدنيا الزائل على رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

إن هذا الأمر لايتصور حدوثه من صغار الصحابة رضي الله عنهم فضلا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه المشهود له بالجنة والسابق بالخيرات .

من أخباره في الزهد والورع :

من أخبار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الزهد والورع ما أخرجه أبو نعيم بإسناده عن علي بن ربيعة الوالبي أن علي بن أبي طالب جاءه ابن النباج فقال: ياأمير المؤمنين امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء ، فقال: الله أكبر ! فقام متوكئًا على ابن النباج حتى قام على بيت مال المسلمين فقال :

هذا جَنَايَ خِيارُه فيه — وكلُّ جَانٍ يده إلى فيه

ياابن النباج عليَّ بأشياع الكوفة ، قال: فنودي في الناس فأعطى

(١) تاريخ الإسلام ، عهد الخلفاء الراشدين / ٦٤٠ - ٦٤٢ .

جميع مـافي بيت مال المسلمين وهو يقول : ياصفراء ويابيـضاء غُرِّي غَيرِي ، ها ، وها ، حتى مابقي منه دينار ولادرهم ، ثم أمره بنضحه وصلى فيه ركعتين .

وفي رواية أخرى لأبي نعـيم من خبر مـجمع التيمي قـال : كان عليّ يكنس بيت المال ويصلي فيـه ويتّخذه مسجداً رجـاء أن يشهد له يوم القيامة (١) .

ففي هذا مثل بليغ في الترفُّع عن مـتاع الدنيا الزائل ، فبيت المال قد امتلأ من الذهب والفـضة ، ولاينظر إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه نظرة إعجـاب وغرور ، بل كان جـوابه حينما أبلغه المسـئول المالي عن ذلك أن قـال : الله أكبر ! فـإذا كان بعض الناس يـكْبِرون الدنيا ويعظمونها فالله تعالى أكبر منها ومن كل شيء ، ومادام المسلم يشعر حقا بأن الله أكبر فلماذا يجعل قلبه مستسلماً لما هو أصغر !!

إنه فقـه عظيم من علي رضي الله عنه حـينما تذكر هـوان الدنيا وحقارتها فكبَّر الله تعالى ، ولسـان حاله يؤنِّب من انخدع بمتاع الدنيا الزائل ونسي أن الله جل وعلا أكبر من كل شيء .

وإنه لميزان دقـيق يحسـه المؤمن الذي نَوَّرَ الله سبـحانه بصـيرته، فكلما كان اللـه تعالى أعظم وأكبر من كل شيء في قلبـه كانت الدنيا ومافيـها أهون شيء عليه ، وأصبح يُسَخِّـر المال الحلال في طاعة الله جل وعلا ، وكلما عظمت الدنيا في قلبه كان ذلك على حساب نقص تعظيمه لله تعالى .

ونجد علـيا رضي الله عنه يُحلِّق في آفـاق العظمة وهو يـخاطب

(١) حلية الأولياء ١/ ٨٠ -٨١ ، تاريخ الإسلام للذهبي / الخلفاء الراشدون/ ٦٤٣ .

الدنيا بقوله : ياصفراء يابيضاء غُرِّي غيري . . مما يدل على الوجدان الحيّ والحسِّ المرهف الذي يصور الدنيا كخصم يخاتل ويراوغ خصمه . . وهو بهذا يعلن انتصاره على جموح النفس وجنوح العواطف ، ويُحكِّم عقله الذي يعطي الدنيا حجمها المناسب لزمنها المحدود في شقائها ونعيمها ، ويعطي الآخرة حجمها المناسب لخلودها وعظمة نعيمها وهول جحيمها .

ونجده رضي الله عنه يصل إلى قمة المعالي حينما صلى في بيت المال ركعتين لتكونا شاهدتين له يوم القيامة بأنه قد عدل في حكمه واستقام في أمره .

ولعل في اتخاذ بيت المال مسجداً رمزاً لعلو الآخرة على الدنيا، وهو مكمِّل للسلوك العالي الذي مارسه في تصريف ذلك المال في وجوهه المشروعة .

ومن مواقف علي رضي الله عنه في الزهد والورع مارواه هارون ابن عنترة عن أبيه قال : دخلت على علي بن أبي طالب بالخَوَرْنَق(١) وهو يُرعَد (٢) تحت سَمَلٍ قطيفة (٣) فقلت : ياأمير المؤمنين إن الله قد جعل لكِ ولأهل بيتك في هذا المال وأنت تصنع بنفسك ماتصنع ، فقال: والله ما أرزؤكم من مالكم شيئًا وإنها لقطفيتي التي خرجت بها من منزلي - أو قال من المدينة (٤) .

---

(١) موضع بالكوفة .

(٢) يعني من شدة البرد .

(٣) يعني قطيفة قديمة .

(٤) حلية الأولياء ١/ ٨٢ ، صفة الصفوة ١/٣١٦ ، تاريخ الإسلام ، الخلفاء / ٦٤٤ .

وهنا نتساءل فنقول : ما الذي حمل أمير المؤمنين عليّا على أن يعيش عيشة الفقراء وأن يتحمل البرد القارس وهو قادر على أن يشتري أفخر ما يوجد في الأرض من الملابس وأكثرها دفئًا ؟ !

ولماذا تورع عن أموال المسلمين مع أن له حقا فيها ؟

إنه مثال للزهد الحقيقي حيث يرغب عن متاع الدنيا مع القدرة التامة على تحصيله .

إنه تلميذ المدرسة النبوية التي تربى فيها على الزهد في متاع الدنيا الزائل ، والتنافس على نعيم الآخرة الخالد ، فلقد عاش رسول اللهﷺ عيشة الفقراء وهو يستطيع أن يكون كأفضل الأغنياء .

ومن أخبار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الزهد والورع ما أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي مطر عمرَ بن عبد الله الجهني قال : رأيت عليًّا عليه السلام متَّزرًا بإزار مرتديًا برداء ومعه الدِّرَّة [1] كأنه اعرابي بدوي ، ثم ذكر دخوله إلى السوق ومساومته أحد التجار في ثوب بثلاثة دراهم ، وأن التاجر عرفه ، قال: فلما عرفه لم يشتر منه شيئًا ، فأتى آخر فلما عرفه لم يشتر منه شيئًا ، فأتى غلامًا حدثًا فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم ، ثم جاء أبو الغلام فأخبره، فأخذ أبوه درهمًا ثم جاء به فقال : هذا الدرهم ياأمير المؤمنين، قال : ماشأن هذا الدرهم ؟ قال: كان ثمن القميص درهمين، فقال : باعني رضاي وأخذ رضاه [2] .

---

(١) الدرة بكسر الدال وتشديدها العصا .

(٢) الزهد / ١٣٠ .

فهـذا مثل في الـزهد من أميـر المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فلقد كان مظهره في لباسه يوحي بأنه رجل أعرابي لخشونة ملابسه ، وحينما اشترى له ثوبًا اختار نوعًا متواضعًا رخيص الثمن مع أنه كان آنذاك أعلى مسئول في العالم ، حيث كان خـليفة المسلمين، وهذا يدل على تواضعه وزهده في الدنيا .

ومثل آخر في الورع والاحتياط للدين حينما امتنع من الشراء ممن يعرفونه حتى لايراعوه في الثمن لمنصبه ، فهو لايريد أن يستثمر منصبه الكبيـر لمصالحه الخاصـة ، وهذا فهم دقيق لمجالات الورع والتـقوى، فالخلافة عنده وعند أمـثاله عمل صالح ، والخليفة إذا صـاحبه العدل كان أول السـبعة الذين يظلهم الله تعـالى في ظله يوم القيامة ، فـهو لايريد أن يدنس هذا العمل الصالح بمصالح دنيوية فيتحول العمل إلى مَجْلَبة للوزر بدلاً من الأجر ، فكان بهـذا السلوك العالي قدوة حسنة لمن أتوا بعده .

ومن أخـباره رضي الله عـنه في الزهد ما أخـرجـه عبـد الله بن الإمام أحمد من حديث عمر بن قيس قال : قيل لعلي عليه السلام : لِمَ ترقع قميصك ؟ قال : يخشع القلب ويقتدي به المؤمن [١] .

فهـذا مثل من زهده رضي الله عنه وحرصـه على تربية المسلمين على حـياة الزهد والتـقشف ، فـقـد لاحظ في لبس الثوب المرقـوع ملحظين : الأول أنه وسيلة إلى خشـوع القلب وتواضع النفس والبعد عن أسباب العجب والكبرياء،والثاني أنه يعتبر بذلك قدوة للمسلمين،

---

(١) الزهد / ١٣١ ، وانظر تاريخ الإسلام / الخلفاء / ٦٤٧ .

فإذا رآه الناس - وهو في أعلى منصب - يلبس الثوب المرقوع فإن نفوسهم تتطامن ويبتعدون عن التنافس في شراء الملابس الغالية الثمن، ويَتَقَوَّى بذلك الزاهدون الذين يتعرضون لملامة الناس على سلوكهم حياة الزهد .

وكذلك ماأخرجه الإمام أحمد من خبر عبد الله بن زُرَير الغافقي قال :دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه - قال حسن[1]: يوم الأضحى - فقرب إلينا خَزِيرة [2]،فقلت:أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط - يعني الوزّ - فإن الله عز وجل قد أكثر الخير! فقال : ياابن زرير إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : لايحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان ، قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يضعها بين يدَي الناس [3] .

فهذا أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يضرب مثلا عاليا في الورع والزهد في متاع الدنيا الزائل من طعام وشراب ، فلقد كان بإمكانه أن يأخذ من بيت المال ماشاء من الأموال مما لايلفت النظر إليه ، حيث يُؤَمِّن له معيشة مساوية لأغنياء المسلمين، ولكنه رضي بخشونة العيش إيثارا للآجلة على العاجلة، واحتياطا لأمر دينه ، وإبرازاً للقدوة الصالحة ، لأنه إذا كان أعلى رجل في الدولة يعيش هذا المستوى من العيش فإن في ذلك عزاء

(١) هو حسن بن موسى شيخ الإمام أحمد .

(٢) الخزيرة لحم يقطع ويطبخ بالماء ثم يذر عليه الدقيق .

(٣) مسند أحمد ١/ ٧٨ .

للفقراء ليصبروا ويرضوا بقضاء الله تعالى وقدره ، ووعظًا للأغنياء ليشكروا الله تعالى فيخففوا من اندفاعهم نحو الترف والإسراف .

وإذا أخذ الأغنياء بالمنهج الوسط في المعيشة فإن فضول أموالهم ستعود في النهاية إلى الفقراء لما ينتظرونه مقابل ذلك من الجزاء المضاعف في الآخرة ، وبالتالي يرتفع الفقراء درجات نحو الوسط ، وينزل الأغنياء درجات نحو الوسط ، ليعيش الجميع حياة متقاربة في الأمور المعيشية من طعام ولباس ومركب وسكن .

وهذا هو المنهج الإسلامي الذي طبقه رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون من بعده رضي الله عنهم .

من مواقفه في الوصايا والحكم التربوية :

من ذلك ماذكره أبو نعيم وابن الجوزي رحمهما الله عن عاصم ابن ضمرة رحمه الله عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ألا إن الفقيه كل الفقيه الذي لايقنِّط الناس من رحمة الله ولايُؤَمِّنُهم من عذاب الله ولايرخص لهم في معاصي الله ، ولايدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ، ولاخير في عبادة لاعلم فيها ، ولاخير في علم لافهم فيه ، ولاخير في قراءةلاتدبُّر فيها (١) .

ففي هذا النص يبين لنا علي رضي الله عنه أن من الفقه في الدين التزام صفة الاتزان والاعتدال في عرض أمور الدين ومحاولة إصلاح الناس ، وذلك بأن يسير الداعية في خط وسط بين مقامَي الخوف والرجاء ، فلاينطلق في تخويف الناس إلى الحد الذي يجعلهم يقنطون

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٧٧ ، صفة الصفوة ١/ ٣٢٥ .

من رحمة الله تعالى ، ولاينطلق في تخويف الناس إلى الحد الذي يجعلهم يأمنون من عذاب الله تعالى ، ولقد جاءت آيات وأحاديث الوعد والتبشير أدوية شافية من أمراض اليأس والقنوط التي تحمل صاحبها على فقد الرجاء والأمل بعفو الله جل وعلا ورحمته، كماجاءت آيات وأحاديث الوعيد والإنذار أدوية شافية من أمراض الجفاء والقسوة ، التي تحمل صاحبها على فقد الخوف والخشية من نقمة الله تعالى وعذابه .

والحكيم كل الحكمة هو الذي يضع الأدوية في مواضعها المناسبة لها، ولقد ضلت طوائف بسبب الإفراط في الأخذ بأخبار الوعد فأعطوا بذلك من ضلوا معهم أمانا من عذاب الله تعالى وإن قصروا وخالفوا ، وضلت طوائف بسبب الإفراط في الأخذ بأخبار الوعيد فأوقعوا من تأثر بهم في دائرة اليأس من رحمة الله تعالى، والمنهج الصحيح هو الاتزان والاعتدال في الأمرين .

ونجد عليا رضي الله عنه في هذا النص يبين أن من مظاهر الفقه في الدين أن لايهون العالم من شأن المعاصي فيجرئ الناس على ارتكابها ، وأن يحافظ على مستوى الإيمان والتقوى لدى الناس مع محاولة رفعهم نحو الكمال في ذلك .

كما يبين أن من الفقه أن يحاول العالم ربط المسلمين بكتاب الله تعالى ، وأن لايتجاوزه إلى غيره رغبة عنه لأنه مصدر الهداية الأول، ومن المعلوم أن السنة النبوية بيان تفصيلي للقرآن الكريم فالتوجيه إلى القرآن يعتبر توجيها إلى السنة .

ثم يبين أن من أهم شروط العبادة الشرعية المقبولة أن تكون صادرة عن علم بالكتاب والسنة ،وأن العلم لايكون نافعا إلا إذا رافقه الفهم الصحيح ،وذلك أنه إذا تخلف الفهم الصحيح فقد يخلفه الفهم السقيم فيكون الضلال والانحراف، ومن هنا كان الاطلاع على فقه العلماء الربانيين له أهميته القصوى في تصحيح الفهم وتقويم الفكر .

ويختم وصيته النافعه ببيان أهمية تدبُّر معاني كتاب الله تعالى حال التلاوة لأن الخير كل الخير في فهم مقاصد القرآن الكريم للعمل بأحكامه والاتعاظ بمواعظه وتنمية الإيمان بتذكر معاني هذا الكتاب العظيم .

ونجد وصية أخرى رواها الشعبي رحمه الله عن علي رضي الله عنه أنه قال :ياأيها الناس خذوا عني هؤلاء الكلمات،فلو ركبتم المُطِيَّ حتى تُنضوها - يعني تهزلوها - مااصبتم مثلها :لايرجوَنَّ عبد إلا ربه،ولايخافنَّ إلا ذنبه ، ولايستحيي - إذا لم يعلم - أن يتعلم، ولايستحي - إذا سئل عما لايعلم - أن يقول لا أعلم،وأعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولاخير في جسد لارأس له[1].

ففي هذه الوصية الجمع بين تصحيح التوحيد ، والإرشاد إلى آداب العلم ، حيث يوصي رضي الله عنه بتصحيح الاتجاه في مقامَي الخوف والرجاء ، فالمؤمن الحق لايرجو إلا الله تعالى لأنه وحده المنعم بسائر النعم ، والذين تجري على أيديهم النعم من المخلوقين إنما هم

---

(١) حلية الأولياء ١/٧٥ ، صفة الصفوة ١/٣٢٦ .

وسائط وأسباب في وصول تلك النعم ، أما منشئ النعم وموجدها فهو الله تعالى .

والمؤمن الحق لايخاف إلا من الله تعالى لأنه هو الذي يملك ضره ونفعه ، والمخلوقون الذين يتوهم الناس أنهم مصدر خوف إنما هم وجميع الخلق في قبضة الله تعالى ، وإذا كان الله تعالى وحده هو الرازق وهو الخالق وحده وهو المالك وحده القادر على كل شيء فلِمَ يرجو المؤمن سواه أو يخاف من غيره ؟!

ولقد عبر علي رضي الله عنه عن الخوف من الله تعالى بالخوف من الذنوب لأن المراد هو الخوف من عاقبتها وهو عذاب الله تعالى فهو إرشاد لأهم السبل الموصلة إلى تحقيق مقام الخوف من الله تعالى.

ثم يبين شيئا من آداب التعلم لأن أمور الدين إنما تؤخذ بالعلم فيذكر من آداب المتعلم أن لايمنعه الحياء من التعلم حتى لوكان كبير السن أو القدر ، ويذكر من آداب المعلِّم أن لايمنعه الحياء من أن يقول لا أعلم فيما لاعلم له به لأن ذلك يحفظ عليه دينه ودين من سأله.

ثم يختم وصيته النافعة ببيان أصل من أصول الإيمان ألا وهو الصبرحيث يعتبره من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، وذلك أن نجاح الأمور كلها يقوم على الصبر سواء في أمور الدنيا أو الآخرة .

ومن ذلك مارواه عبد خير بن يزيد الهمداني رحمه الله عن علي رضي الله عنه قال : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك ، وأن تباهي الناس بعَبادة ربك، فإن أحسنت حمدت الله وإن أسأت استغفرت الله ، ولاخير في الدنيا إلا

لأحد رجلين: رجل أذنب ذنبا فهو يتدارك ذلك بتوبة ، أو رجل يسارع في الخيرات ، ولايقلُّ عمل في تقوى، وكيف يقلُّ ما يُتقبَّل[1].

ففي هذه الوصية يبين لنا علي رضي الله عنه مقياس الخيرية والأفضلية في هذه الحياة الدنيا ، فأفضل الناس ليس أكثرهم مالاً ولا أولادًا كما يفهم الجاهلون ، بل أفضلهم أعلمهم بالله تعالى وأكثرهم حلما، والعلم إذا لم يوصل إلى خشية الله تعالى وتقواه فليس بعلم نافع ، والحلم يكون خلقًا متوارثًا ويكون مكتسبًا ، والحلم المكتسب أثر من آثار العلم بالله تعالى .

ويشير علي رضي الله عنه إلى الأمر العالي الذي يجب أن يكون التنافس عليه في هذه الحياة وهو عبادة الله تعالى ، وليس المقصود بالمباهاة بالعمل الصالح مراءاة الناس بذلك وإنما المقصود وضوح الهدف العالي الذي يجب أن يتنافس المسلمون على بلوغه ألا وهو بذل الجهد في عبادة الله تعالى وحده.

ويبين علي رضي الله عنه أن الذين يستفيدون من بقائهم في هذه الحياة الدنيا هم الذين يعمرونها بصالح الأعمال التي يتزودون بها للحياة الآخرة سواء في ذلك الذين يكسبون هذه الأعمال الصالحة لرفع رصيدهم الاخروي أو الذين يعملون من أجل الدنيا فهم من ضعاف العقول لأن أنظارهم قصرت على دار الزوال ولم تطمح إلى دار الخلود فلا خير في أعمالهم .

ونجد عليا رضي الله عنه في وصية أخرى يحذِّرنا من داءين خطيرين هما اتباع الهوى وطول الأمل حيث يقول: إن أخوف ما أخاف

(١) حلية الأولياء ١/ ٧٥ ، صفة الصفوة ١/ ٣٢١ .

اتباع الهوى وطول الأمل فـأما اتباع الهوى فيـصدُّ عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ألا وإن الدنيـا قد ترحَّلت مدبرة، ألا وإن الآخرة قد ترحَّلت مقبلة ، ولكل واحـدة منهما بَنُون، فكونوا من أبناء الآخرة ولاتكونوا من أبناء الدنيـا فإن اليـوم عمل ولاحسـاب وغداً حـساب ولاعمل (١) .

فالداء الأول هو اتبـاع الهوى ، وقـد بين علي رضي الله عنه أنه يصد عن الحق ، وذلك أن الذي يتـبع هواه يسد منافـذ فكره فلايصل نور الحق إلى عقله .

والداء الآخر طول الأمل ، وقد ذكر أنه ينسي الآخرة ، وذلك أن الذي يعـيش مع أحلام الدنيـا تستـهويه هذه الأحـلام فيـسخِّـر فكره للتخطيط للمستقبل الدنيوي ، وينسى العمل للمستقبل الأخروي.

ثم يصور زوال الدنيا بالراحل المدبر ،فـالذي يتبع ذلك قد انخدع بالسـراب ولن يصل إلى النعـيم الحقـيقي ، ويصـوِّر الآخرة بالقـادم المقبل، وإنه ليس من العـقل السليم أن ينشغل الإنسـان بالمدْبِر الفائت عن المقبل المحقق.

ومن وصـايا أمـيـر المؤمنين علي رضي الله عنه النـافعـة مـارواه عبدالله بـن عباس رضي الله عنهمـا قال: ماانتفعت بـكلام أحد بعد رسول الله ﷺ كانتفاعـي بكتاب كتب به إلي علي بن أبي طالب فإنه كتب إلي :« أما بعد فإن المرء يسوءه فَوْتُ ما لم يكن ليدركه ، ويسره دَرْكُ مـا لم يكن ليفـوته ، فليكن سـرورك بمانلت من أمر آخـرتك،

(١) حلية الأولياء ١/ ٧٦ ، صفة الصفوة ١/ ٣٢١ .

وليكن أسفك على مـافاتك منهـا ، ومانلت من دنياك فـلا تكثرنّ به فرحا ،ومـا فاتك منها فلا تأس عليـه حزنا، وليكن همك فيـما بعد الموت [(١)] .

وإنها لوصية نافعة حقـا حيث ركز فيها علي رضي الله عنه على جمع الفكر وتسخيره للنظر في أمور الحياة الآخرة، وقدّم لذلك بمقدمة يؤمن بها جميع العقلاء ، وهي أن الإنسان العاقل يسره إدراك مايحب ويسوءه فوات ذلك عليه ، وإذا كان الأمر كذلك وعرفنا حقيقة أخرى يدركها كل مسلم وهي أن الآخرة هي دار الخلود وأن نعيمها هو النعيم الحقيقي الذي لا يخالطه كدر ، وأن شقـاءها هو الشقاء الحقيقي الذي لايخالطه سعادة . . إذا عرفنا ذلك فـإن من كمال العقل وسداد الرأي أن يسعى المسلم إلى إدراك ما يحب من أمر الآخرة والندم على مافات منها وأن لايشغل نفسه عن ذلك بأمور الدنيا الزائلة .

ومن ذلك الخـبر الذي رواه الحافظ أبو نـعيم عن كُمَـيْل بن زياد قـال: أخذ علي بن أبي طـالب رضي الله عنه بيـدي فأخـرجني إلى ناحيـة الجبَّـان - يعني الصحراء - فـلما أصحـرنا جلس ثم تنفس ثم قال: ياكميل بن زياد ، القلوب أوعية فخيرها أوعاها للعلم، احفظ ما أقـول لك : الناس ثـلاثة : عـالم رباني ، ومـتـعلم عـلى سـبـيل نجاة،وهَمَجٌ رعاع أتباع كل ناعق ،يميلون مع كل ريح ، لم يسـتضيئوا بنور العلم ، ولـم يلجئوا إلى ركن وثيق ، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنـت تحرس المال ، العلم يزكـو على العمل والمال تنقـصه

(١) صفة الصفوة ١/٣٢٧ .

النفـقـة ،العلم حـاكم والمال مـحكـوم عليـه ، وصنعـة المال تزول بزواله، ومحـبة العالم ديـن يدان بها، العلم يُكسب العـالِم الطاعة في حيـاته ، وجميلَ الأحدوثة بعـد مماته ، مات خُزَّان المال وهم أحـياء والعلماء باقون مابقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة (١) .

إن هذه الوصـية الـبليغـة قـد اشتـملت على دُرر المواعظ وغُـرَر الحِكَم، فقد قسم علي رضي الله عنه الناس إلى ثلاثة أقسام :

الأول : العلمـاء الربانيون ، والمقـصـود بالعلماء علمـاء الدين، والربانيون الذين يجمـعون بين الفقه والحكمة كما جـاء في تفسير ابن عباس رضي الله عنهـما في قوله تعالى ﴿ ولكن كونوا ربانيين ﴾ قال : حكماء فقهـاء ، أخرجه الإمام البخاري ، وبذلك فـسره عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٢) .

فالذيـن يجمعـون بين الحكمة والـفقه هم المؤهـلون لتربيـة الأمة وتوجيهها ، لأن الحكمـة وضع الشيء في موضعه المناسب ومن ذلك التوفـيق إلى تطبيق الحكم الشـرعي على واقع الناس، وذلك يقـتضي فهما دقيقا لواقع المجتـمع الإسلامي ، ومن الحكمة القيام بتربية الأمة بهـذا الدين ، وذلك يقـتضي الجـمع بين تعليم الدين والـتربيـة على التقوى ومكارم الأخلاق .

أما الفقه فهو فهم الأحكام الدينية من مصادرها الشرعية.

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٧٥ ، صفة الصفوة ١/ ٣٢٩ .

(٢) فتح الباري ١/ ١٦١ .

ولذلك كان العلماء الربانيون هم أفضل الأمة ، لأنهم جمعوا بين فضيلتين : تَلَقِّي العلم ، والتعليم مع التربية ، فهم المؤهلون لتربية الأمة وتوجيهها .

القسم الثاني : طلاب العلم الذين أخلصوا نياتهم في طلب العلم ليكون وسيلة إلى نجاتهم من المسئولية أمام الله تعالى، وقد عبر علي رضي الله عنه عن هذا القسم بقوله « ومتعلم على سبيل نجاة » وهذا لايختص بالدارسين الذين تفرغوا لطلب العلم ، وإنما يشمل كل من حمل مسئولية تطبيق هذا الدين ، وأهمَّه أمر نجاته في الآخرة ، فاستفتى في أمور دينه العلماء الربانيين ، ليعبد الله تعالى على بصيرة وليستقيم في معاملته مع الناس على منهج شريعة الله تعالى ، فهذا يعتبر من المتعلمين على سبيل النجاة وإن لم يجلس في حلقات العلم.

القسم الثالث : الذين هجروا العلم الديني ولم يكن لهم ارتباط بالعلماء الربانيين في معرفة أمور دينهم ، وقد عبر عنهم علي رضي الله عنه بقوله « وهَمَجٌ رعاع اتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق » فهؤلاء هم الذين اهتموا بأمر دنياهم وأهملوا أمر آخرتهم ، فهم يتبعون كل داع يدعوهم إلى أمر مستقبلهم الدنيوي ، ولكنهم يستثقلون الدعوة إلى تأمين مستقبلهم الأخروي .

وقد ذكر من صفاتهم أنهم يميلون مع كل ريح ، وهذا يعني أنهم لايثبتون على مبدإ واحد تجاه هذا الدين ، فهم أحيانًا يلتزمون ببعض الطاعات ، ثم يهملونها أحيانًا أخرى ، وأحيانا يقلعون عن بعض

المعاصي ، ثم يعودون إليها ، وذلك لأنهم لم يتصوروا المبدأ الواضح الذي يتفق على الإيمان به والعمل له كل المسلمين المخلصين، ألا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة في الآخرة ، كما قال الله تعالى عن الصحابة رضي الله عنهم ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (١) فالفضل من الله هو الجنة ورضوان الله أكبر من ذلك، فالذي يتصور هذا الهدف ويؤمن به حقا يستقيم سلوكه في هذه الحياة ، لأن كل أعماله تتوجه وتتعدل بموجب مراعاة هذا الهدف السامي ، أما الذي يفقد تصور هذا الهدف فإنه حقا يميل مع كل ريح .

ثم ذكر من صفاتهم أنهم لم يستضيئوا بنور العلم ، وذلك لأنهم أخذوا هذا الدين بالوراثة ، فهم مسلمون لأنهم وُلدوا كذلك ونشئوا في بيئة إسلامية، ولكنهم لايهتمون بأمور الدين ولايسألون أهل الذكر عما خفي عليهم .

ثم ذكر أنهم لم يلجئوا إلى ركن وثيق ، وذلك لأنهم بالرغم من إيمانهم بالله تعالى فإن هذا الإيمان ليس له وجود حيّ في قلوبهم بحيث يؤثر على حياتهم فيحرك مشاعرهم ، ثم بالتالي يقوّم

---

(١) الفتح / ٢٩ .

سلوكـهم، ولذلك فإنهم يأخـذون من أمور الدين مـا يوافق أهواءهم ويتركون ما يخالفها .

وفي المقطع الأخيرِ من الوصية يعقد علي رضي اللـه عنه مقارنة بين العلم والمال ، باعـتبـار أن العلم الشرعي هـو عماد أهـل الآخرة ومعقد عزهم وشرفهم في الدنيـا والآخرة ، وباعتبار أن المال هو عماد وجود أهل الدنيـا ومحط تنافسـهم وشرفهم ، وقـد بدأ بالحكم على العلم بأنه خير من المال ، والمقـصود بالعلم هنا العلم الإلهي حيث إنه هو الذي يهـدي إلى رضـوان الله تعـالى وسـعادة الدنيـا والآخـرة، والمقصود بالمـال هنا الذي يجمعه صاحـبه لذاته ولايتوجه فـيه بالعلم الإلهي . وقد سوغ هذا الحكم بعدة أمور :

١- أن العلم يحرس صاحبه بينما صاحب المال هو الذي يحرسه، فأما حـراسة العلم صاحبـه فإن العلم الإلهي يقي صاحبـه من مهالك الدنيا والآخـرة ، فأما أمـر الآخرة فظاهر معلـوم حيث إن هذا العلم يقود صاحبه إلى رضـوان الله تعالى وَالجنة ويجنبه طريق النار . . وما أعظمها من مطالب وما أبلغها من مكاسب .

وأما الوقاية من مـهالك الدنيا فإن السعادة الروحـية الحقة لاتكون إلا باليقين الذي تتـضاءل أمامـه الحياة الدنيا فـتصبح جـميع مآسيـها ونكباتهـا بَرداً وسلامـا على أصحـاب اليقين لأنهم لايُلقـون لها بالا ولايعيـرونها اهتـمامـا بينما تتـحول هذه المآسي والـنكبات إلى حـياة جحـيميـة على أهل الدنيا الذين يعتـبرون الحيـاة الدنيا هي رأس المال والمكسب .

وأمـا حراسـة صـاحب المال مـاله فـأمرها ظـاهر ، فكم تململ أصحابهـا من الهم والخوف عليهـا تململ المريض وكم تجافت جنوبهم عن مضـاجعـهم من التفكير المنـهك كما تتـجافى جنوب العـبَّاد عن مضاجـعهم! ولكن ماأبعد الشـقة بين مطالب هؤلاء ومطالب هؤلاء ! لئن جـمع بينهم التفكيـر العمـيق الذي يطيـر معه النـوم فإن العُـبَّاد يَسْـبحـون في جـو عبق من الرَّوح والريـحان ، والأمل المشـرق في مستقبل أخروي سعيد ، وماجفا النوم عيونهم إلا لطموحهم نحو مزيد من المنازل العليـا في الجنة ، وإن أصـحاب هذا الشـعور المشـرق لن يتطرق إلى قلوبهم شيء من الغم الـقاتل ، بخلاف من بـات يحرس ماله بهمه وقلقه وحزنه المنهك .

٢ - أن العلم ينمو ويتـرسخ بالعمل ، لأن العمـل تطبيق للعلم فـهو بذلك يزيده عـمـقًا في الذاكـرة بخـلاف المال فإن الإنفـاق منه ينقـصه، ولا يغيبنَّ عن الـبال أن المقصـود هنا أموال أهل الدنيـا التي ينفقـون منها من أجل الدنيـا، أما أموال أهل الآخـرة فإنها مـحكومة بالعلم الإلهي ، فالإنفـاق منها يزيدها نموّاً كما جـاء في قول الرسول ﷺ « مانقص مال عبد من صدقة » [1] .

٣ - أن العلم الشرعي حـاكم لأنه به تنتظم شئون الحـياة، وعلى منهاجه يجب أن تقـرر جميع الأنظمة التي تحكم الناس، فـهو الحاكم الحقـيقـي ، أما المال فـإنه محكوم عليـه لأن إصداره وإيراده يخـضع للأنظمة الحاكمة سواء كانت شرعية أو غير شرعية .

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ١٧ .

٤- أن العلاقات الاجتماعية التي تقوم على المصالح المالية المشتركة تزول بزوال المال ، لأنه هو الذي عقد تلك العلاقات بناء على تبادل المصلحة بوجوده فإذا زال زالت تلك المصالح، أما العلاقات الأخوية التي تقوم على تبادل العلم الشرعي بين العالم ومحبيه فإنها باقية خالدة في الدنيا والآخرة كما قال الله تعالى ﴿ **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** ﴾ [**الزخرف**: ٦٧] بل إن هذه الأخوة تكون في الآخرة أجل وأعلى كما في قول الله تعالى عن أهل الجنة ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾ [**الحجر**: ٤٧].

٥ - أن العلم الشرعي يكسب صاحبه ولاء المسلمين وطاعتهم اختياراً منهم من غير أن تُفرض عليهم هذه الطاعة، وذلك على امتداد حياتهم كما يكسبهم الذكر الحسن بعد مماتهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ،حيث لايفقد الناس إلا صورهم وأشكالهم،وإننا لو استعرضنا التاريخ إلى عصرنا هذا لوجدنا العلماء من عهد الصحابةرضي الله عنهم تتردد أسماؤهم ويذكر تاريخ حياتهم في الكتب والخطب والدروس العلمية،بينما اندرست أسماء كبار أهل الدنيا بانقضاء حياتهم ، وأحيانا يشاهدون انطفاء سمعتهم وهم أحياء.

* * *

فهرس الجزأين الثالث والرابع

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



دار الأمين للطباعة

٥ ش أبو المعالي (العجوزة) الجيزة - ت/فاكس ٣٤٧٣١٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق - الهرم - ت/فاكس ٥٩٣٤٦٩٩

